المحقق آية الله الشيخ محمد السند

تفسير ملاحم المحكمات

شبكة الفكر
alfeker.net

تفسير
ملاحم المحكمات

تفسير ملاحم المحكمات

المحقق آية الله الشيخ محمد السند

الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

الأميرة

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

هاتف: ٠٣/٩٤٦١٦١ - ٠٣/١١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٢٧٦٩٨٨

http://www.Dar-Alamira.com

e-mail:zakariachahbour@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أفضل المبعوثين بالكتاب المهيمن ، والهدى المبين ، محمّد وعلى آله المصطفين ، ورثة الكتاب .

وبعد :

فقد وفّق سبحانه لنشرع في بحوث ودروس التفسير مع ثلّة من الأفاضل منذ سنة ١٤٢٧هـ. ق ، وكان منوال البحوث بالابتداء بسورة الحمد ثمّ سورة البقرة ، وهو النهج التفسيري التسلسلي المعتاد الذي قد يعبّر عنه بالتفسير التجزيئي مقابل التفسير الموضوعي الذي يعتمد على وحدة الموضوع والمفردة التفسيريّة في جملة السور القرآنيّة ليستخلص الرؤية القرآنيّة المتكاملة حول ذلك الموضوع الموحّد ، والذي قد يصطلح عليه بـ التفسير المفسّر للقرآن واستعانته بالقرآن مع هداية السنّة الشريفة .

ولكنّا اعتمدنا نهجاً آخر في ضمن النهج التسلسلي ليضفي على البحوث تنوّعاً وحيويّة أكثر ، وتلبية لسجالات فكريّة ساخنة في الساحة العلميّة والعامّة ، وهو نهج تفسير الآيات المحكمات ، وهو يغاير كلاً من التفسير التسلسلي التجزيئي والتفسير الموضوعي ، ويمتاز عنهما في جملة من الخواصّ ، وما رامه المفسّر الكبير العلّامة الطباطبائي في تفسيريه : البيان والميزان من بلورته النهج التفسيري للآيات القرآنيّة والذي ترشد إليه روايات أهل البيت عليهم السلام هو أشبه بالتفسير الموضوعي ، بينما الذي يتراءى من تعليم وبيانات أهل البيت عليهم السلام في الروايات هو تفسير المحكمات ، وامتيازاته باقتضاب الفارقة له عنهما هو :

أوّلاً : أنّ فيه يتوخّى الآيات المحكمات المهيمنة على بقيّة الآيات ، فهو وإن اشترك

مع التفسير الموضوعي من ناحية وحدة المفردة ، إلاّ أنّه يختلف عنه من جهة توخّي الموضوعة ذات الاستعلاء والاشراف على بقيّة الموضوعات .

ثانياً : أنّ الآيات المحكمات لها أُمومة ومرجعيّة لبقيّة الآيات والسور وسائر الآيات الأُخرى التي هي لها مناسبة ما مع معناها ، وإن اختلفت موضوعاتها .

ثالثاً : ضرورة ملاحظة الكتاب كلّه كمنظومة واحدة ذات ائتلاف وانسجام وتناسق في منهج تفسير المحكمات ، وهذا بخلاف التفسير الموضوعي المرسوم ، فإنّ الوحدة تلحظ في نطاق ضيّق ، وهو عنوان الموضوع فقط ، وبيان هذه الملاحظة الوسيعة هو عبر النظر إلى تداعيات الآية المحكمة على بقيّة الآيات المحكمة ، وكذا العكس ، أي تداعي تلك الآيات على الآية ، فالنظر في الترابط والرابطة فيما بينهما ، وعبر النظر أيضاً في طبقات مراتب هذه المحكمات كهرم أو سلالم متدرّجة تهيمن على بعضها البعض .

وقد أشار جملة من الأفاضل إلى فائدة نشر هذه الملاحم في المحكمات كحلقات حتّى يتسنّى فيما بعد جمعها في إصدار واحد ، عسى أن تكون مورد فائدة في مسيرة المعرفة بالقرآن العزيز.

كما أنّ هناك قواعد عديدة في أُصول علم التفسير أو ما قد يصطلح عليه في العلوم القرآنيّة قد تمّ تنقيحها في سلسلة ندوات مستمرّة عسى أن نوفّق لتحريرها في القادم الآتي إن شاء الله تعالى . .

٢٠ جمادى الثاني ١٤٢٩هـ. ق

مولد الصدّيقة الشهيدة عليها السلام

محمّد السند

تفسير سورة الحمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

الحمد لله منزّل السبع المثاني والقرآن العظيم ، الذي أرسل محمّداً شاهداً ورحمةً للعالمين ، صلّى الله عليه وعلى آله المطهّرين ، الذين يَمَسُّون الكتاب وهو كلّه آيات بيّنات في صدورهم ، أُوتوا رسوخ العلم بتأويله ويتلونه حقّ تلاوته .

وبعد ، فإنّ سورة الفاتحة وأُمّ الكتاب والسبع المثاني والحمد ذات الأسماء الجامعة هي برمّتها من محكمات السور ، وآياتها أُمّ محكمات الكتاب ، فمن ثمّ كانت مداراً للسور تحوم حولها ، ومحكمها مركز محكمات الآيات ، فإنّ الإحكام طبقات ودرجات شدّةً وضعفاً ، فكما أنّ المتشابهات تعرض على المحكمات لاستبيان معانيها ، فكذلك المحكمات تعرض على الأشدّ إحكاماً فيها والأشدّ على أشدّ الأشدّ ، وهلمّ جرّاً إلى أن تصل إلى أُمّ المحكمات وهي أُمّ الكتاب كمحور مركزيّ للمحكمات ، فمن ثمّ كانت سورة الفاتحة عِدل الكتاب كلّه وفاتحته وأُمّه ومجمع الأسماء وأعظمها والصفات وجمعها وهو الحمد.

ولذلك كان الابتداء بتفسيرها لازماً ، سواء في المنهج التسلسلي أو الموضوعيّ أو نهج المحكمات ، وقد احتوت على أُصول العلوم والقواعد والمعارف القرآنيّة ،

واستخرج من إشارات الألفاظ والتراكيب فيها جمل غير متناهية من الأسس ولا زالت قوافل التفسير الخاصّة بسورة الحمد تطالع الباحث القرآنيّ جيلاً بعد جيل ، فهناك جهات جمّة غفيرة من البحث في السورة ، إلّا أنّا نقتصر على نبذة منها ، وستدرك ما بقي في ضمن ملاحم تفسيريّة أُخرى للمحكات ، إن شاء الله تعالى بالإشارة إلى مواضعها من آي السورة.

وفي البدء نتعرّض إلى أهمّ جهة في السورة وهي آية البسملة وهي فاتحة آيات سورة الفاتحة ، وهي أعظم آية في الكتاب ، حيث جمع الكتاب في سورة الحمد ، وجمعت سورة الحمد في آية البسملة ، كما ورد في الرواية الآتي ذكرها. فالبسملة أسٌّ لأمّ الكتاب قد احتوت من مجامع أسرار الكتاب مقام جمع الجمع.

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

إنّ جملة من القرّاء نسب إليهم أنّهم لا يقرؤون بالبسملة في بدايات السور(١) ، فهذا ممّا يخدش في دعوى القطع بالجزئيّة ، والجواب: إنّ الرسم القرآني -كما مرّ- بنفسه دليل يقينيّ أخذه المسلمون يداً بيد. وهذا الدليل اليقيني لا يناهضه بعض القراءات. لأنّها -وكما هو الصحيح- ثبوتها ظنّي ، فلا يدافع ما هو يقيني.

وقد يشكل بأنّ القراءات إذا كانت ظنّيّة فكيف يؤخذ بها وتلصق بما هو يقيني وهو القرآن الكريم ، وهذا الكلام يشمل المأثور من قراءة أهل البيت عليهم السلام ولماذا لا تجعل القراءة المتداولة في المصحف الشريف هي المتعيّنة دون

---

(١) كحمزة وخلف ويعقوب واليزيدي ، إلّا القرطبي عن سجادة بن اللبّان ، عن مدين ، والمعدّل إلّا السوسي من طريق ابن حبش والباقون -كقرّاء مكّة والكوفة- فإنّهم يفصلون بالبسملة التبيان: ١: ٢٤ ذيل البسملة في سورة الحمد ، والزمخشري في ذلك الموضع.

القراءات المظنونة ؟

والجواب: إنّ القراءات رغم كونها ظنّيّة ، فإنّ ما يعالج بها كيفيّة الاستظهار من آي القرآن الكريم ، والقطع بصدور هذه الألفاظ من الوحي لا ينافي كون عمليّة الاستظهار بما تشتمل عليه من تحديد المعنى الاستعمالي ومدارج المعنى التفهيمي ومراتب المعنى الجدّي؛ هي عمليّة ظنّيّة تعتمد على قواعد الأدب واللغة في كيفيّة الاستظهار ، فالقراءات بمثابة قرائن ظنّيّة ، إذا تمّ اعتبار تلك الظنون فيعوّل عليها في الاستظهار ، ومنه يظهر أنّ القراءة الصوتيّة المتداولة بين المسلمين وإن كانت قطعيّة ، إلّا أنّ كيفيّة تلك القراءة من مواضع الوصل والفصل وغيرهما لتحديد كيفيّة الإعراب والصلة ونحوها؛ ليست قطعيّة .

وبعبارة أُخرى: هناك مساحة يقينيّة في ألفاظ القرآن الكريم لا تتنافى مع وجود بعض المساحات الظنّيّة ، ويكون منطلق المساحة الظنّيّة بعد المساحة اليقينيّة ، ومن ثمّ بحث في علم أُصول الفقه عن القراءات في ذيل حجّيّة ظهور القرآن وحجّيّة الظنون الخاصّة .

المقام الأوّل: أدلّة الجزئيّة

الدليل الأوّل:

التسالم بين المسلمين بنحو قطعيّ يقينيّ جيلاً بعد آخر على تدوين البسملة في أوائل السور ، وهذا التدوين والرسم القرآني من أمتن منابع القطع بالمصحف الشريف بين المسلمين ، ونظيره القراءة المحفوظة في الصدور جيلاً بعد جيل ويداً بيد ، فإنّهما أيضاً من المنابع القطعيّة اليقينيّة لألفاظ القرآن الكريم ، فإنّ هذه الكتابة المنقوشة للمصحف الشريف ، والقراءة المحفوظة في صدورهم ، كلّها قائمة على البدء بالبسملة في أوائل السور ، وبإزاء هذا الدليل اليقينيّ لا ترفع

اليد لأجل احتمالات اقتراحيّة لا تناهض قوّة هـذا الدليـل ، ولا تـرفع اليـد عـنه إلّا بدليل قويّ بدرجته ، ومن ثمّ وقع الإجماع القطعيّ بين الأمّـة عـلى أنّ نسـخ التلاوة لا يصار إليه إلّا بدليل قطعيّ ، وذلك نظير نسـخ الأحكـام فـي الآيـات ، حيث لا يصار إليه إلّا بدليل قطعيّ ، وما أشبه دعوى ومقالة عدم قرآنيّة البسـملة بنسخ التلاوة بل هي هي ، ومن ثمّ نقل الفخر الرازي[١] عن أبي حـنيفة تـخوّفه في هذه المسألة ، وأنّ الأولى السكوت عنها ، والصحيح لزوم الإقرار بها والتعمية والإبهام ، فإنّ مقتضى الأدلّة القطعيّة الأخذ بها لا الصدّ عنها. وقد احتجّ ابن عمر كما في رواية البيهقي على جزئيّتها بتدوينها في المصحف الشريف.

وفي رواية «مستدرك الحاكم النيسابوري»[٢] أنّ المهاجرين استنكروا عـلى معاوية عدم الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم في السورة في الصلاة بـأنّه نـقص من الصلاة.

الدليل الثاني:

التسالم بين المسلمين ـ قولاً وعملاً ـ على أنّ البسملة نزل بها الوحي في مطلع سورة الحمد ، وكذلك في مطلع كلّ سورة ، وهذا تسالم مورده وجود البسـملة في قناة الوحي فضلاً عن القرآن المدوّن والمحفوظ ، والتكلّف باحتمالات مبتدأة ومقترحة لا تناهض هذا التسالم ، لا سيّما أنّه ﷺ كان يتقيّد بحرفيّة ما فـي قـناة الوحي حتّى أنّ لفظة «قل» في السور الأربع وغيرها ، تقيّد بها ﷺ كـما جـاءت في ألفاظ الوحي ، لشدّة متابعته ﷺ لعين ما أُوحي إليه.

---

(١) التفسير الكبير : ذيل آية البسملة في الفاتحة.

(٢) المستدرك : ١ : ٢٣٣. سنن البيهقي : ٢ : ٤٩.

الدليل الثالث:

اتّفاق الإماميّة، حيث قال الشيخ في «الخلاف»[١]. دليلنا إجماع الفرقة، وقد بيّنا أنّ إجماعها حجّة، وقال في «التبيان»: «عندنا آية من الحمد ومن كلّ سورة، بدلالة إتيانهم في المصاحف بالخطّ الذي كتب به المصحف...»[٢].

وقد حكى الفقهاء في مبحث القراءة من كتاب الصلاة كلمات جلّ المتقدّمين ودعواهم الإجماع على أنّها آية من كلّ سورة، وذلك كـ«نهاية الإحكام» و«السرائر» و«جامع المقاصد» و«المعتبر» و«الذكرى»[٣].

الدليل الرابع:

الروايات المستفيضة إن لم تكن متواترة عن أهل البيت عليهم السلام:

محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن عليّ بن مهزيار، عن يحيى بن أبي عمران الهمداني، قال: «كتب إلى أبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك، ما تقول في رجل ابتدأ ببسم الله الرحمن الرحيم في صلاته وحده في أمّ الكتاب، فلمّا صار إلى غير أمّ الكتاب من السورة تركها، فقال العبّاسي: ليس بذلك بأس.

فكتب بخطّه يعيدها مرّتين: على رغم أنفه -يعني العبّاسي-»[٤].

---

(١) الخلاف: ١: ٣٣٠.

(٢) التبيان: ذيل بسم الله الرحمن الرحيم من سورة الحمد.

(٣) نهاية الإحكام: ١: ٤٦٢. السرائر: ١: ٢٢١. جامع المقاصد: ٢: ٢٨١. المعتبر: ٢: ١٨٨. ذكرى الشيعة: ٣: ٢٩٨.

(٤) الكافي: ٣: ٣١٢، باب قراءة القرآن، الحديث ٢. الاستبصار: ٣١١، الباب ١٧٠، الحديث ٣.

محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن الحسين بن سعيد، عن القاسم بن محمّد، عن صفوان الجمّال، قال: «صلّيت خلف أبي عبدالله عليه السلام أيّاماً، فكان إذا كانت صلاة لا يجهر فيها جهر ببسم الله الرحمن الرحيم، وكان يجهر في السورتين جميعاً»(١).

وروى البيهقي عن أبي هريرة: «كان رسول الله يجهر في الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم»(٢).

عليّ بن إبراهيم، عن محمّد بن عيسى، عن يونس، عن معاوية بن عمّار، قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إذا قمت للصلاة، اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة القرآن؟

قال: نعم.

قلت: فإذا قرأت فاتحة القرآن، أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم مع السورة؟

قال: نعم»(٣).

عن صفوان الجمّال، قال: «قال أبو عبدالله عليه السلام: ما أنزل الله من السماء كتاباً إلّا وفاتحته بسم الله الرحمن الرحيم، وإنّما كان يُعْرَف انقضاء السورة بنزول بسم الله الرحمن الرحيم ابتداءً للأخرى»(٤).

عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «سرقوا أكرم آية في كتاب الله: بسم الله

---

(١) الكافي: ٢: ٣١٥، باب قراءة القرآن، الحديث ٢٠. وسائل الشيعة: الباب ١١ من أبواب القراءة، الحديث ١.

(٢) السنن الكبرى: ٢: ٤٧.

(٣) تفسير العيّاشي: ١: ١٩، الحديث ٤.

(٤) الكافي: ٢: ٣١٣، الحديث ١.

الرحمن الرحيم»[١].

وفي صحيحة عمر بن أُذينة، والأحول، وسدير الصيرفي، والسدّي، وهي كالمقطوع في صدورها، عن أبي عبدالله عليه السلام في رواية المعراج المعروفة: «فلمّا فرغ من التكبير والافتتاح قال الله عزّ وجلّ: الآن وصلت إليّ، فسمّ باسمي، فقال: ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ ﴾، فمن أجل ذلك جعل بسم الله الرحمن الرحيم في أوّل كلّ سورة.

ثمّ قال: احمدني، فقال: ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله في نفسه: شكراً.

فقال الله تعالى: يا محمّد، قطعت حمدي، فسمّ باسمي، فمن أجل ذلك جعل في الحمد ﴿ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ مرّتين.

فلمّا بلغ ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قال النبيّ صلى الله عليه وآله: الحمد لله ربّ العالمين شكراً، فقال الله العزيز الجبّار: قطعت ذكري، فسمّ باسمي.

فقال: ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ ﴾، فمن أجل ذلك جعل ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ بعد الحمد في استقبال السورة الأخرى، فقال له: اقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾»[٢].

عن يونس بن عبدالرحمن، عمّن رفعه، قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾[٣].

قال: هي سورة الحمد، وهي سبع آيات، منها: ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ ﴾،

---

(١) تفسير العيّاشي: ١: ١٩، الحديث ٥.

(٢) الكافي: ٣: ٤٨٥، الحديث ١. علل الشرائع: ٢: ٣١٥، الباب ١، الحديث ١.

(٣) الحجر ١٥: ٨٧.

وإنّما سمّيت المثاني لأنّها تُثنّى في الركعتين»[١].

عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «كان رسول الله يجهر بـ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ويرفع صوته بها، فإذا سمعها المشركون ولّوا مدبرين، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾[٢]»[٣].

عن عيسى بن عبدالله، عن أبيه، عن جدّه، عن عليّ عليه السلام، قال: «بلغه أنّ أناساً ينزعون ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فقال: هي آية من كتاب الله، أنساهم إيّاها الشيطان»[٤].

وبإسناده عن محمّد بن عليّ بن محبوب، عن العبّاس، عن محمّد بن أبي عمير، عن أبي أيّوب، عن محمّد بن مسلم، قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن السبع المثاني والقرآن العظيم، أهي الفاتحة؟

قال: نعم.

قلت: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ من السبع؟

قال: نعم، هي أفضلهن»[٥]..

موثّقة هارون، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «قال لي: كتموا ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فنعم والله الأسماء كتموها.

كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا دخل إلى منزله واجتمعت عليه قريش، يجهر بـ ﴿بِسْمِ اللهِ

---

(١) تفسير العيّاشي: ١: ١٩، الحديث ٣.

(٢) الإسراء ١٧: ٤٦.

(٣) تفسير العيّاشي: ١: ٢٠، الحديث ٦.

(٤) تفسير العيّاشي: ١: ٢١، الحديث ١٢.

(٥) وسائل الشيعة: ٦: ٥٧، الباب ١١ من أبواب القراءة، الحديث ٢.

الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ويرفع بها صوته، فتولّي قريش فراراً، فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾[1][2].

ولا يخفى لطف مفاد هذه الرواية، فإنّها تشير إلى أنّ هذه الآية من سورة الإسراء ناصّة على كون البسملة جزءً من القرآن، وغيرها من الروايات[3].

وقد يعترض بأنّ الترقيم في بقيّة السور في تدوين المصحف ليس على جعل البسملة آية مستقلّة.

والجواب: أوّلاً: إنّها مدوّنة في أوائل السور، كما أنّها مفصولة في ترتيب الجملة عن الآية التي تليها. غاية الأمر أنّ الترقيم لا يبعد أنّه حادث لا بمعنى أصل التعداد وإنّما بمعنى الفرز والترقيم.

ثانياً: إنّ غاية عدم الترقيم هو عدم استقلاليّتها لا عدم جزئيّتها للقرآن وللسور. ويكفي في إثبات استقلاليّتها الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، فإنّ فرز الآيات من قبيل البحث في القراءات والوصل والفصل في تراكيب الآيات.

الدليل الخامس:

إنّه قد تسولم على أنّ تركيب ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ هو من الوحي النازل من القرآن الكريم، فهو ليس ترتيب وإنشاء بشري، بل تركيب وَحْياني، والأكثر عندهم أنّها من سورة الفاتحة، فإذا كرّرت في بقيّة السور، فلامحالة يكون

---

(١) الإسراء ١٧: ٤٦.

(٢) الكافي: ٨: ٢٦٦، الحديث ٣٨٧.

(٣) وسائل الشيعة: ٦ / الأبواب ١١ و١٢ و ٢١ و ٢٥ من أبواب القراءة. مستدرك الوسائل: الباب ٨ من أبواب القراءة في الصلاة.

ذكرها هو ذكر لآية قرآنيّة. غاية الأمر أنّه ذكر لآية قرآنيّة من فاتحة الكتاب في بقيّة السور.

وهذا يعزّز أنّها قرآنيّة أينما ذكرت. غاية الأمر أنّهم يدّعون أنّها اقتباس من سورة الفاتحة، وأنّها تكرّر في بقيّة السور وأنّها ليست منها.

وهذا الاحتمال فيه من التكلّف ما يدفعه مقتضى التكرار من كونها بعض من تلك السور، ومن ثمّ تكون النيّة عند قراءتها في مطلع كلّ سورة بنيّة تلك السورة لا بنيّة فاتحة الكتاب.

وهناك شواهد ودواعم كثيرة على الجزئيّة يمكن أن يقف عليها المتأمّل والمتدبّر، كالتأكيد على الجهار بها إعلاناً وإعلاماً بها، وكذلك ما ذكر لها من فضل عظيم وقدر كبير لا يتناسب إلّا مع كونها آية من القرآن العزيز، وكذلك ما ذكر لها من معاني عظيمة وشريفة دالّة على أُمومة هذه الآية لما اشتملت من أُمّهات الأسماء والصفات للآيات الأُخرى، لما اشتملت عليه من أسماء وصفات أُخرى.

تذييل

يظهر من الروايات الواردة في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً** ﴾[1] فقد مرّت موثّقة هارون عن أبي عبدالله عليه السلام أنّ قريشاً كانت تتحسّس من البسملة، والظاهر أنّها تعتبرها رمزاً للملّة.

وروى العيّاشي عن زرارة، عن أحدهما عليهما السلام، قال في ﴿ **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾ قال: هي أحقّ ما جُهر به فاجهر به، وهي الآية التي قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ** ـ ﴿ **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾ ـ **وَلَّوْا عَلَىٰ**

(١) الإسراء ١٧: ٤٦.

أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾ ».

كان المشركون يستمعون إلى قراءة النبيّ ﷺ ، فإذا قرأ ﴿ **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾ نفروا وذهبوا ، فإذا فرغ منه عادوا وتسمّعوا».

وفي رواية العيّاشي عن زيد بن عليّ ، قال: «دخلت على أبي جعفر عليه السلام فذكر ﴿ **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾ ، فقال: تدري ما نزل في ﴿ **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾ ؟ فقلت: لا.

فقال: إنّ النبيّ ﷺ كان أحسن الناس صوتاً بالقرآن ، وكان يصلّي بفناء الكعبة ، فرفع صوته ، وكان عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وجماعة منهم يسمعون قراءته ، قال: وكان يكثر قراءة ﴿ **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾ فيرفع بها صوته.

قال: فيقولون: إنّ محمّداً ليردّد اسم ربّه ترداداً ، إنّه ليحبّه ، فيأمرون مَن يقوم فيستمع إليه ويقولون: إذا جاز ﴿ **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾ فأعلمنا حتّى نقوم فنستمع قراءته ، فأنزل الله في ذلك: ﴿ **وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ** ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ **وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً**﴾ ».

فيظهر من هذه الروايات شدّة تحسّس قريش من البسملة ، كيف لا وهي شعار الملّة ، وفاتحة الوحي النازل من السماء ، والقصّة معروفة في صلح الحديبيّة في الكتاب الذي كتب بين النبيّ ﷺ وقريش ، حيث مانعوا من كتابة «البسملة» إلى كتابة «بسمك اللّهمّ».

وفي بعض الروايات أنّ هذا التحسّس بقي في جملة من قريش ، حيث روى العيّاشي عن منصور بن حازم ، عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا صلّى بالناس جهر بـ﴿ **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾ ، فتخلّف مَن خلفه من

المنافقين ، فإذا جازها في السورة عادوا إلى مواضعهم ، وقال بعضهم لبعض : إنّه ليردّد اسم ربّه ترداداً ، إنّه ليحبّ ربّه ، فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ »[١].

فيظهر منها أنّ المنافقين كان لديهم نفس النفور الذي كان لدى قريش ، وذكر الفخر الرازي في تفسيره أنّ عليّاً عليه السلام كان يبالغ في الجهر بالتسمية ، فلمّا وصلت الدولة إلى بني أميّة بالغوا في المنع من الجهر سعياً في إبطال آثار عليّ عليه السلام ، فلعلّ أنساً خاف منهم ، أي حينما سئل عن الجهر بـ ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، حيث اضطربت الرواية في أقواله فيه.

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم ، عن ابن أبي أذينة ، قال : «قال أبو عبدالله عليه السلام : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ أحقّ ما جُهر به ، وهي الولاية التي قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ »[٢].

وهذه الرواية تشير إجمالاً إلى منشأ تحسّس المشركين وقريش من البسملة ، وإلى منشأ بقاء تحسّسهم تجاهها بعد إسلامهم أيضاً ، وسيأتي في معنى البسملة ما يمكن أن يكون تفسيراً لذلك.

المقام الثاني : أسباب نزول الفاتحة

قد تعرّضت جملة من الآيات لسورة الحمد ، منها ما مرّ من قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾[٣].

---

(١) تفسير العيّاشي : ٢ : ٢٩٥ ، الحديث ٨٧.

(٢) تفسير عليّ بن إبراهيم : في ذيل سورة الحمد.

(٣) الإسراء ١٧ : ٤٦.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[٢].

وقد ظهر ممّا مرّ من الروايات في جزئيّة البسملة أنّ السورة نزلت في مكّة، وأنّ النبيّ ﷺ كان يقرأ بها في صلاته. ولا يبعد ظهور تلك الروايات أنّها نزلت في أوائل البعثة، ولا سيّما أنّها تثنّى في الصلاة.

وروى الكليني في «الكافي» عن فرات بن أحنف، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «سمعته يقول: أوّل كلّ كتاب نزل من السماء ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ ﴾» الحديث[٣].

ومقتضى هذه الرواية أنّ أوّل آية نزلت في القرآن الكريم هي البسملة.

نتف معاني سورة الحمد

ما روي في «عيون أخبار الرضا عليه السلام» عن الاسترآبادي عن العسكري، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: قال الله عزّ وجلّ: قسّمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل»[٤].

وهذا بيّن أنّ في سورة الحمد دلالة على آداب وناموس الدعاء بأن تبدأ فيه بالثناء على الله عزّ وجلّ، ثمّ يسأل العبد مسألته، وسيأتي أنّ من أعاظم مسائل العبد الهداية إلى ولاية أولياء الله والبراءة من أعدائه.

---

(١) الحجر ١٥: ٨٧.

(٢) الزخرف ٤٣: ٤.

(٣) الكافي: ٣: ٣١٣، باب قراءة القرآن، الحديث ٣.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١: ٣٠. أمالي الصدوق: ٢٣٩، الحديث ٢٥٣.

القراءة في روايات أهل البيت عليهم السلام

روى القمّي في الصحيح الأعلائي عن حريز، عن أبي عبدالله عليه السلام: «أنّه قرأ (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّآلِّينَ)»، الحديث(١).

وقد أشار إلى ذلك الطبرسي في «مجمع البيان»(٢).

المقام الثالث: فضل سورة الفاتحة وأسمائها (موقعيّتها)

روى السيّاري في كتاب التنزيل والتحريف عن أبي عبدالله الحسين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾(٣): ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ هو اسم الله الأكبر، والسبع المثاني أُمّ الكتاب، يثنّى بها في كلّ صلاة»(٤).

وروى السيّاري عن عليّ بن الحكم، عن محمّد بن فضيل، عن سعد بن عمر الجلاب، قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾، قال: فاتحة الكتاب.

قلت: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ منها؟

قال: هي أفضلها لفضل منها (هي أفضل منها)»(٥).

---

(١) تفسير القمّي: ١: ٢٩.

(٢) مجمع البيان: ١: ١٠٥، ذيل تفسير: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ...﴾.

(٣) الحجر ١٥: ٨٧.

(٤) مستدرك الوسائل: ٤: ١٥٧، أبواب القراءة في الصلاة، الحديث ٢.

(٥) مستدرك الوسائل: ٤: ١٦٨، الباب ٨ من أبواب القراءة في الصلاة، الحديث ١٥.

روى الصدوق في «العيون» و«الأمالي» كما روي في تفسير العسكري عن المفسّر الاسترآبادي، عن العسكري عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام - في حديث - قال: «قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أهي من فاتحة الكتاب؟

فقال: نعم، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأها ويعدّها آية منها، ويقول: فاتحة الكتاب هي السبع المثاني... فضّلت بـ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وهي الآية السابعة منها»(١).

وروى الصدوق أيضاً في «العيون» و«الأمالي» عن الاسترآبادي، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «إنّ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ آية من فاتحة الكتاب، وهي سبع آيات تمامها ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّ الله عزّ وجلّ قال: يا محمّد، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾، فأفرد الامتنان عليَّ بفاتحة الكتاب، وجعلها بأزاء القرآن العظيم، وأنّ فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش، وأنّ الله عزّ وجلّ خصّ محمّداً وعترته بها ولم يشرك معه فيها أحداً من أنبيائه ما خلا سليمان، فإنّه أعطاه منها ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾. ألا ترى أنّه يحكي عن بلقيس حين قالت: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾(٢)»(٣).

بيان: إنّ أهمّيّة تبيان فضائل السورة أو أيّ سورة، هو لبيان موقعيّة تلك السورة التي تمتاز بها من بين بقيّة السور في القرآن الكريم، ولا سيّما أنّ كلّ سورة

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ٢٧٠، الحديث ٥٩. أمالي الصدوق: ٢٤٠، الحديث ٢٥٤.

(٢) النمل ٢٧: ٢٩ و ٣٠.

(٣) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: ٢٩. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ٢٧٠، الحديث ٥٩. أمالي الصدوق: ٢٤١، الحديث ٢٥٥.

ترسم وتأخذ موقعيّة من مواقع ومنازل القرآن الكريم بعد كون القرآن ذو منازل ومقامات تكوينيّة، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً، والمتحصّل من الآيات والروايات السابقة عدليّة سورة الفاتحة لكلّ الكتاب العزيز، ممّا يشير إلى جمع الكتاب العزيز كلّه فيها، وهذا ما يشير إليه تسميتها بأمّ الكتاب، أي أصله، ومن ثمّ لا يبعد أنّها تمثّل منزلة الكتاب العزيز في موقع أمّ الكتاب في قوله تعالى: ﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾(١)، فهي منزلة من ذلك الموقع، كما أنّ هذا يعطي أهمّيّة لموقعيّة الفاتحة كمحور مهيمن في دلالتها ومؤدّياتها على سائر السور القرآنيّة، وكما أنّ المحكمات لها أمومة على المتشابهات، وتعطف المتشابهات على المحكمات، وكذلك بقيّة السور، لا بدّ أن يعطف مؤدّاها على مؤدّى سورة الفاتحة كمحو لها، وهذا ممّا يعطي أهمّيّة الخوض في مفاد هذه السورة أو معانيها ونتفها وإشاراتها ولطائفها.

كما أنّ ذلك الموقع مقدّر للبسملة أيضاً، فإنّه إذا كانت البسملة أفضل آيات السورة فيعطي ذلك ما اشتهر من أنّ ما في الفاتحة مجموع في البسملة. وهذا مؤكّد بما مرّ في جزئيّة البسملة من كونها أعظم آية في القرآن.

اعتراض وجواب

وقد يعترض بأنّه قد روي أنّ سورة الفاتحة ممّا اختصّ الله بها نبيّه محمّداً وعترته، حيث أنّهم ورثوا الكتاب بعده، ولم يعط الله أحداً من أنبيائه، إلّا سليمان، فأعطاه منها البسملة، وحينئذٍ إذا كانت البسملة جامعة لسورة الفاتحة، وسورة الفاتحة جامعة للقرآن، فقد أُعطي القرآن لسليمان، لا سيّما

---

(١) الرعد ١٣: ٣٩.

وأنّ القرآن ممّا اختصّ الله به سيّد الأنبياء.

الجواب: إنّ لكلّ سورة وآية مدارج من البطون ومنازل ومواقع متعدّدة كثيرة، بل هذا هو حال الكثير من الأشياء، فضلاً عن القرآن الكريم، فإذا أُعطينا منزلة من تلك المنازل النازلة فلايعني ذلك إعطاءه كلّ المنازل، ولا سيّما أعلاها، كما سيأتي في سورة البقرة من الفرق بين تعليم الله اللدني الإيتائي الأسماء لآدم، وتعليم آدم الأسماء للملائكة الإنبائي، فإنّه فرق شاسع بين التعليم اللدني للشيء، وبين الإنباء بذلك الشيء، ومن ثمّ لم يصل الملائكة إلى مقام آدم بعد إنبائهم بالأسماء.

روى الصدوق في «ثواب الأعمال» عن البطائني، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إنّ اسم الله الأعظم مقطّع في أمّ الكتاب»[1].

ورواها العيّاشي في تفسيره[2].

وروى الصدوق في «العيون» بإسناده إلى محمّد بن سنان إلى الرضا عليه السلام، قال: «إنّ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها»[3].

وروى الشيخ في «التهذيب» بسنده عن الكاهلي، عن أبي عبدالله عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، قال: «﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناضر العين إلى بياضها»[4].

---

(١) ثواب الأعمال: ١٣٠، ثواب قراءة سورة الفاتحة.

(٢) تفسير العيّاشي: ١: ١٩، الحديث ١.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١: ٩، الحديث ١١.

(٤) التهذيب: ٢: ٢٨٩، الباب ١٥، الحديث ١٥.

وروى العيّاشي عن سليمان الجعفري، قال: «سمعت أبا الحسن عليه السلام -في حديث- أنّه قال عليه السلام: «وأيُّ آية في كتاب الله أكرم من ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾»[1].

ولكن في «بحار الأنوار» روى عن العيّاشي: «وأيُّ آية في كتاب الله أعظم؟

فقال: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾»[2].

وروى السيّد ابن طاووس في «مهج الدعوات» بإسناده إلى محمّد بن الحسن الصفّار من كتاب فضل الدعاء، بإسناده إلى معاوية بن عمّار، عن الصادق عليه السلام، قال: «﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ اسم الله الأكبر -أو قال: الأعظم-»[3].

وقد تقدّمت الإشارة إلى رواية «تفسير القمّي» عن ابن أُذينة من كون البسملة هي الولاية، وسيأتي التعرّض لذلك في معنى الآية.

بيان: وهذه الروايات اللاحقة أيضاً تدعم انطواء القرآن في الفاتحة وأُمومتها له، كما تدعم أفضليّة البسملة في الفاتحة.

وروى الصدوق في «الأمالي» بسنده عن الحسن بن عليّ عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله في ثواب من قرأ الفاتحة، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قرأ فاتحة الكتاب أعطاه الله بعدد كلّ آية نزلت من السماء فيجزى بها ثوابها»[4].

وفي «تفسير القمّي»: عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام: «إنّ قوله تعالى:

---

(١) تفسير العيّاشي: ١: ٢١، الحديث ١٤، وفيه: «أعظم» بدل «أكرم».

(٢) بحار الأنوار: ٩٢: ٢٣٨، الحديث ٣٧.

(٣) مهج الدعوات: ٣١٦.

(٤) أمالي الصدوق: ١١٧.

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[(١)] إشارة إلى فاتحة الكتاب، حيث إنـها أمّ الكتاب»[(٢)].

وروى القمّي في تفسيره في الموثّق عن عليّ بن عقبة، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إنّ إبليس رنّ رنيناً لمّا بعث الله نبيّه على حين فترة من الرسل، وحين أُنزلت أمّ القرآن»[(٣)].

وروى البرقي في «المحاسن» بطرق عديدة عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إذا توضّأ أحدكم ولم يسمّ كان للشيطان في وضوئه شرك، وإن أكل أو شرب أو لبس وكلّ شيء صنعه ينبغي له أن يسمّي عليه، فإن لم يفعل كان للشيطان فيه شرك»[(٤)].

ورويت روايات متعدّدة أنّ نسيانها يوجب الحوبة.

وروى الشعراني في «لطائف المنن» عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وكرّم وجهه أنّه كان يقول: «لو شئت لأوقرت لكم ثمانين بعيراً في معنى (الباء)»[(٥)].

وروى القندوزي الحنفي في «ينابيع المودّة»، قال ابن عبّاس: «أخذ بيدي الإمام عليّ ليلة فخرج بي إلى البقيع، وقال: اقرأ يابن عبّاس، فقرأت ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فتكلّم في أسرار الباء إلى بزوغ الفجر»[(٦)].

---

(١) الزخرف ٤٣: ٤.

(٢) تفسير القمّي: ١: ٢٨.

(٣) تفسير القمّي: ٢٩، وفي نسخة: «أمّ الكتاب»، كما هي في رواية الصدوق في الخصال: ٢٦٣، الحديث ١٤١.

(٤) المحاسن: ٢: ٤٣٠، الحديث ٢٥٢. وسائل الشيعة: ١: ٤٢٦، الباب ٢٦ من أبواب الوضوء، الحديث ١٢ و ١٣.

(٥) لطائف المنن: ١: ١٧١. تفسير البصائر: ١: ١٨٧.

(٦) ينابيع المودّة للقندوزي: ٤٠٨.

وروى هو أيضاً عن «الدرّ المنظوم»: «أنّ جميع أسرار الكتب السماويّة في القرآن، وجميع ما في القرآن في الفاتحة، وجميع ما في الفاتحة في البسملة، وجميع ما في البسملة في باء البسملة، وجميع ما في باء البسملة في النقطة التي هي تحت الباء.

قال الإمام عليّ كرّم الله وجهه: أنا النقطة التي تحت الباء»[١].

وروي عن جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «البسملة تيجان السور»[٢].

مفاد البسملة اللغوي والأدبي

فقيل في الاسم أنّه من (السمة) و(الوسم) وهي العلامة، ومنه وسيم، وإلى هذا يشير ما رواه الصدوق في «التوحيد» عن الرضا عليه السلام، قال: «سألت الرضا عليّ بن موسى عليه السلام عن ﴿بِسْمِ اللهِ﴾، قال: معنى قول القائل ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ أي السمو على نفسي سمة من سمات الله عزّ وجلّ، وهي العبادة.

قال: فقلت له: ما السمة؟

فقال: العلامة»[٣] [٤].

---

(١) ينابيع المودّة: ٤٠٨، ورواه السيّد نعمة الله الجزائري في كتابه «نور البراهين في شرح توحيد الصدوق» في باب معنى البسملة أنّه قد ورد في الأثر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ كلّ العلوم في الكتب الأربعة وعلومها في القرآن، وعلوم القرآن في الفاتحة، وعلوم الفاتحة في بسم الله الرحمن الرحيم، وعلومها في الباء من بسم الله».

قال: وفي أخبارنا أنّه عليه السلام قال في آخر الحديث: «وأنا النقطة تحت الباء».

(٢) تفسير القرطبي: ١: ٩٢.

(٣) التوحيد: ٢٢٩.

(٤) وروى الصدوق في «معاني الأخبار» بسنده عن ابن سنان، قال: «سألت أبي الحسن

وروى الصدوق عن العسكري في قول الله عزّ وجلّ: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ «أي أستعين على أموري كلّها بالله الذي لا تحقّ العبادة إلّا له...» الحديث(١).

استدراك: «وقيل: الباء بمعنى الإلصاق أو المصاحبة، وقيل: إنّه متعلّق بأفتتح فجعل المقدّر بالباء أستعين أو أتبرّك.

وقيل: إنّه من (السمو) أي العلوّ والارتفاع على وزن (أفع)، لأنّ الاسم تنويه وذكر ورفعة، فإنّه إذا ذكر الاسم سبب رفعة للمسمّى بذكره وتنويهه.

ومن ثمّ يقال: (سَميتُ).

ويحتمل أنّ أحدهما مقلوب من الآخر... ومقتضى الأصل في الاستعمال جواز إرادة كلّ من المعنيين كما أنّ مقتضى الفائدة في الاستظهار استفادة كلا المعنيين لا سيّما في باب التأويل، كما ورد نظير ذلك في تعليم النبيّ الاستظهار من معنى ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾(٢)، حيث حمل معنى الخليل على كلّ من (الخَلّة والخُلّة)»(٣).

أمّا لفظ الجلالة، قيل: إنّه علم للذات المقدّسة الجامعة لجمع الكمالات، المنزّه عن النقائص.

الرضا عليه السلام عن الاسم ما هو؟ فقال: **هو صفة لموصوف**». معاني الأخبار: باب معنى الاسم، الحديث ١.

(١) التوحيد: ٢٣١.

(٢) النساء ٤: ١٢٥.

(٣) الاحتجاج: ١: ١٩.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام عن حديث أبي الأسود: «**الاسم ما أنبأ عن المسمّى**». بحار الأنوار: ٤٣: ١٦٢.

وقيل: إنّه مشتقّ من الـ (إلـه) وهو من الوله.

وقيل: إنّ (أله) من السكون أو الاحتجاب.

وروى الصدوق في «التوحيد» عن العسكري عليه السلام: «الله قال هو الذي يتألّه إليه عند الحوائج والشدائد كلّ مخلوق عند انقطاع الرجاء من جميع من هو دونه، وتقطع الأسباب من كلّ من سواه»(١).

وفي رواية الكليني عن الصادق عليه السلام، عن هشام بن الحكم أنّه سأل أبا عبدالله عليه السلام عن أسماء الله واشتقاقها، الله ممّا هو مشتقّ؟

قال: فقال لي: يا هشام، الله مشتقّ من (إلـه) والإلـه يقتضي مألوهاً...» الحديث(٢).

وقيل: مشتقّ من (لاه) وهو الشيء المرتفع.

وقيل: وله من تحيّر.

وقيل: (لاه) بمعنى احتجب، وأَلِهَهُ: سكن إليه من ألهت فلاناً.

وروى الصدوق في «التوحيد» بسنده عن الباقر، عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليهما السلام، قال: «قال أمير المؤمنين: الله معناه المعبود الذي يأله فيه الخلق ويؤله إليه والله هو المستور عن درك الأبصار، المحجوب عن الأوهام والخطرات».

قال الباقر عليه السلام: «الله معناه المعبود الذي أله الخلق عن درك ماهيّته والإحاطة بكيفيّته».

ويقول العرب: أله الرجل إذا تحيّر بالشيء فلم يحط به علماً.

---

(١) التوحيد: ٢٣١، باب ٣١ معنى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

(٢) الكافي: ١: ٨٧، الحديث ٢.

وله إذا فزع إلى شيء ممّا يحذره ويخافه، فالإله هو المستور عن حواسّ الخلق[١].

وروى الكليني بسنده عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، قال: «سأل عن معنى: الله، قال: استولى على ما دقّ وجلّ»[٢].

ولكنّ المجلسي ذكر أنّ الخبر سقط منه شيء، لأنّ الكليني رواه عن البرقي، والبرقي رواه بهذا السند بعينه في «المحاسن» هكذا: «سئل عن معنى قول الله: ﴿الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[٣].

قال: استولى على ما دقّ وجلّ»[٤].

وعلى ما ذكره البرقي، فالرواية في تفسير الاستواء على العرش.

ولكن روى العيّاشي عن الحسن بن خرّزاد، قال: «كتبت إلى الصادق عليه السلام أسأل عن معنى: الله، قال: استولى على ما دقّ وجلّ»[٥].

ولعلّه أيضاً سقط من الخبر عنده.

وأمّا القول باشتقاقه من الألوهيّة فالظاهر ليس قولاً مغايراً لما تقدّم، وكذا القول باشتقاقه من الوله، بل إنّ المعاني المتقدّمة لا يخفى تلازم بعضها مع البعض الآخر، كما أنّ ذكر الروايات للمعاني المتعدّدة بلفظ الجلالة بمقتضى المعنى اللغوي دالّ على ما مرّت الإشارة إليه من أنّ الأصل في الاستعمال والاستظهار

---

(١) التوحيد: ٨٩، الحديث ٢.

(٢) الكافي: ١: ١١٥، الحديث ٣.

(٣) طه ٢٠: ٥.

(٤) المحاسن ١: ٢٣٨، الحديث ٢١٢. بحار الأنوار: ٧: ١٨١، الحديث ٦.

(٥) العيّاشي في ذيل سورة الحمد.

فضلاً عن التأويل؛ جواز تعدّد المعاني بحسب ما للفظ من تعدّد معاني لغويّة، أو استقام المعنى على كلّ منهم.

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

وروى الكفعمي في «المصباح» عن الصادق عليه السلام: «الرحمن اسم خاصّ بصفة عامّة، والرحيم اسم عام بصفة خاصّة»[١].

وروي في «تفسير العسكري عليه السلام»، عن عليّ عليه السلام، قال: «الرحمن العاطف على خلقه بالرزق لا يقطع عنهم موادّ رزقه، وإن انقطعوا عن طاعته...» الحديث[٢].

وقال عليه السلام: «وتفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ أنّ قوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ مشتقّ من الرحمة، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: قال الله عزّ وجلّ: أنا الرحمٰن، وهي [من] الرحم شققت لها اسماً من اسمي، من وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته.

ثمّ قال عليّ عليه السلام: أوَتدري ما هذه الرحم التي مَن وصلها وصله الرحمن ومَن قطعها قطعه الرحمن؟

فقيل: يا أمير المؤمنين، حُثّ بهذا كلّ قوم على أن يكرموا أقرباءهم ويصلوا أرحامهم (آباءهم).

فقال لهم: أيحثّهم على أن يصلوا أرحامهم الكافرين، وأن يعظّموا من حقّره الله، وأوجب احتقاره من الكافرين؟

قالوا: لا، ولكنّه حثّهم على صلة أرحامهم المؤمنين.

قال: فقال: أوجب حقوق أرحامهم لاتّصالهم بآبائهم وأمّهاتهم؟

---

(١) مصباح الكفعمي: ٣١٧. المقام الأسنى: ٢٩.

(٢) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ٣٤، الحديث ١٢.

قلت: بلى يا أخا رسول الله.

قال: فهم إذن إنّما يقضون فيهم حقوق الآباء والأمّهات».

ثمّ قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الرحم التي اشتقّها الله عزّ وجلّ من رحمته بقوله: أنا الرحمن وهي الرحم، هي رحم محمّد صلى الله عليه وآله وأنّ من إعظام الله إعظام محمّد صلى الله عليه وآله، وإنّ من إعظام محمّد صلى الله عليه وآله إعظام رحم محمّد، وأنّ كلّ مؤمن ومؤمنة من شيعتنا هو من رحم محمّد وأنّ إعظامه من إعظام محمّد صلى الله عليه وآله»[1].

وروى في «التوحيد» بسنده عن العسكري عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ﴾، قال: «وقام رجل لعليّ بن الحسين عليه السلام فقال: أخبرني عن معنى ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فقال عليّ بن الحسين: حدّثني أبي، عن أخيه الحسن، عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنّ رجلاً قام إليه فقال: يا أمير المؤمنين، حدّثني عن معنى ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ما معناه؟

فقال: إنّ قولك: الله، أعظم اسم من أسماء الله عزّ وجلّ وهو الاسم الذي لا يتسمّى به غير الله، ولم يتسمَّ به مخلوق... ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أي استعين على هذا الأمر بالله الذي لا يحقّ العبادة لغيره، المغيث إذا استُغيث، المجيب إذا دُعِيَ.

﴿الرَّحْمـٰنِ﴾ الذي يرحم ببسط الرزق علينا.

﴿الرَّحِيمِ﴾ بنا في أدياننا ودنيانا وآخرتنا»[2].

وروى الصدوق في «عيون الأخبار» بإسناده عن الرضا عليه السلام، أنّه قال في دعائه: «رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما»[3].

---

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ٣٤، الحديث ١٢.

(٢) التوحيد: ٢٣٠، باب معنى ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ﴾، الحديث ٥.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١: ١٩، الحديث ٣٧.

وفي جملة من الروايات: «إنّ الرحيم لا يوصف برقة، وإنّما يحدث الرحمة»[١].

لطيفة بديعة

إنّ المتحصّل من الروايات في معنى اسم (الله) واسم (الرحمـٰن) وإن لم يكن نافٍ للعلميّة، إلّا أنّ كون اسم الجلالة علم لا ينفي أنّه في أصل الوضع ملحوظ فيه المعنى الاشتقاقي، فاسم الجلالة وإن فرض في أوّل وضعه أنّه علم للذات الجامعة لجميع الكمالات، إلّا أنّ ذلك لا يستلزم عدم المعنى الوصفي في اللفظ، وعلى ضوء هذه الإشارة، بل اللطيفة الرقيقة يتنبّه إلى ملاحظة المعنى الوصفي في هذا الاسم الشريف، مضافاً إلى معنى العلميّة، كما أنّه على ذلك لا يتقرّر ممّا هو عند كثير من الباحثين في علم الأسماء من أنّ هذا الاسم الشريف هو أعظم الأسماء الإلٰهيّة.

فإنّ رتبة هذا الاسم الشريف كانت في الطبقة الأولى من الأسماء، إلّا أنّ اسم (هو) ونحوه أعلى مرتبة، كما سيأتي في الروايات الآتية في البحث المعرفي، وكذلك الحال في اسم (الرحمـٰن)، فإنّه وإن بني فيه على العلميّة، إلّا أنّ ذلك لا ينفي المعنى الوصفي في الاسم، بل سيتّضح ممّا سيأتي أنّ هذا الاسم الشريف متفرّع رتبة على اسم الجلالة أو الله.

بحوث معرفيّة في معاني البسملة

بادئ ذي بدأ يطرح سؤال عن السرّ ووجه السبب في افتتاح القرآن فضلاً عن عموم الأمور والأفعال بالاستعانة باسم الله.

---

(١) أمالي الصدوق: ٤٢٣، الحديث ٥٦٠. التوحيد: ٣٠٦، الحديث ١. روضة الواعظين: ٢٢. الاختصاص: ٢٣٦ «نحوه».

هل للابتداء بالاسم في كتاب الله كبداية، لا سيّما مع كلّ ما في القرآن في الفاتحة وكلّ ما في الفاتحة هو في البسملة، هل لذلك ارتباط في فهم مجمل كتاب الله، كما يشير إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في أجوبته مع الرجل المشكّك بسبب ما زعمه وتخيّله من تناقضات القرآن.

فقال عليه السلام: وأمّا قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾[١] فإنّ تأويله هل تعلم له أحداً اسمه الله غير الله تبارك وتعالى، فإيّاك أن تفسّر القرآن برأيك، حتّى تفقهه عن العلماء، فإنّه ربّ تنزيل يشبه كلام البشر وهو كلام الله، وتأويله لا يشبه كلام البشر، كما ليس شيء من خلقه يشبهه، كذلك لا يشبه فعله تبارك وتعالى شيئاً من أفعال البشر، ولا يشبه شيء من كلامه كلام البشر.

فكلام الله تبارك وتعالى صفته، وكلام البشر أفعالهم فلا تشبّه كلام الله بكلام البشر فتهلك»[٢].

قاعدة: تغاير الأسماء مع الذات

إنّ الافتتاح للقرآن الكريم بالاسم لا ريب أنّه يحمل في طيّاته إشارة إلى أنّ الاسم هو فاتحة الخلقة الإلـهيّة وفاتحه الظهور وفاتحه الكلام التكويني وهو الكلمة الأولى، وأنّه الحجاب بين الذات الإلـهيّة والخلق.

ومن ثمّ يكون التوجّه والتوصّل والتمسّك به وسيلة إلى الذات المقدّسة.

روى الكليني بسنده عن الرضا عليه السلام قوله: «سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام: هل كان الله عزّ وجلّ عارفاً بنفسه قبل أن يخلق الخلق؟ قال: نَعَمْ.

---

(١) مريم ١٩: ٦٥.

(٢) التوحيد: ٢٦٤، الحديث ٥.

قلت: هل يراها ويسمعها ؟

قال: **ما كانَ مُحتاجاً إلىٰ ذلِكَ لأنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْألُها وَلا يَطْلُبُ مِنها، هُوَ نَفْسُهُ وَنَفْسُهُ هُوَ، قُدْرَتُهُ نافِذَةٌ فَلَيْسَ يَحْتاجُ أنْ يُسَمّي نَفْسَهُ، وَلـٰكِنِ اخْتارَ لِنَفْسِهِ أسْماءً لِغَيْرِهِ يَدْعُوهُ بِها، لأنَّهُ إذا لَمْ يُدْعَ بِاسْمِهِ لَمْ يُعْرَفْ، فَأوَّلُ ما اخْتارَ لِنَفْسِهِ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، لأنَّهُ أعْلَى الأشْياءِ كُلِّها، فَمَعْناهُ اللهُ، وَاسْمُهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ هُوَ أوَّلُ أسْمائِهِ عَلا كُلِّ شَيْءٍ**»(١).

بيانه: الحديث الشريف يدلّ على أنّ الذات الأزليّة لا اسم لها في ذاتها، وأنّ الاسم علامة وآية ودلالة، والعلامة إنّما يحتاج إليها لما هو غائب، وحيث أنّ ذاته حاضرة لذاته، فلم تكن غائبة عن ذاته كي يطلبها بالاسم بخلاف غيره من المخلوقات، فإنّها لا يمكنها معرفة الذات الإلـٰهيّة بالذات، بل لا سبيل إلى معرفتها إلّا بالاسم.

وإلى هذا يشير قوله ﷺ: «**لأنَّهُ إذا لَمْ يُدْعَ بِاسْمِهِ لَمْ يُعْرَفْ**» وفي هذا برهان على أنّ المعرفة بالباري لا تتمّ إلّا بالأسماء، ويمتنع معرفة الذات بدون الأسماء، فالأسماء وسيلة المعرفة ومن دونها لا تتمّ المعرفة، لأنّ الذات الإلـٰهيّة خارجة عن الحدود لا يحاط بها، فهي من البساطة التي تبهم على غيرها من الذوات.

ثمّ إنّ في هذه الرواية إشارة إلى أنّ الاسم ظهور للذات، وهذا الظهور بالإضافة إلى غيره تعالى كما أنّه تبيّن أنّ اسم كلّ شيء ظهور له، وظهوره تعالى يعلو كلّ ظهور.

والحاصل: أنّ دور الأسماء هو نفي حدّ التعطيل في معرفة الذات الإلـٰهيّة،

---

(١) الكافي: ١: ١١٣، باب حدوث الأسماء، الحديث ٢. معاني الأخبار: ٢، الحديث ٢، باب معنى الاسم. التوحيد: ١٩١، الحديث ٤، باب حدوث الأسماء.

كما أنّها ينفي بها حدّ التشبيه، كما سيأتي ذلك مفصّلاً في بحث التوسّل بالأسماء.

وروى الكليني بسنده عن إبراهيم بن عمر، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إِنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالىٰ خَلَقَ اسْماً بِالْحُروفِ غَيْرَ مُتَصَوَّتٍ، وَبِاللَّفْظِ غَيْرَ مُنْطَقٍ، وَبِالشَّخْصِ غَيْرَ مُجَسَّدٍ، وَبِالتَّشْبِيهِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ، وَبِاللَّوْنِ غَيْرَ مَصْبُوغٍ، مَنْفِيٌّ عَنْهُ الْأَقْطارُ، مُبَعَّدٌ عَنْهُ الْحُدُودُ، مَحْجُوبٌ عَنْهُ كُلُّ حِسٍّ مُتَوَهَّمٍ، مُسْتَتِرٌ غَيْرُ مَسْتُورٍ، فَجَعَلَهُ كَلِمَةً تامَّةً عَلىٰ أَرْبَعَةِ أَجْزاءٍ مَعاً لَيْسَ مِنْها واحِدٌ قَبْلَ الآخَرِ، فَأَظْهَرَ مِنْها ثَلاثَةَ أَسْماءٍ لِفاقَةِ الْخَلْقِ إِلَيْها، وَحَجَبَ مِنْها واحِداً وَهُوَ الاسْمُ الْمَكْنُونُ الْمَخْزونُ، فَهٰذِهِ الْأَسْماءُ الَّتي ظَهَرَتْ، فَالظّاهِرُ هُوَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالىٰ، وَسَخَّرَ سُبْحانَهُ لِكُلِّ اسْمٍ مِنْ هٰذِهِ الْأَسْماءِ أَرْبَعَةَ أَرْكانٍ، فَذلِكَ اثْنا عَشَرَ رُكْناً، ثُمَّ خَلَقَ لِكُلِّ رُكْنٍ مِنْها ثَلاثِينَ اسْماً فِعْلاً مَنْسُوباً إِلَيْها، فَهُوَ الرَّحْمٰنُ، الرَّحِيمُ، الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، الْخالِقُ، الْبارِئُ، الْمُصَوِّرُ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، الْعَلِيمُ، الْخَبِيرُ، السَّمِيعُ، الْبَصِيرُ، الْحَكِيمُ، الْعَزِيزُ، الْجَبّارُ، الْمُتَكَبِّرُ، الْعَلِيُّ، الْعَظِيمُ، الْمُقْتَدِرُ، الْقادِرُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهَيْمِنُ، [الْبارِي]، الْمُنْشِئُ، الْبَدِيعُ، الرَّفِيعُ، الْجَلِيلُ، الْكَرِيمُ، الرّازِقُ، الْمُحْيِي، الْمُمِيتُ، الْباعِثُ، الْوارِثُ.

فَهٰذِهِ الْأَسْماءُ وَما كانَ مِنَ الْأَسْماءِ الْحُسْنىٰ حَتّىٰ تَتِمَّ ثَلاثَمائَةٍ وَسِتِّينَ اسْماً فَهِيَ نِسْبَةٌ لِهٰذِهِ الْأَسْماءِ الثَّلاثَةِ، وَهٰذِهِ الْأَسْماءُ الثَّلاثَةُ أَرْكانٌ، وَحُجِبَ الاسْمُ الْواحِدُ الْمَكْنُونُ الْمَخْزُونُ بِهٰذِهِ الْأَسْماءِ الثَّلاثَةِ، وَذلِكَ قَوْلُهُ تَعالىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنىٰ﴾[1]»[2].

---

(١) الإسراء ١٧: ١١٠.

(٢) الكافي: ١: ١١٢، باب حدود الأسماء، الحديث ١.

بيان ذلك: قوله ﷺ: «**خَلَقَ اسْماً بِالْحُرُوفِ غَيْرَ مُتَصَوَّتٍ**» أي أنّ هذه الأسماء الإلٰهيّة ليس كما يتبادر في الاستعمال العرفي أنّها عبارة عن الأصوات الملفوظة والمنطوقة أو المنقوشة، بل المراد أنّ هذه الأسماء هي أوائل المخلوقات التي أودعها من الكمال والعظمة، فكانت آيات عظيمة إلٰهيّة، ومن شدّة كمالها انطمست انيّتها الخلقية، وتمحّضت في الحكاية عن العظمة والقدرة في الذات الإلٰهيّة، ومن ثمّ أخذت أحكام الحجب وسدنة الذات الإلٰهيّة، ومن ثمّ نفى عنها ﷺ أحكام الجسميّة والمادّة، بل وأحكام الحدود والتناهي، كيف تحدّ وهي حواكي ومرائي الذات الإلٰهيّة.

كما يوصف هذا الاسم أيضاً بأنّه لا تدركه الأوهام؛ إذ هي لا يمكن أن تحيط به، كيف وهو بلا حدّ، ومن ثمّ فرّع على ذلك ﷺ بأنّه مستتر غير مستور، أي أنّ استتاره واحتجابه عن إدراك الأخرين له، بسبب كونه مبعّد عنه الحدود، ومن ثمّ لا يدركه، مستتر عنهم بعظمته، إذ إدراك العقول إنّما يتمكّن من إدراك المحدود بعد كون العقول محدودة.

ثمّ بيّن ﷺ أنّه تبارك وتعالى جعل هذا الاسم كلمةً تامّة، أي أنّ هذا الاسم بما يحكي من عظائم الصفات الإلٰهيّة كان خلقته ووجوده تكلّم من الذات الإلٰهيّة دالّ على المضمر الغائب فيها.

ثمّ أخذ ﷺ في بيان مراتب وطبقات الأسماء، فبيّن ﷺ أنّ هذا الاسم جعل على أربعة أسماء معاً ذات رتبة واحدة، فأظهر منها ثلاثة، وهو الله تبارك وتعالى، وحجب منها واحداً فهو اسم مكنون مخزون بهذه الأسماء الثلاثة، ثمّ جعل وسخّر لكلّ اسم منها أربعة أركان، ثمّ خلق لكلّ اسم ثلاثين اسماً، وهذا المضمون من نظام ظهور الأسماء قد استفاضت به روايات أهل البيت ﷺ،

وإن لم يراعه أو تفطّن لنفسه سائر مَن كتب في الأسماء من أهل الذوق المعنى ، ثمّ أشار عليه السلام إلى أنّ الأسماء تؤدّي في المآل إلى مسمّى واحد إلى الآية من سورة الإسراء.

حيث تشير الآية إلى أنّ التوجّه والنداء إلى اسم (الله) أو إلى اسم (الرحمـٰن) سيّان ، فإن كلاً منهما من الأسماء الحسنى التي تؤول إلى الدلالة على الذات الإلـٰهيّة المالكة لتلك الأسماء ، كآيات وظهورات وعلامات لها.

فإنّهم يجعلون اسم (الله) أوّل ظهور الأسماء ، ومنها تظهر بقيّة الأسماء ، أو يجعلون أوّل الظهورات اسم (الأحد) ثمّ (الواحد) ثمّ (الله) ثمّ بقيّة الأسماء.

كما أنّ الرواية دالّة على أنّ اسم الرحمـٰن هو اسم الاسم ، أو اسم اسم الاسم ، وعلى ذلك: فسواء كان الاسم من الرتبة الأولى أو الثانية أو بقيّة المراتب ، فالحال سيان في دعائها ودلالتها على الذات لأنها كلّها ظهورات لها ، وإن اختلفت مراتب الظهور.

وروى الكليني أيضاً بسنده عن عبدالأعلى ، عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال: «اسْمُ اللهِ غَيْرُهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ شَيْءٍ فَهُوَ مَخْلُوقٌ ما خَلَا اللهَ ، فَأَمّا ما عَبَّرَتْهُ الْأَلْسُنُ أَوْ عَمِلَتِ الْأَيْدي فَهُوَ مَخْلُوقٌ ، وَاللهُ غايَةٌ مِنْ غاياتِهِ ، وَالْمُغَيّىٰ غَيْرُ الْغايَةِ ، وَالْغايَةُ مَوْصُوفَةٌ ، وَكُلُّ مَوْصُوفٍ مَصْنُوعٌ ، وَصانِعُ الْأَشْياءِ غَيْرُ مَوْصُوفٍ بِحَدٍّ وَسِمَةٍ ، لَمْ يَتَكَوَّنْ فَيُعْرَفُ كَيْنُونِيَّتُهُ بِصُنْعِ غَيْرِهِ ، وَلَمْ يَتَناهَ إلىٰ غايَةٍ إلّا كانَتْ غَيْرَهُ ، لا يَزِلُّ مَنْ فَهِمَ هٰذَا الْحُكْمَ أَبَداً وَهُوَ التَّوْحِيدُ الْخالِصُ ، فَارْعَوْهُ وَصَدِّقُوهُ وَتَفَهَّمُوهُ بِإِذْنِ اللهِ ، مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْرِفُ اللهَ بِحِجابٍ أَوْ بِصُورَةٍ أَوْ بِمِثالٍ فَهُوَ مُشْرِكٌ ، لأَنَّ حِجابَهُ وَمِثالَهُ وَصُورَتَهُ غَيْرُهُ ، وَإِنَّما هُوَ واحِدٌ مُتَوَحِّدٌ.

فَكَيْفَ يُوَحِّدُهُ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ عَرَفَهُ بِغَيْرِهِ، وَإِنَّما عَرَفَ اللهَ مَنْ عَرَفَهُ بِاللهِ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ بِهِ فَلَيْسَ يَعْرِفُهُ، إِنَّما يَعْرِفُ غَيْرَهُ، لَيْسَ بَيْنَ الْخالِقِ وَالْمَخْلوقِ شَيْءٌ وَاللهُ خالِقُ الْأَشْياءِ لا مِنْ شَيْءٍ كانَ، وَاللهُ يُسَمّىٰ بِأَسْمائِهِ، وَهُوَ غَيْرُ أَسْمائِهِ وَالْأَسْماءُ غَيْرُهُ»(١).

وقوله عليه السلام: «اسْمُ اللهِ غَيْرُهُ» يشير عليه السلام إلى تغاير الذات الأزليّة مع اسم (الله)، كما مرّ في الأحاديث السابقة، ثمّ ينبّه أنّ المراد من هذا الاسم اسم الجلالة ليس هو ما تعبّر به الألسن، وينقش بعمل الأيدي، بل هو المشار إليه باللفظ والكتابة، أي هو المقصود والغاية المرادة من الاسم اللفظي أو المنقوش، فالمغيّا وهو الاسم اللفظي، والاسم المنقوش مغاير إلى اسم (الله) الغاية.

ويمكن أنّ ما أراده عليه السلام حينئذٍ من اسم الله الغاية، المفهوم الذهني، وأنّه مصنوع، وموصوف بوصف، يصنعه الذهن، وهو يغاير صانع الأشياء، أو يراد من اسم الله الغاية هو الاسم الذي خلق أوّلاً في الأسماء، والذي مرّ في الروايات السابقة، وهو الاسم بوجوده التكويني، وأنّ هذا الاسم حيث أنّه موصوف فهو مصنوع، أي مخلوق لأنّ الذات الأزليّة لا تحدّ بوصف؛ إذ كلّ موصوف مصنوع وصانع الأشياء لا يوصف بوصف فيحدّ بذلك الوصف، إذ الوصف اسم من الأسماء كما مرّ في حديث أنّ الاسم صفة لموصوف.

والذات الأزليّة لا تتناهى إلى غاية من صفة أو اسم إلّا وكانت تلك الغاية غير الذات الأزليّة، وهذا الاحتمال في مفاد الرواية قريب من قول الأمير عليه السلام في «نهج البلاغة»: «الَّذي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ».

أي كلّ صفة لها حدّ فهي دون صفته، وحيث أنّ الصفات الكماليّة تغاير بعضها

---

(١) الكافي: ١: ١١٣، باب حدوث الأسماء، الحديث ٤.

البعض، فهي محدودة، وهي دون الصفة التي هو عليها.

وقال عليه‌السلام: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلاصُ لَهُ، وَكَمالُ الْإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفاتِ عَنْهُ، لِشَهادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّها غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وَشَهادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنّاهُ، وَمَنْ ثَنّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ»(١).

لا سيّما أنّه في هذه الرواية قال عليه‌السلام أنّ هذا الحكم هو التوحيد الخالص، فالأسماء والصفات ظهورات وهي غيره.

وأمّا قوله عليه‌السلام بعد ذلك: «مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْرِفُ اللهَ بِحِجابٍ أَوْ بِصُورَةٍ أَوْ بِمِثالٍ فَهُوَ مُشْرِكٌ»، أي يجعلها عين الباري أي بلحاظها بما هي هي، ودلّل عليه‌السلام على وقوع الشرك بالتغاير بينها وبين الذات بينما الله واحدٌ متوحّد بخلاف مَن ينظر بها إلى الذات، فقد عرف الذات بالذات، لأنّ النظرة الحرفية إلى الأسماء لا يكون المنظور حينه نفس الاسم، بل المنظور هو المحكيّ بالاسم.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة الأولى، ومثله في المفاد ما روى الكليني بسنده عن أبي عبدالله عليه‌السلام، قال: «قال رجلٌ عنده: الله أكبر، فقال: الله أكبر. فقال: اللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟

فقال: من كلّ شيء. فقال أبو عبدالله عليه‌السلام: حَدَّدْتَهُ.

فقال الرجل: كيف أقول؟ قال: قُلْ: اللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ».

وفي رواية أخرى عن جميع بن عمير: قال أبو عبدالله عليه‌السلام: أَيُّ شَيْءٍ اللهُ أَكْبَرُ؟ فقلت: الله أكبر من كلّ شيء.

فقال: وَكانَ ثَمَّ شَيْءٌ فَيَكُونُ أَكْبَرَ مِنْهُ؟ فقلت: وما هو؟

قال: اللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ». الكافي: ١: ١١٧ و ١١٨، باب معاني الأسماء واشتقاقها، الحديث ٨ و ٩.

قاعدة أنّ كلّ اسم في الأصل اشتقاق وصفيّ

ثمّ إنّ ممّا مرّ من حديث الرضا عليه السلام أنّ كلّ اسم فهو صفة لموصوف يفيد قاعدة مهمّة في علم الأسماء من أنّ كلّ اسم إلهيّ في الأصل وإن كان عَلَماً في أصل وضعه، إلّا أنّه مأخوذ فيه معنى الوصفيّة، وهذا ممّا يبرهن على القاعدة المتقدّمة من أنّ الأسماء دون الذات الإلهيّة، وقد مرّ في البحث اللغوي الأدبيّ أنّ اسم (الله) وإن كان علماً في الأصل، إلّا أنّه لوحظ فيه أيضاً معنى الوصفي الاشتقاقي من الوله أو من (أله) أو (لاه)، كما أشارت إلى ذلك الروايات.

وروى الصدوق في «التوحيد» و«العيون» بسنده عن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّه خطب الناس في مسجد الكوفة -إلى أن قال عليه السلام-:

وَمُمْتَنِعٌ عَنِ الْإِدْراكِ بِما ابْتَدَعَ مِنْ تَصْرِيفِ الذَّواتِ،... وَمُحَرَّمٌ عَلىٰ بَوارِعِ ثاقِباتِ الْفِطَنِ تَحْدِيدُهُ، وَعَلىٰ عَوامِقِ ناقِباتِ الْفِكَرِ تَكْيِيفُهُ، وَعَلىٰ غَوايِصِ سابِحاتِ النَّظَرِ تَصْوِيرُهُ...

مُمْتَنِعٌ عَنِ الْأَوْهامِ أَنْ تَكْتَنِهَهُ، وَعَنِ الْأَفْهامِ أَنْ تَسْتَغْرِقَهُ، وَعَنِ الْأَذْهانِ أَنْ تُمَثِّلَهُ، قَدْ يَئِسَتْ مِنِ اسْتِنْباطِ الْإِحاطَةِ بِهِ طَوامِحُ الْعُقُولِ، وَنَضَبَتْ عَنِ الْإِشارَةِ إِلَيْهِ بِالْاكْتِناهِ بِحارُ الْعُلُومِ، وَرَجَعَتْ بِالصُّغَرِ عَنِ السُّمُوِّ إِلىٰ وَصْفِ قُدْرَتِهِ لَطائِفُ الْخُصُومِ...

وَلا كَالْأَشْياءِ فَتَقَعَ عَلَيْهِ الصِّفاتُ، قَدْ ضَلَّتِ الْعُقُولُ فِي أَمْواجِ تَيّارِ إِدْراكِهِ، وَتَحَيَّرَتِ الْأَوْهامُ عَنْ إِحاطَةِ ذِكْرِ أَزَلِيَّتِهِ، وَحَصِرَتِ الْأَفْهامُ عَنِ اسْتِشْعارِ وَصْفِ قُدْرَتِهِ، وَغَرِقَتِ الْأَذْهانُ فِي لُجَجِ بِحارِ أَفْلاكِ مَلَكُوتِهِ.

مُقْتَدِرٌ بِالْآلاءِ، وَمُمْتَنِعٌ بِالْكِبْرِياءِ، وَمُتَمَلِّكٌ عَلَى الْأَشْياءِ، فَلا دَهْرٌ يُخْلِقُهُ، وَلا وَصْفٌ يُحِيطُ بِهِ، فَلا إِلَيْهِ حَدٌّ مَنْسُوبٌ، وَلا لَهُ مَثَلٌ مَضْرُوبٌ، وَلا شَيْءَ عَنْهُ

بِمَحْجُوبٍ، تَعالىٰ عَنْ ضَرْبِ الأَمْثالِ وَالصِّفاتِ الْمَخْلُوقَةِ عُلُوّاً كَبِيراً»[١].

قاعدة في مراتب التوحيد، ومراتب الصفات والأسماء

بيان: وهذا الحديث دلالته بوضوح عن أنّ أوصاف العقول من كلّ المخلوقات هي دون ذاته، وهذا تفسير آخر لدونيّة الصفات عن ذاته، وعدم حدّ الذات الأزليّة بصفات، بأن يراد أنّ الذات مقدّسة عن الصفات المخلوقة في العقول أو القلوب والفطن والأفكار، وهذا أحد محامل (توحيده نفي الصفات عنه) أو تفسير قول أمير المؤمنين عليه السلام أعلاه.

وهذا لا يتنافى مع التفسير السابق في الروايات المتقدّمة التي ظاهرها أنّ الأسماء المخلوقة والصفات بوجودها في عين الخارج دون الذات فضلاً عن الصفات الذهنيّة، وهذه مراتب من التوحيد، ولعلّه يشير إلى ذلك قوله عليه السلام: **«وَكَمالُ تَوْحِيدِهِ نَفْيُ الصِّفاتِ عَنْهُ»** لا أصل التوحيد.

ويشير أيضاً قول الصادق عليه السلام كما مرّ **«ذلِكَ التَّوْحِيدُ الْخالِصُ»** في مقابل التوحيد المشوب، بل قد ورد في رواياتهم ما يدلّ على أنّ هذه الصفات الذهنيّة المخلوقة لا تحيط كنهاً بعينيّة الأسماء، ولا تحدّها، فكيف بالمسمّى والذات الأزليّة، كما سيأتي الإشارة من أنّ أهل البيت عليهم السلام هم الأسماء الحسنى، كما في قول الرضا عليه السلام: **«فَمَنْ ذا الَّذي يَبْلُغُ مَعْرِفَةَ الإِمامِ أَوْ كُنْهَ وَصْفِهِ. هَيْهاتَ هَيْهاتَ، ضَلَّتِ الْعُقولُ، وَتاهَتِ الْحُلومُ، وَحارَتِ الأَلْبابُ، وَخَسِئَتِ الْعُيونُ، وَتَصاغَرَتِ الْعُظَماءُ، وَتَحَيَّرَتِ الْحُكَماءُ، وَتَقاصَرَتِ الْحُلَماءُ، وَحَصِرَتِ الْخُطَباءُ، وَجَهِلَتِ الأَلِبّاءُ، وَكَلَّتِ الشُّعَراءُ، وَعَجَزَتِ الأُدَباءُ، وَعَيِيَتِ الْبُلَغاءُ، عَنْ وَصْفِ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِهِ، أَوْ فَضيلَةٍ مِنْ فَضائِلِهِ،**

---

(١) التوحيد: ٧٠، الحديث ٢٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ١١١، الحديث ١٥.

وَأَقَرَّتْ بِالْعَجْزِ وَالتَّقْصيرِ، وَكَيْفَ يُوصَفُ بِكُلِّهِ، أَوْ يُنْعَتُ بِكُنْهِهِ، أَوْ يُفهم شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِ، أَوْ يُوجَدُ مَنْ يَقومُ مَقامَهُ، وَيُغْني غِناهُ.

كيف وأنّىٰ وَهُوَ بِحَيْثُ النَّجْمِ عَنْ أَيْدي الْمُتَناوِلينَ، وَوَصْفِ الْواصِفينَ؟

فَأَيْنَ الاخْتِيارُ مِنْ هٰذا، وَأَيْنَ الْعُقولُ عَنْ هٰذا»[١].

قاعدة في كون الأسماء توقيفيّة أو توقيفيّة المعارف

النقطة الأُولى: توقيفيّة الأسماء

البحث في توقيفيّة الأسماء مفاده بين المثبت له والنافي بحسب قالب العنوان المذكور هو في كون الأسماء الإلٰهيّة لا بدّ أن يعينها ويرشد إليها ويوقفنا عليها الوحي.

بينما النافي لها يتبنّى إمكانيّة إدراك العقل أو القلب لتلك الأسماء، سواء كانت من الأسماء الأمّ أم من طبقات الأسماء اللّاحقة، أي الأُصول والأركان والفروع، وهل البحث يقتصر على الأسماء الإلٰهيّة أم يعمّ الصفات أيضاً؟ لا سيّما أنّ الفرق بين الأسماء والصفات هو بالاعتبار، بل هذا البحث هل يعمّ في الحقيقة مطلق أبواب المعارف أم لا؟ إذ مجيء هذا البحث في شؤون التوحيد، فكيف بمن دونه من المباحث.

وهذا الخلاف في الحقيقة بعينه هو الخلاف الدائر بين الأخباريّين والأُصوليّين في أحكام الفروع، والتشريع المتعلّق بالأفعال من أنّه هل للعقل حكم ودور في مساحة التشريع أم لا، وأنّ ما حكم به العقل يحكم به الشرع، وكذلك بالنسبة

---

(١) تحف العقول: ٤٤٠. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ١٩٧، الحديث ١.

إلى إدراكات القلب، ويتبيّن من ذلك أنّ مسألة تعدّد الأدلّة العقليّة والنقليّة التي هي طريق لاستكشاف الوحي، بحث دائر في كلّ تلك المساحات وليس مقتصراً على الفروع، بل هو شامل للمعارف.

النقطة الثانية: الاعتبار في المعارف

معنى التوقيفيّة هل هو بمعنى التعبّد أو المولويّة أو الإرشاد من الوحي من دون اعتبار تشريعيّ، ثمّ أيّ معنى يتقرّر للمولويّة في المعارف، وهل الخلاف مقتصر على المولويّة والتعبّد أو أنّه يشمل صحّة الاستناد في المعارف إلى الدلالة النقليّة والحجّة الظنّيّة، بل قد يتوسّع في البحث فيقال: إنّ البحث هو تطرّق الاعتبار في المعارف.

النقطة الثالثة: عموم المولويّة في المعارف

إنّ مغزى تقرير التوقيفيّة والتعبّديّة في المعارف يبتني على أنّ لمولويّة المولى، أي جانب الترغيب والترهيب منه، مؤثّر في المعرفة، والصعوبة في ذلك أنّ المعرفة إذا كانت من نمط الإدراك فأيّ دور للترويض النفسي الذي هو نوع من العمل الروحي يتصوّر له في الإدراك، وهذا البحث قد حرّرناه مفصّلاً في كتاب الإمامة الإلـٰهيّة والعقل العملي[1].

وملخّصه: أنّ المعرفة يقوم بها كلّ من العقل النظري والعقل العملي، إلّا أنّ التصوّر يقوم به العقل النظري، وأمّا التصديق والحكم فهو من شؤون العقل

---

(١) الإمامة الإلـٰهيّة: ١: الفصل الأوّل، وفي كتاب العقل العملي: الفصلين الأخيرين والخاتمة، ولاحظ كتاب أُصول الاستنباط ونظريّة الاعتبار.

العملي ، والعقل العملي يقوم بعمل علمي ، فإنّ في العلم نمط من العمل أيضاً ، والنفس ما لم تروّض وتهذّب بالترغيب والترهيب لا تستجيب إلى ما تدركه من تصوّرات ومقدّمات وقضايا ، ومن ثمّ يأتي دور صاحب الترغيب والترهيب ، وهو المولى ، ومن ثمّ يتبيّن برهان ضرورة المولويّة في حصول المعرفة التصديقيّة . وهذه إحدى الحيثيّات الواقعيّة لتأثير مقام الربوبي وهيمنته وقاهريّته ورحمانيّته في حصول الكمال للبشر بالمعرفة .

وهناك حيثيّة أُخرى وهي أنّ القدرة البشريّة في إدراك الحقائق ذات وسع محدود ، ومن ثمّ عرّفت الفلسفة بأنّها إدراك الواقعيّة بحسب وسع القدرة البشريّة ، مع أنّ الواقعيّة لا تتضيّق بضيق الإدراك البشري ، وكان من اللازم لتكميل معرفة البشر من العناية الإلٰهيّة واللطف لإفاضة العلم عليه بما لا قدرة له عليه بنفسه ، وهذه ضرورة أُخرى للافتقار إلى الوحي ومتابعته ، فمع وجود مساحة من الواقعيّة غائبة عن المخلوق ، وهو ما يعبّر عنه بالغيب ، بل إنّ ما غاب أعظم ممّا يشهده المخلوق بحسّه أو ما يشهده بوهمه وخياله أو يشهده بعقله أو ما يشهده بقلبه وسرّه ، فإنّها بمنزلة قطرة في محيطات لا متناهية ، فلابدّ له أن يذعن بهذا الفقر والافتقار الدائم للواقعيّة الأزليّة اللّامتناهية ، وهذا معنى العبوديّة من المخلوق والمولويّة من قِبل الخالق .

النقطة الرابعة

ما ذكره علماء أُصول الفقه عن كيفيّة العلاقة بين كاشفيّة العقل وهداية الوحي من وجوه متعدّدة بعينها ، تتأتّى في المعارف .

ومن تلك الوجوه أنّ مجال العقل في البديهيّات والسعي إلى زيادة دائرتها عبر عمليّة تبديه النظريّات بالاستعانة بمدد الوحي في المساحات النظريّة ،

ومنها أيضاً كون العقل والقلب هو المتلقّي والمخاطب الأصلي ببيانات الوحي دون بقيّة مراتب الذات، مع أنّ العقل أو القلب يتلقّى من تلك البيانات بحسب سعته، مع أنّ العقول والقلوب تتفاوت في السعة والاتّساع.

كما أنّه قد ذكر أنّ اليقينيّات في الأدلّة العقليّة، أو في الدلائل العقليّة، إنّما هي في دائرة البديهيّات أو ما يقرب منها، وأمّا ما توغّل في الجانب النظري، فإنّه يهبط عن اليقين إلى درجات الظنون النازلة كلّما توغّل في النظريّات، ومن ثمّ يكون للظنون النقليّة مصدر معرفي مهمّ.

والحاصل: أنّ ما ذكر من كيفيّة التوفيق بين الإدراكات العقليّة وأنوار هداية الوحي، ككون العقل قابل المستفيض وأنوار الهداية فائض منير، وغيرها من الوجوه كلّها بعينها تتأتّى في رسم النسبة بين إدراكات العقل والحاجة إلى بيانات الوحي في أبواب المعارف، وهو بعينه يرسم الحلّ في قاعدة توقيفيّة الأسماء، أي أنّ هناك مقدار من المساحة البديهيّة يدركها العقل والقلب من الأسماء بنحو جملي إجمالي، وأمّا التفاصيل فتستدعي وتتوقّف على بيانات الوحي[1]، وربّما تكون تلك الموارد من الأمّهات، كما هو الحال في المعاد والرجعة وغيرها من الموارد الأخرى.

النقطة الخامسة

وما استدلّ على التوقيفيّة في الأسماء جملة من الأمور منها:

الأوّل: قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾[2]،

---

(١) يلاحظ ما ذكر من الوجوه الأخرى في كيفيّة التوفيق في آخر الفصل الأوّل من الجزء الأوّل من كتاب الإمامة الإلـهيّة.

(٢) الصافّات ٣٧: ١٥٩ و ١٦٠.

باعتبار أنّ الوصف عين الاسم، والآية تنزّه الباري تعالى عن توصيف المخلوقين، وقصر صلاحيّة التوصيف بالمخلَص ـ بالفتح ـ وهو فوق المخلِص ـ بالكسر ـ أي المصطفين من الأنبياء والرسل والأوصياء والحجج، وهم الذين يتلقّون التوصيف من قناة الوحي والعلم اللدني والأوصاف هي الأسماء حقيقة والاختلاف بالاعتبار.

الثاني: ما بني على أنّ الأوصاف بما لها من مفاهيم كمالها دون كمال الذات الإلٰهيّة، فإنّها جامعة لما فوق كمالات الصفات.

فإذا كان البرهان وبيان الوحي قائم على أنّ الصفات التي تليق بذاته هي دون الذات الإلٰهيّة، لأنّ «**فَمَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنّاهُ، وَمَنْ ثَنّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ...**»[1].

فإذا كان هذا حال الأوصاف التنزيهيّة، أي الأوصاف التوقيفيّة، والتي جاءت في لسان الوحي، فما ظنّك بحال الأوصاف النابعة من قدرة درك البشر المحدودة، فإنّها أبعد عن أن تليق بجلاله تعالى، ومتى ما قرّر أنّ الأوصاف توقيفيّة، فالأسماء توقيفيّة أيضاً.

الثالث: ومنها ما رواه الصدوق في كتاب «التوحيد» بسنده عن حنان بن سدير، قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن العرش والكرسيّ، فقال:

...إنّه قال تبارك وتعالى: ﴿**رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾[2]، وهو وصف عرش الوحدانيّة، لأنّ قوماً أشركوا كما قلت لك قال تبارك وتعالى ربّ العرش ربّ الوحدانيّة

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١.

(٢) الأنبياء ٢١: ٢٢. الزخرف ٤٣: ٨٢.

عمّا يصفون، وقوم وصفوه بيدين فقالوا: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾[١]، وقوماً وصفوه بالرجلين فقالوا: وضع رجله على صخرة بيت المقدس، ومنها ارتقى إلى السماء، وقوماً وصفوه بالأنامل، فقالوا: إنّ محمّد ﷺ قال: إنّي وجدت برد أنامله على قلبي، فلمثل هذه الصفات قال ﴿رَبُّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

يقول ربّ المثل الأعلى عمّا به مثّلوه ولله المثل الأعلى الذي لا يشبهه شيء، ولا يوصف ولا يتوهّم، فذلك المثل الأعلى.

ووصف الذين لم يؤتوا من الله فوائد العلم فوصفوا ربّهم بأدنى الأمثال وشبّهوه بالمتشابه منهم فيما جهلوا به، فلذلك قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[٢]، فليس له شبه، ولا مثل، ولا عِدل، وله الأسماء الحسنى التي لا يسمّى بها غيره، وهي التي وصفها في الكتاب فقال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[٣] جهلاً بغير علم، فالذي يُلحد في أسمائه بغير علم يشرك وهو لا يعلم ويكفر به، وهو يظنّ أنّه يحسن، فلذلك قال ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٤]، فهم الذين يلحدون في أسمائه بغير علم فيضعونها غير مواضعها.

يا حنان، إنّ الله سبحانه وتعالى أمر أن يتّخذ قوم أولياء فهم الذين أعطاهم الله الفضل، وخصّهم بما لم يخصّ به غيرهم، فأرسل محمّداً ﷺ، فكان الدليل على الله بإذن الله عزّ وجلّ حتّى مضى دليلاً هادياً، فقام من بعده وصيّه دليلاً هادياً على ما كان هو دلّ عليه من أمر ربّه من ظاهر علمه، ثمّ الأئمّة الراشدون عليهم السلام »[٥].

---

(١) المائدة ٥: ٦٤.

(٢) الإسراء ١٧: ٨٥.

(٣) الأعراف ٧: ١٨٠.

(٤) يوسف ١٢: ١٠٦.

(٥) التوحيد: ٣٢٣ و ٣٢٤، باب العرش وصفاته، الحديث ١.

قاعدة ضابطة المثل والتمثيل

ففي هذه الروايات إشارة إلى أنّ الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[١] إلى امتناع وصف مقام الوحدانيّة الإلـهيّة.

وأنّ له تعالى المثل الأعلى الذي لا يشبهه ذلك المثل شيء ولا يوصف ذلك المثل ولا يتوهّم، وبيّن عليه السلام أنّ الذين ليس لهم علم لدنيّ من الله عزّ وجلّ يصفون الباري بأدنى الأمثال، كما بيّن عليه السلام أنّ من يضرب لله المثل الأدنى فقد قال لله بالمِثل ـ بالكسر ـ وقال له بالتشبيه، بخلاف مَن يجعل لله المثل الأعلى، فقد نفى المِثليّة عن الله تبارك وتعالى، ولا يتمّ أعلائيّة المثل لله إلّا أن يكون ذلك المَثل لا يوصف ولا يشبّه ولا يحدّ، وبذلك يتبيّن ضابطة الأسماء الحسنى للباري تعالى، وقد عيّنها عليه السلام، بالتي وصف بها نفسه بالقرآن الحكيم، وذلك توقيف منه تعالى للأسماء، وأنّ اللازم أن يُدعى بها لا بغيرها.

فمن وصف الباري تعالى بغيرها وسمّاه بها فقد ألحد في الأسماء جهلاً بغير علم، فظنّوا أنّه يحسن وهو يسيء الوصف لتسميته الباري، ثمّ بيّن عليه السلام أنّه لذلك قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[٢]، فهذه الآيات تبيّن ضرورة الوحي في الهداية إلى المعارف الحقّة، وللتوقيف على الأسماء الحسنى.

الرابع: ومنها ما قرّر من أدلّة كثيرة على ضرورة الشريعة والوحي والحاجة إليه، وتلك الأدلّة وإن صاغها المتكلّمون على ضرورة الشريعة، أي في مجال الفروع، لكن تلك الأدلّة المتعدّدة بعينها قائمة على ضرورة الدين، أي في مجال

---

(١) الزخرف ٤٣: ٨٢.

(٢) يوسف ١٢: ١٠٦.

العقائد والمعارف فضلاً عن الآداب والمكارم.

بل الحاجة والضرورة في المعارف أمسّ وأبين منها في الفروع، لأنّ متعلّقها وموضوعها أمر خارج عن حيطة الحواسّ، فمن الغريب تخصيص تلك الأدلّة والوجوه بالفروع أو تخصيص واستنتاج النتيجة بها، وكان الذي أوهم ذلك هو وضوح لزوم حكم وإدراك العقل لمبدأ العقيدة كي يتمّ الإذعان بمؤدّى الوحي، إلّا أنّ الصحيح أنّ ذلك هو في أُسس العقائد دون التفاصيل المترامية، بل دون جملة من الضروريّات العقائديّة.

الخامس: أنّ للعقل مساحة بديهيّة ونظريّة، وهو ما تقرّر من أنّ دائرة إدراك العقل والأحكام العقليّة تنقسم إلى بديهيّات ونظريّات، وكلّ من الدائرتين على مراتب ودرجات، فإنّ البديهيّات ليست على درجة واحدة من البداهة، وكذلك الحال في المسائل النظريّة، فتبدأ من البديهيّات الشديدة الوضوح إلى المتوسّطة إلى الأقل وضوحاً، وكذلك النظريّات، فإنّ منها ما يقرب من البديهيّات، ثمّ كلّما ابتعدت المسألة وترامت عن البديهيّات، ازدادت ولوجاً وإيغالاً في النظريّة في الابتعاد عن البديهيّات.

فإدراكات العقل متوزّعة على هذه الدرجات والأنماط، وقد حقّق أخيراً في المباحث العقليّة أنّ الدليل النظري في المسائل النظريّة هو بدرجة الظنّ، وإن كان بصورة القطع والقالب اليقيني، وكذا مادّةً، ولا سيّما إذا تراها في النظريّة مبتعداً عن البديهيّات، وعلى ذلك فالمساحة النظريّة اللّامتناهية تقصر إدراكات العقل عن استجلائها وإدراكها بتمامها، كما يعجز في الوصول إلى معرفتها بدرجة اليقين، وهذا هو شأن العقل البشري المحدود في المعارف أيضاً، حيث إنّ أُسس أُصول العقائد يدركها العقل في البداهة أو بشيء من التأمّل والتدبّر، وأمّا تفاصيل

كلّ أصل فيحتاج إلى ترتيب مقدّمات وأدلّة ترشده إلى النتائج، ومن ثمّ تنبع الحاجة إلى تعليم الوحي وكشفه للعقل ما عجز، ولا يعني هذا إقصاء العقل وإلغاءه، بل هو صاحب الدور الرئيسي، فإنّه هو الذي يقرأ تعاليم الوحي ويفهمها، وهو المخاطب في الأصل بتلك التعاليم، فالوحي بمنزلة النور المضيء للطريق إلى الحقائق والعقل بمنزلة العين الباصرة لذلك.

ولك أن تقول: إنّ حجّيّة العقل بمعنى الفهم غير محدودة بحدّ، وهي على طوال المسير، وهو ما تقوم به القوّة العاقلة.

وأمّا حجّيّة العقل بمعنى ذات الدليل، وهو الذي يسمّى بالعلم، فالعلم نوره ذاتيّ وكاشفيّته ذاتيّة، غاية الأمر أنّ قدرة الإنسان بلحاظ القوى الإدراكيّة التي تستحصل مواد ومقدّمات العلم ومعطياته ونتائجه، كالقوّة المفكّرة والقوّة المتصرّفة، هي قوّة محدودة لمحدوديّة حواسّ الطبيعة الإنسانيّة، سواء حواسّه الظاهرة أو حواسّه الباطنة، ومن ثمّ احتاج الإنسان إلى قوّة الوحي الإلهي أو النبوّات والرسالات.

فالوحي ليس بديل العلم، إذ العلم حجّيّته ونوره ذاتيّ، وهو انكشاف تكويني للحقائق والواقعيّات، سواء كان بقدرة الإنسان أو بقدّرة الوحي، كما أنّ الوحي لم يكن بديلاً عن فهم العقل وذوق القلب إذاً حجّيّة الفهم العقلي وذوق القلب حجّيّة مطلقة لا تعطّل بحال من الأحوال.

وإنّما الوحي قدره من ملكوت السماء تتمكّن منها النفس النبويّة أو الولويّة تكون مسعفاً ومكمّلاً للقصور الموجود في قدرات قوى الإنسان الاعتيادي.

وعلى ذلك فيتبيّن أنّ حجّيّة العقل بمعنى الفهم والذوق غير مقيّدة، بل مطلقة، ولا تعطّل بحال، وهو بمنزلة العين الباصرة، كما أنّ حجّيّة العلم الذي هو بمنزلة

النور أيضاً مطلقاً، وإنّ العلم حقيقته واحدة، سواء استحصل من هذا المنبع أو ذاك، غاية الأمر أنّ قدرة الإنسان وقوّته محدودة في استحصال العلم، فمن ثمّ لا بدّ له من مكمّل وهادي، وهو الوحي.

فتحصّل: أنّ الأوفق في مسألة توقيفيّة الأسماء ومسألة توقيفيّة المعارف هو القول الوسط، أي لا يصار إلى التوقيفيّة المطلقة ولا إلى نفي التوقيفيّة مطلقاً، بل الصحيح في دائرة البديهيّات العقليّة هي المبدأ بخلاف دائرة ومساحة النظريّات، فإنّه لا بدّ من الاستعانة بالوحي بضميمة محكمات العقل وهي البديهيّات، هذا مع عدم تعطيل العقل في الفهم مطلقاً والقلب في ذوق الحقائق.

الأسماء والتوسّل

إنّ هناك صلة وثيقة بين الأسماء الإلهيّة والتوسّل والتوجّه بها إلى الساحة الربوبيّة، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[1].

فأفرد الضمير الراجع إلى الذات الإلهيّة، وجعل الضمير العائد للأسماء يفيد الجمع، وأنّ دعاءه تعالى والتوجّه إليه والقصد نحوه لا بدّ أن يستعان فيه ويتوسّل إليه بالأسماء، وأنّ هذه الأسماء هي مملوكة له تعالى، فذاته المسمّى وهي دوالّ عليه، وهذا ما يفيده دخول الباء في البسملة على اسم الله فلم تكن أوّل آية في كلّ سورة وفي مطلع الفاتحة وفي مطلع القرآن بصورة (بالله) أي ذكر لفظة الاسم للتنصيص والتأكيد على إرادة الاسم.

فإنّ استعمال لفظ الجلالة والأسماء الحسنى كما مرّ أنّ استعمالها تارةً يراد به المسمّى، كما هو المنسبق لاستعمالها، وأُخرى يراد من استعمالها نفس الأسماء،

---

(١) الأعراف ٧: ١٨٠.

فالاستعمال الأوّل آلي، والاستعمال الثاني موضوعي، لكن الآليّة والموضوعيّة ليست في اللفظ ولا في المعنى، بل فيما وراء المعنى من واقع الاسم ووجوده، فإنّه تارةً ينظر إليه كآية وعلامة لذات الإلـٰهيّة، وأُخرى ينظر إليه بما هو هو.

وإرادة النحو الأوّل وتميّزها عن إرادة النحو الثاني في الآيات والسور، وما يذكر من شؤون وصفات للأسماء، أمرٌ بالغ الأهميّة.

ولأجل عدم الإيهام فقد نصّ في البسملة بتعلّق الاستعانة والتوسّل بالاسم، وهو حقيقة التوسّل بعدما عرفت من المباحث السابقة أنّ الأسماء في واقعها وجودات وآيات مخلوقة عظيمة دالّة على العظمة الإلـٰهيّة.

وبذلك يظهر أنّ التوجّه إلى الذات الإلـٰهيّة لا يمكن إلّا بالتوسّل أو التوجّه إلى هذه الأسماء، فلولا الاسم لما أمكن التوجّه إلى الغيب المطلق، وكذلك يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[1]، حيث اسند الدعاء إلى الاسم، وأنّ الدعاء والتوجّه إلى الاسم يؤدّي إلى التوجّه إلى الله، فعلّل دعاء أيّ من الأسماء في التسوية بأنّها مملوكةٌ له تعالى، وخاصّة به، ومن شؤونه المؤدّية إليه.

ففي الآية دلالة على أنّ الدعاء لا يتمّ إلّا بالتوسّل بالأسماء، ودعاءه تعالى هو بدعاء أسمائه والتوسّل بها، كما أنّه في ذيل الآية الكريمة: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي أنّ الصدّ عن التوجّه والتوسّل بالأسماء إلى الذات الإلـٰهيّة إلحاد في الأسماء وذلك بإنكار الصلة بين الأسماء والذات الإلـٰهيّة وإنكار أنّ الأسماء الحسنى هي له

(١) الإسراء ١٧: ١١٠.

تعالى، إذ مقتضى الإقرار بأنّ الأسماء له تعالى هو التوجّه والتوسّل بها إليه، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾(١).

وكذلك يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾(٢).

وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾(٣).

فبيّن الباري تعالى أنّ التصديق والخضوع للآيات والتوجّه والإقبال عليها لا الصدّ عنها هو فتح لأبواب السماء لصعود الدعاء والأعمال، فآياته العظيمة المخلوقة جعلها أبواباً لسماء رحمته وأبواباً للوقوف على ساحة قربه.

ومن ثمّ ندب للتوجّه والمجيء واللّواذ بنبيّه لأنّه أعظم أبوابه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٤)، فجعله رحمةً لكلّ العالمين، فهو رحمة الله الواسعة وباب نجاتهم، كما وصفه بأشرف أسمائه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٥).

---

(١) المنافقون ٦٣: ٥.

(٢) النساء ٤: ٦٤.

(٣) الأعراف ٧: ٤٠.

(٤) الأنبياء ٢١: ١٠٧.

(٥) التوبة ٩: ١٢٨.

والاسم والآية والعلامة والدلالة من باب واحد في المعنى، وقد جعل الله الرسول الدليل عليه والداعي إليه والسراج المنير.

وكذلك أهل بيته من بعده، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1]، فصدارة القرآن بالبسملة، وكذلك كلّ السور يدلّ على أهميّة ودور التوسّل بالأسماء الإلهيّة والأبواب الإلهيّة في الهداية إلى ساحة التوحيد، وأنّه من دون التوسّل بها لا يتمّ إقامة معرفة التوحيد.

وذلك لأنّ الذات الإلهيّة من فرط العظمة والتعالي لا تقرّ بالحدود ولا بالنهايات، فلا يكتنفها شيء ولا يحيط بها ولا يحدّدها أمر، ومع هذا الحال فيمتنع سبيل المعرفة ويلزم التعطيل فيها.

إلّا أن يقام سبيل المعرفة والتوجّه إلى الذات الإلهيّة عبر الآيات التي هي الدلالات والعلامات.

فيتبيّن من ذلك ضرورة التوسّل بها والتوجّه إليها، فهي الركن الركين للإيمان، ومن ثمّ أنذر الباري تعالى المستكبرين والصادّين عن أسمائه وآياته، وأعظمها رسوله المصطفى باستحالة دخول الجنّة، واستحالة الغفران لهم، وامتناع فتح أبواب سماء الرحمة لهم.

وإلى هذا البرهان العقلي تشير بضعة المصطفى ﷺ في خطبتها: «واحمدوا الله الذي لعظمته ونوره يبتغي من في السماوات والأرض إليه الوسيلة، ونحن وسيلته في خلقه، ونحن خاصّته، ومحلّ قدسه، ونحن حجّته في خلقه»[2].

وتتمّة الكلام ستأتي إن شاء الله في ذيل تلك الآيات.

---

(١) الرعد ١٣: ٧.

(٢) السقيفة وفدك: ١٠١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٦: ٢١١.

نظام الأسماء الإلـهيّة في عالم الخلقة

ومن البحوث الهامّة في الاسم والأسماء الإلـهيّة ما يرسمه القرآن الكريم في جملة من الآيات من إسناد الفعل الإلـهي إلى تلك الأسماء كأسباب في نظام الخلقة ، كما في قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾ (١).

فأسند هذه الأفعال بجملتها إلى الاسم الأعلى ، إلى الربّ تعالى.

وكذا قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (٢).

فهنا الإسناد متمازج ، وأنّ الإسناد إلى الاسم عينه الإسناد إلى الذات الإلـهيّة.

وكذا قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٣).

فهنا الجلال والإكرام وصف لوجه الربّ ، وهو ما يتوجّه به تعالى ، وهو الاسم ، وهذا التوصيف في هذه الآية في قبال التوصيف في آية اُخرى في نفس السورة ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٤).

فالجلال والإكرام جعل وصف الربّ.

وكذا قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ (٥).

---

(١) الأعلى ٨٧: ١ ـ ٥.

(٢) العلق ٩٦: ١ و ٢.

(٣) الرحمن ٥٥: ٢٦ و ٢٧.

(٤) الرحمن ٥٥: ٧٨.

(٥) يس ٣٦: ٧١.

فأسند الخلق إلى الأيدي الإلـٰهيّة، فهنا وصفت الأسماء الإلـٰهيّة التي أسند إليها الخلق في آيات أُخرى وصفت أنّها أيدي إلـٰهيّة، فهي مظاهر قدرة الله وتصرّفه.

وقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾[(٢)].

وكذا قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾[(٣)].

فأسند التنزيه لاسم الربّ، وكذلك الذكر لاسم الربّ، وكذلك ما مضى في سورة الرحمن أسند التبارك لاسم الربّ.

وكذلك أُسندت الاستعانة في جملة من الآيات، كما في آية البسملة، وكما في قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[(٤)].

وقوله تعالى على لسان نوح: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾[(٥)].

وقوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾، أي التسبيح والاستعانة بسم الربّ.

كما أنّه وصفت الأسماء تارةً بالاسم الأعلى، كما مضى في سورة الأعلى، وتارةً بالعظيم كما في الآية الأخيرة.

إشارات أُخرى في البسملة

منها: أنّ مجيء اسم الرحمن الرحيم بعد اسم الجلالة يفيد إفادة تامّة أنّ الحاكم

---

(١) المزمّل ٧٣: ٨.

(٢) الحجّ ٢٢: ٢٨.

(٣) الواقعة ٥٦: ٧٤، ٩٦. الحاقّة ٦٩: ٥٢.

(٤) العلق ٩٦: ١.

(٥) هود ١١: ٤١.

في عالم الخلقة وأفعال الذات الإلٰهيّة هو ناموس الرحمة الإلٰهيّة.

فأفعال الباري تعالى كلّها مظهر رحمة، وأنّ هذا هو الأصل فيها المهيمن عليها، ومن ثمّ فإنّ غاية كلّ فعل إلٰهي هو الرحمة، كما مرّ في البحث الروائي.

ويشير إليه قوله تعالى: ﴿قُل لِمَن مَا فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[2].

وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[3].

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[4].

وكذا قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾[5].

وبيّن ذلك أيضاً البرهان العقليّ أنّ الذات الأزليّة غنيّ بالذات، ومن غناه الذاتيّ يتقرّر معنى الجود، حيث يفيض ما يفيض من الكمال والجود والقدرة والنعم لا لطمع غاية يستكمل بها، وهذا معنى الجود الحقيقيّ، فهو تعالى مصدر وجود كلّ ممكن ـكما ورد في الرواياتـ هو الجواد إن أعطى، وهو الجواد إن منع، وإن بسط، وإن أمسك فإمساكه وقبضه وتقديره ليس لنفاد الخير عنده، ولا لخوف

---

(١) الأنعام ٦: ١٢.

(٢) غافر ٤٠: ٧.

(٣) الأنبياء ٢١: ١٠٧.

(٤) يوسف ١٢: ٦٤.

(٥) ص ٣٨: ٩.

افتقار، وإنّما حكمه في تدبير المخلوق، ومن ثمّ يتقرّر أنّ اسم الرحمن الرحيم مهيمن على بقيّة الأسماء الراجعة إلى صفات الفعل.

كما أنّ اسم الله مهيمن على الأسماء الراجعة إلى صفات الذات، وأسماء الذات صفات الذات مهيمنة على الأسماء المشتقّة من صفات الفعل، أي غير خارجة عن مقتضاها بل إنّ تقرّرها مشتقّ تكويناً من أسماء الذات.

وعلى ضوء ذلك، فكلّ فعل هو بمقتضى الاسم الإلـهي الفرع، لا بدّ أن يكون متناسباً مع الاسم الإلـهيّ الركن، ومتناسباً مع معناه ومقتضاه، ومن ثمّ تفسّر البطشة الإلـهيّة والنقمة والعذاب بأنّ حكمتها وغايتها هي الرحمن، بمعنى أنّ العذاب والنقمة والجحيم هي بنفسها رحمة، سواء في نظام مجموع الخلقة أو لنفس المداوى بذلك العذاب، كما سنبيّن بيان ذلك في محلّه مفصّلاً.

فاقتران الأسماء الثلاثة في البسملة التي مرّ أنّها جمع فيها الكتاب يشير إلى هيمنة هذه الأسماء على بقيّة الأسماء، كما أنّ مقتضى هيمنة اسم الجلالة (الله) على بقيّة الأسماء هو أنّ أيّ فعل إلـهيّ يصدر، لا بدّ أن يكون متناسباً مع اسم الجلالة بما له من معنى، أي متناسب مع الكمال الإلـهيّ والصفات الذاتيّة العليا، كما أنّ كلّ الأسماء لا بدّ أن تكون كاسم الله، وتبارك وتعالى متناسبة مع اسم الواحد والأحد.

وممّا يشير إلى نظام مراتب الأسماء ما في آخر سورة الحشر من الترتيب الذكريّ للأسماء، سواء بلحاظ طبقات الأسماء، أو بلحاظ مراتب الطبقة الواحدة.

فجعل اسم (هو) وهو الذي يشير إلى غيب الذات، مهيمن على اسم الجلالة (الله)، كما انّ اسم الجلالة مهيمن على اسم الرحمن الرحيم، كما أنّ هذه الطبقة

مهيمنة على الطبقة الثانية وهي ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾(١)، وهذه الطبقتين تأثيراتها في عالم الملكوت كما أنّها مهيمنة على الطبقة الثالثة، وهي (الخالق الباري المصوّر) الحاكمة مقتضياتها على عالم المادّة الغليظة من دار الدنيا.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

معاني الحمد

روى الصدوق في «الخصال»: عن عليّ بن الحسين عليهما السلام، قال: «ومَن قال: الحمد لله فقد أدّى شكر كلّ نعمة لله عزّ وجلّ عليه»(٢).

ونظيرها: روى الكليني في صحيحة صفوان الجمّال، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «قال لي: ما أنعم الله على عبد بنعمة صغرت أو كبرت، فقال الحمد لله إلّا أدّى شكرها»(٣).

بيان: الظاهر أنّ المراد أنّ بالحمد والتحميد يتأدّى ويتحقّق الشكر، لا أنّ حقيقة الحمد هي الشكر.

وفي رواية أُخرى رواها الكليني، عن أبي عبدالله عليه السلام أنّ شكر الله حقّ شكره هو قول: الحمد لله(٤)، ويظهر من هذه الرواية أنّ هذا القول هو أتمّ ما يمكن أن يؤدّى به الشكر، وإن كان لازم الإقرار بقول: الحمد لله هو الالتزام ببقيّة مراتب

---

(١) الحشر ٥٩: ٢٣.

(٢) الخصال: ٢٩٩، الحديث ٧٢.

(٣) الكافي: ٢: ٩٦، الحديث ١٤.

(٤) الكافي: ٢: ٩٧، الحديث ١٨.

أداء الشكر القوليّة والفعليّة.

وروى عليّ بن إبراهيم في تفسيره في الموثّق عن أبي عبدالله عليه السلام، في قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، قال: «الشكر لله»، وفي قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال: «خلق (خالق) المخلوقين»[1].

وصدر الحديث محمول على تأدية الشكر بالحمد.

وروى الصدوق في «الخصال» عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إنّ لله عزّ وجلّ اثني عشر ألف عالم، كلّ عالم منه أكبر من سبع سماوات وسبع أرضين، ما يرى عالم منهم أنّ لله عزّ وجلّ عالماً غيرهم، وأنا الحجّة عليهم»[2].

وقد ذكر في تعاريف الحمد لغةً أقوال كثيرة، فقد قال السيّد علي خان المدني في «رياض السالكين»: «الحمد هو الثناء على ذي علم بكماله، ذاتيّاً كان كوجوب الوجود والاتّصاف بالكمالات والتنزّه عن النقائص، أو وصفيّاً ككون صفاته كاملة واجبة، أو فعليّاً ككون أفعاله مشتملة على حكمة، فأكثر تعظيماً له، وآثره على المدح الذي هو الثناء على الشيء بكماله ذا علم كان أو لا»[3].

أقول: ما ذكره السيّد من الفرق بين الحمد والمدح من أنّ الحمد أكثر تعظيماً من المدح، قد أشارت إليه الروايات:

وهو أنّ الحمد وصف للكمالات العظيمة ومعالي الفضائل بخلاف المدح، فهو أعمّ من هذه الجهة والحمد أخصّ، ومن ثمّ فالمحمود أعلى شأناً من الممدوح.

---

(١) تفسير القمّي: ١: ٢٨.

(٢) الخصال: ٦٣٩، الحديث ١٤.

(٣) رياض السالكين: ١: ٢٦٠.

والفارق الثاني: أنّ الحمد خاصّ بذي علم، بخلاف المدح فإنّه أعمّ.

وقد فرّق بينهما بالعلم دون الاختيار، وفي الجمع جعل الحمد نقيض الذمّ، والمدح نقيض الهجاء، والشكر نقيض الكفران.

والحمد قد يكون من غيرنعمة، والشكر يختصّ بالنعمة، وذكر أنّ الشكر هو اعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم، وأنّ الأصل فيه أن يكون في القلب، وعلى ضوء هذه المقابلة فإنّ المدح إنشائيّ بالأصل وإن تضمّن الإخبار بالالتزام بخلاف الحمد، فإنّه إخبار في الأصل، وإن تضمّن الإنشاء، كما أنّ من هذه التفرقة يظهر أنّ الحمد يكون بدواعي عقليّة بخلاف المدح، فإنّه يكون بعموم دواعي الإنشاء.

وفي «الكشّاف»: «الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها. تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على حسبه وشجاعته»[(١)].

وقيل: إنّ الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري[(٢)].

وعلى أوسع تعاريف الحمد، فيكون هو الإخبار أو الوصف أعمّ من الذاتيّة أو في مقام الأفعال.

وفي «مصباح الشريعة»: «أدنى الشكر رؤية النعمة من الله من غير علّة يتعلّق القلب بها دون الله عزّ وجلّ والرضا بما أعطى، وأن لا يعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب نعمته»[(٣)].

---

(١) تفسير الكشّاف: ١: ٤٦.

(٢) روض الجنان (ط. ق): ٤. جواهر الكلام: ١٠: ١٠٠.

(٣) مصباح الشريعة: ٢٤.

ثمّ إنّ لفظة الربّ قد استعملت في القرآن بمعنى مطلق المدبر، كما في سورة يوسف: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[١].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾[٢].

جامعيّة الحمد

وحيث أنّ معنى الحمد يتضمّن معنى الشكر ـ كما مرّ ـ، ومعنى الشكر منطوٍ بالاعتراف بالنعم من المنعم فضلاً عن الاعتراف بالمنعم كما يتضمّن نحو تعظيم للمنعم، ومن ثمّ قيل في تعريفه أيضاً: مقابلة الإحسان بالإحسان بالابتداء بالحمد لله إشارة إلى وجوب الشكر الواجب للمنعم وهو يتضمّن الإقرار بالتوحيد بالذات والصفات والأفعال والإقرار بجملة الدين من الطاعة والعبوديّة له تعالى، حيث إنّ مقام الإحسان بعد الاعتراف بمقام العبوديّة لله تعالى إنّما يكون لقيام العبد بخدمة وطاعة مولاه، ومن ثمّ قوبل الشكر بالكفر في قوله تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[٣]، وإلى ذلك تشير الآيات في سورة لقمان أنّ أوّل أمر كان في حكمة لقمان هو الشكر لله، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾[٤].

وهذا الذيل إشارة إلى أنّ شكر العبد للباري نفعه أيضاً راجع إلى العبد، ولا ينتفع الباري منه بشيء لأنّه غنيّ حميد.

---

(١) يوسف ١٢: ٤٢.

(٢) يوسف ١٢: ٥٠.

(٣) الإنسان ٧٦: ٣.

(٤) لقمان ٣١: ١٢.

فالشكر كما ورد في الروايات يقتضي شكراً.

ومن ثمّ كان مقام الحمد هو مقام الطائعين، وحال العصيان مقام سخط، ومن ثمّ قيل: إنّ الحمد يتضمّن الرضا، فمقام الحمد مقام جامع للدين كلّه، مبتدئه ومنتهاه، فهو مفتتح الأمور وختامها، ولعلّ إليه الإشارة: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

ومن هنا يفهم معنى كون لواء الحمد لواء النبيّ وبيد عليّ عليه السلام.

وفيه إشارة إلى أنّ منهاج عليّ هو طريق النجاة، وهو باب مدينته، فلفظ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ذكر جامع لجملة ما في القرآن الكريم.

المقارنة بين البسملة والحمد

فإنّه قد جعل مفتتح الأشياء البسملة، ويشير إليه أيضاً قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾(٢)، فإنّه جعل مبتدأ القراءة مستعين ببسم الربّ، ثمّ جعلت القراءة مصاحبة بالتحميد والتوصيف له تعالى بالكمال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾

وقد أخرج السيوطي في «الدرّ المنثور» جملة من مصادرهم، قوله صلى الله عليه وآله: «كلّ أمر ذو بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع»(٣).

وهذه الرواية قد رويت مستفيضة في البسملة، ولعلّ الاشتباه من الرواة، وعلى تقرير صحّة صدورها، ففيها إشارة إلى نحو تطابق بين معنى البسملة

---

(١) يونس ١٠: ١٠.

(٢) العلق ٩٦: ١ ـ ٣.

(٣) الدرّ المنثور: ١: ١٠.

والحمد، وقد يقرّر بأنّ في البسملة اعتراف ضمنيّ بإنعام الله تعالى والتعظيم له.

وفي «نهج البلاغة»: «**الْحَمْدُ لِلهِ الَّذي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَليلاً عَلَىٰ آلائِهِ وَعَظَمَتِهِ**»[1]، ولعلّ مفاده ما تقدّم.

حقيقة الحمد والحسن والقبح العقليّين

فإنّ واقعيّة الحمد تقتضي واقعيّة المدح، وهي تقتضي واقعيّة الحسن العقليّ، ومن تعريف الحمد بأنّه النعت بالكمال يتقرّر تعريف المدح بأنّه الثناء بالجميل، والكمال، والكمال أمر واقعيّ وليس اعتباريّ، فالوصف به مع مطابقة الواقع يكون كالصدق على خلاف الذنب، فإنّه الوصف بالنقص، ومنه يظهر زيف ما ادّعي من أنّ المدح والذمّ أمران اعتباريّان تتطابق عليهما آراء العقلاء ويتباينون عليهما كآداب المصالح العامّة، وكآراء محمودة، فإنّما الكمال والنقص واقعيّان بغضّ النظر عن الآراء والتوافقات العقلائيّة.

وكذلك الوصف بهما الذي هو حقيقة ماهيّة المدح والحمد، وماهيّة الذمّ والهجاء، ومن ثمّ يقال: مدح صادق ومدح كاذب، وكذلك بالذمّ والهجاء، أي يجعل واقع مدار لمطابقته وعدمها.

ومن ثمّ فإنّ صفة الحمد واسمه من الأسماء الحسنى له تعالى بغضّ النظر عن نشأة النظام الاجتماعي.

كما ورد في دعاءه ﷺ: «**الْحَمْدُ لِلهِ الْأَوَّلِ قَبْلَ الْإِنْشاءِ وَالْإِحْياءِ، وَالْآخِرِ بَعْدَ فَناءِ الْأَشْياءِ**»[2].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٧.

(٢) بحار الأنوار: ٨٧: ١٣٤، الحديث ٢.

وبذلك تظهر المغالطة في التفكيك بين المدح والحمد، وبين الكمال والملائم، أو بين الذمّ والنقص والمنافر، كما ارتكبه الأشعري ووافقه عليه ابن سينا، ومن ذلك يظهر أيضاً أنّ الحمد عنوان لفطرة العقل، أو لإدراك فطرة العقل، ومن ثمّ يتطابق مع ما مرّ من وجوب شكر المنعم المستفاد من الحمد، إذ هو من مدركات العقل العمليّ، أو يمكن تقريره أنّه من مدركات العقل النظري، فالابتداء بالحمد إشارة إلى أنّ مبدأ الإقرار بالدين هو بإدراك العقل للمنعم وإنعامه، ووجوب شكره وقبح الجحود، وأنّ كمال المخلوق في شكر المنعم ونقصه وتردّيه في الجحود والكفر.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[(١)].

وقد تقدّمت الرواية من أنّ العوالم التي خلقها الله عزّ وجلّ اثني عشر ألف عالم، كلّ منها أكبر من سبع سموات وسبع أرضين.

والرواية عن أبي عبدالله عليه السلام: «إنّ لله عزّ وجلّ اثني عشر ألف عالم، كلّ عالم منهم أكبر من سبع سموات وسبع أرضين، ما يُرى عالم منهم أنّ الله عزّ وجلّ عالم غيرهم، وأنا الحجّة عليهم»[(٢)].

وروى الصدوق في «التوحيد» عن أبي جعفر عليه السلام في حديث: «لعلّك ترى أنّ الله إنّما خلق هذا العالم الواحد أو ترى أنّ الله لم يخلق غيركم، بلى والله خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأُولئك الآدميّين»[(٣)].

---

(١) الزمر ٣٩: ٦٩.

(٢) الخصال: ٦٣٩، الحديث ١٤.

(٣) التوحيد: ٢٧٨، الحديث ٢.

بيان: قد وردت لفظة العالمين في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

وفي صفة القرآن: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾[٣].

فالعالمين سواء حملت على الأمم بحسب الأزمنة، أو على العوالم، فإنّ في الآيات إشارة إلى أنّ البعثة لسيّد الرسل هي إلى الجميع، ومن هنا يكون مقام أوصيائه كذلك، وإليه الإشارة في قوله ﷺ: «وأنا الحجّة عليهم».

وهذا المقام من عموميّة بعثة الرسل من خواصّ سيّد الأنبياء، وبذلك يفضّل أوصياؤه.

ومن الموارد التي استعملت العالمين في أمم شعوب البلدان قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٤]، فإنّ المراد أمم بلدانهم، أي أمم البلدان في زمانهم بقرينة قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٥].

وكذا قوله تعالى في شأن مريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[٦].

---

(١) الأنبياء ٢١: ١٠٧.

(٢) الجاثية ٤٥: ٣٦.

(٣) القلم ٦٨: ٥٢.

(٤) الجاثية ٤٥: ١٦.

(٥) آل عمران ٣: ١١٠.

(٦) آل عمران ٣: ٤٢.

سرّ الخلقة

ثمّ إنّ تعقيب ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بصفة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ثمّ بعدها بصفة ﴿الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ثمّ بعدها بصفة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ بمثابة التعليل للحمد، ويمكن أن تُجعل صفة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: بمعنى المبدءُ لعوالم الخلقة، و﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إشارة إلى المنتهى، وأنّه إليه المعاد والمنتهى، وأنّ غاية خلقة الخلق مبدأ ومنتهى هو الرحمة والإنعام والجود والكرم وظهور صفاته صفة ﴿الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ بهذا الفعل وهو الخلق.

نذكر صفة ﴿الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في البسملة وهي الآية الأولى، وبعد الآية الثانية المتضمّنة للخلقة كأنّه بيان لكون هاتين الصفتين منشأ للخلقة ومنتهى وغاية لها، كما أنّه يحتمل في ذكر ﴿الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أنّ الأولى صفة في مرتبة الصفات الذاتيّة والأخيرتين في مرتبة الصفات الفعليّة.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

إنّ من المرتكز في عموم الأذهان أنّ الآية تشير إلى المعاد، وأنّه المراد بيوم الدين، أي يوم التداين والحساب، والمالك له يومئذٍ هو ربّ العالمين، كما في قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[١].

ولكن في سور عديدة أكّد على أنّ الملك مطلقاً هو لله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ

(١) غافر ٤٠: ١٥ ـ ١٧.

وَلَمْ يَكُن لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[٦].

ففي هذه الآيات بيان أنّ الملك في مطلق العوالم هو لله وهو برهان على أنّ المعاد إليه تعالى، لأنّه هو الذي بيده إعطاء العاقبة لكلّ شيء، وإفاضة كلّ غاية على كلّ ذات بحسب صفاتها وأفعالها، فبراهين ودلائل المبدأ هي بنفسها مقتضية لكونه المنتهى، فليس ملكه منحصر بيوم القيامة.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾[٧]، وهي أيضاً تبيّن أنّ المجازات وإيصال كلّ شيء إلى غايته هي بيده

---

(١) الإسراء ١٧: ١١١.

(٢) آل عمران ٣: ٢٦.

(٣) آل عمران ٣: ٢٦.

(٤) المائدة ٥: ١٧.

(٥) النور ٢٤: ٤٢.

(٦) الحديد ٥٧: ٥.

(٧) الفتح ٤٨: ١٤.

تعالى، بدليل أنّ الملك مطلقاً له، نظير تعليل الشفاعة، وأنّها بيده، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١].

إلّا أنّ في جملة من الآيات تخصيص إسناد الملك يوم الدين إليه تعالى، وهذا ليس من تخصيص ملكه ليوم الدين، بل من تخصيص ملك يوم الدين به تعالى من قبيل حصر الصفة بالموصوف لا الموصوف بالصفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾[٤].

إلّا أنّه يقع الكلام في وجه هذا التخصيص، فإنّ في ذلك اليوم أيضاً قد أسند جملة من الأفعال إلى الملائكة، كما أنّ الشأن في دار الدنيا وبقيّة العوالم أيضاً هو كونه تعالى مالك الملك، فأيّ وجه يبقى للتخصيص حينئذٍ؟

ولعلّ الوجه في ذلك أنّ في دار الدنيا حيث أنّها دار امتحان، فقد تتخلّف المشيئة الإلـٰهيّة التكوينيّة عن الإرادة التشريعيّة بحسب المقايسة إلى ذات الفعل المحدود، فتختلف إرادة العبد عن الإرادة التشريعيّة الإلـٰهيّة، وأمّا في دار الآخرة

(١) الزمر ٣٩: ٤٤.

(٢) الأنعام ٦: ٧٣.

(٣) الحجّ ٢٢: ٥٥ و ٥٦.

(٤) الفرقان ٢٥: ٢٥ و ٢٦.

فلامجال لذلك التغاير، وتكون إرادة العبد دائماً منطبقة مع الإرادة الإلـهيّة، فضلاً عن المشيئة الإلـهيّة، كما في قوله تعالى: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾(١)

وكما في قوله تعالى: ﴿ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(٢).

وكما في قوله تعالى: ﴿ لَهُم مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾(٣).

فهذا شأن أهل الجنّة بأنّ مشيئتهم وإرادتهم مرضيّة له تعالى، وأمّا أهل النـار فإنّهم بتوسّط ما يجري عليهم من ألوان العذاب فيوصفون بقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾(٤)، ووصفوا بأوصاف أُخرى، كما في قوله تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾(٥).

وكذا قوله تعالى: ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾(٦)، فيوم الدين هو يوم اللـقاء، وهـو دار القـرب الإلـهي، وليس يجوز فيها العصيان والتمرّد على المشيئة الإلـهيّة، وإن لم تنعدم إرادة المخلوق، كما يشير قوله تعالى لإبليس عندما عصى الأمر بالسجود، قال: ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾(٧).

---

(١) الأنبياء ٢١: ٢٦ و ٢٧.

(٢) التحريم ٦٦: ٦.

(٣) ق ٥٠: ٣٥.

(٤) الغاشية ٨٨: ٢ و ٣.

(٥) عبس ٨٠: ٤٠ و ٤١.

(٦) إبراهيم ١٤: ٤٢ و ٤٣.

(٧) الأعراف ٧: ١٣.

ويستفاد من هذه قاعدة وسنّة كونيّة وهي أنّ العوالم كلّما قربت من الحضرة الإلـٰهيّة كلّما كان التسليم للإرادة والمشيئة الإلـٰهيّة أشدّ ، فكلّما كان القرب أقرب كلّما كانت الطاعة أشدّ ، وكلّما كانت أقلّ كان المقام أبعد ، ومن ثمّ كان عالم الدنيا والأرض من أبعد العوالم عن الحضرة الإلـٰهيّة وأهبطها وأدناها ، فتوصيف عوالم القرب والزلفى الإلـٰهيّة بأنّها عوالم الملك الإلـٰهيّ ، بهذا اللحاظ ، أي أنّه يكون ظهور الملك الإلـٰهيّ وتوحّد الإرادة الإلـٰهيّة أجلى ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: **﴿ أَمْ لَهُم مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ * جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴾**(١).

هذا ، وقد روي في «نور الثقلين» عن أهل البيت عليهم السلام كلّ من قراءة (مالك) وقراءة (ملك)(٢) ، وإن كانت الأولى أكثر رواية ، وأمّا القراءات العشر فالأشهر عندهم قراءة **﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾** ، وقرؤوها أيضاً بـ(ملك) يوم الدين ، وهناك قراءات شاذّة أُخرى نظير قراءة (ملك) بصيغة الفعل الماضي ، و(مليك) بصيغة فعيل ، وغيرها من القراءات الشاذّة.

﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

روي في «الفقيه» رواية الفضل للعلل عن الرضا عليه السلام أنّه قال: «**﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾** إقرار له بالبعث والحساب والمجازاة ، وإيجاب ملك الآخرة له ، كإيجاب ملك الدنيا»(٣).

---

(١) ص ٣٨: ١٠ و ١١.

(٢) نور الثقلين: ١: ١٩ ، الحديث ٧٩ و ٨٠.

(٣) نور الثقلين: ١: ١٩ ، الحديث ٨١. من لا يحضره الفقيه: ١: ٣١٠ ، الحديث ٩٢٦. علل الشرائع: ١: ٢٦٠ ، الحديث ٩.

ويقع الكلام في إطلاق وتسمية اليوم في مقابل الليل على مشهد الحساب والبعث، وقد أُطلق عليه اليوم في موارد عديدة من الآيات والسور.

فسمّي باليوم الآخر: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وسمّي بيوم القيامة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢).

و ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾(٣).

وأُضيف اليوم إلى نعوت أحوال القيامة، كما أُطلق اليوم على المشاهدة الحافلة بالأحداث العظيمة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللهِ﴾(٥).

وقوله تعالى -في مشهد غدير خم-: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٦).

---

(١) البقرة ٢: ٨.

(٢) البقرة ٢: ١٧٤.

(٣) الأنعام ٦: ٧٣.

(٤) آل عمران ٣: ١٥٥.

(٥) إبراهيم ١٤: ٥.

(٦) المائدة ٥: ٣.

وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾[(١)].

وكقوله عن بدر: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[(٥)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[(٦)].

وقوله تعالى في طوفان نوح: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَحِمَ﴾[(٧)].

وقوله تعالى في شأن إبليس: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[(٨)].

وقوله تعالى عن الرجعة: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[(٩)].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[(١٠)].

---

(١) الأعراف ٧: ١٥٨.

(٢) الأنفال ٨: ٤١.

(٣) التوبة ٩: ٣.

(٤) التوبة ٩: ٢٥.

(٥) التوبة ٩: ٣٦.

(٦) هود ١١: ٣.

(٧) هود ١١: ٤٣.

(٨) الحجر ١٥: ٣٧ و ٣٨. ص ٣٨: ٨٠ و ٨١.

(٩) النحل ١٦: ٨٤.

(١٠) الأنبياء ٢١: ١٠٤.

كما أُطلق الليل على ليلة القدر، فاستظهر أنّ هناك نزول للمقادير والقضاء الإلٰهي في ألواح القضاء، والقدر يُطلق عليه الليل بلحاظ عوالم الخلقة، واليوم يُطلق على العروج وما يتعاقب من العوالم عقب الأخر، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾(١).

وقوله: ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾(٢)، وتقييد اليوم عند ربك إشارة إلى مقام القرب الإلٰهي لذلك العالم، فهو أيضاً يسير إلى قوس العروج في قبال النزول.

وقوله: ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾(٣).

وعلى ذلك تكون كلّ نشأة متأخرة هي بمثابة اليوم للنشأة المتقدّمة التي هي بمثابة الليل، باعتبار أنّ النشأة المتقدّمة بما تحتوي من أحوال وأحكام ووقائع تكون بمثابة التقادير والقضاء في التأثير على النشأة اللّاحقة، وكأنّما الآثار الحقيقيّة لكلّ نشأة إنّما تظهر في النشئات اللّاحقة والمتعقبة لها، فكلّ نشأة بمثابة السكن بالقياس إلى آثار النشأة اللّاحقة، واللّاحقة معاش وانبعاث عن ليل النشأة السابقة، ولعلّ إليه يشير الحديث النبوي: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»(٤).

فكأنّ دار الدنيا منام ليلي، والموت والآخرة انتباه ويقظة ويوم متعقّب، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(٥)،

(١) المعارج ٧٠: ٤.
(٢) الحجّ ٢٢: ٤٧.
(٣) السجدة ٣٢: ٥.
(٤) بحار الأنوار: ٤: ٤٢، الحديث ١٨.
(٥) العنبكوت ٢٩: ٦٤.

وكأنّما الحياة الدنيا كحياة الجنين في الرحم يبعث منها إلى الحياة الحقيقيّة وهي الآخرة، وكما في قول سيّد الشهداء الحسين بن عليّ عليه السلام: «الدنيا حلوها ومرّها حلم»[١]، أي أنّ الإدراك الموجود في هذه النشأة بالقياس إلى الإدراك الموجود في عالم الآخرة إدارك ضعيف، كما أنّ الوصول إلى الأشياء بحقائقها ليس متحقّقاً في هذه النشأة، بل الأشياء وجواهرها في النشأة اللاحقة أشدّ وجوداً وقوّة وكمالاً، والوصول إليها أتمّ وإدراكها أحدّ، وإلى كلّ ذلك الإشارة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٢].

فمن ثمّ يمكن تلخيص هذا المعاني بأنّ اليوم يستعمل في المشهد الأقوى والأتمّ الحافل بالأهميّة في قبال الليل، حيث يستعمل في الحال الممهّد والذي يُعدّ لما بعده. وعلى ضوء ذلك وعلى ما يقرّر من أنّ الجنّة والنار مخلوقتان بالفعل كما هو المأثور في روايتهم عليهم السلام، ويمكن أن يستظهر من بعض الآيات. بمقتضى ذلك كلّه يقدر أنّ نشأة يوم الدين قائمة بالفعل، إنّما الخلق يسيرون إليها بالانتقال من عالم ونشأة إلى أخرى، وهي نشأة من نشئات الملكوت، وبالتالي فيقرّر ما مرّ سابقاً من أنّ نشئات القرب الإلٰهي أشدّ مظهراً للولاية الإلٰهيّة وأكثر تجلّياً للمشيئة والإرادة الربّانيّة، أو لظهور الملك الإلٰهي.

﴿الدِّينِ﴾

في «تفسير القمّي» صحيحة أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال: «يوم الحساب، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَٰذَا

---

(١) بحار الأنوار: ١١: ١٥٠.

(٢) ق ٥٠: ٢٢.

يَوْمُ الدِّينِ ﴾[١] يعني يوم الحساب »[٢].

وقد مرّ رواية «الفقيه» أنّ يوم الدين يوم الحساب، وقد ورد الدين واستعماله في الآيات والسور، كما ذكر له اللغويّون معاني عدّة، وهي منطوية فيه بنحو ما، منها الحساب والجزاء والعادة والخضوع والانقياد قبال المقرّرات والتشريع، ودان نفسه: أي أذلّها واستعبدها ﴿ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾[٣]، أي غير مملوكين، وقيل: غير مجزيّين، ودان الرجل: إذا عزّ، أو إذا ذلّ، أو إذا أطاع، أو إذا أعطى، أو إذا اعتاد خيراً أو شرّاً، أو إذا أصابه الدَّين، والدِّين ـ بالكسر ـ اسم مصدر، والدَّين مصدر، ويقرب المعنى في المقام من قوله تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾[٤]، حيث تفسّر من جهة مآلي الأمور أنّها كلّها بيده تعالى، سواء فيما يقع في دار الدنيا أو صيرورة الأمور في العوالم الأخرى إليه تعالى، فلايخرج عن حاكميّته وسلطانه وقهره شيء، ومن ثمّ فالمعاد مظهر من مظاهر توحّده في القدرة والسلطان والحكم، لا سيّما وأنّ أصول الدين كلّ أصل منها مظهر من مظاهر التوحيد كما سيأتي بيانه في ذيل السورة، فإنّ المعاد توحيد لله في الغاية والمنتهى، كما هو توحيد في الحاكميّة والمالكيّة والقاهريّة والقدرة والسلطان، بل إنّ في هذه الآية إشارة إلى أحد براهين المعاد، وكذا نظيراتها من الآيات التي سبق الإشارة إليها، وهي أنّه ما دام أنّ القدرة والقيمومة هي لله تعالى، فلابدّ من كون الغاية هي العلّة الفاعليّة، فبداهة خالقيّة

---

(١) الصافّات ٣٧: ٢٠.

(٢) تفسير القمّي: ١: ٢٨.

(٣) الواقعة ٥٦: ٨٦.

(٤) التين ٩٥: ٧ و ٨.

الله تعالى وفيّاضيّته وقدرته تستلزم كونه الغاية ، أي تستلزم المعاد إليه .

وببيان آخر ، أنّ حاكميّته تعالى لها وجوه متعدّدة من سلطانه التكويني وقيوميّته ، ومن كونه مشرّعاً ، وعن كونه قاضياً تكويناً وتشريعاً ، وسائساً كذلك ، فثبوت هذه الصفات له تعالى بعينها تستلزم إطلاقها وعمومها ودوامها يستلزم الدين والهداية والحساب والمجازاة التكوينيّة بألوانها ودرجاتها بيده تعالى ، وكما يكون مفيض الكمال ومبدأ الفيوضات منه تكون غاية تكامل المخلوقات بالاقتراب من كماله بتوسّط تلك الفيوضات ، ومن ثمّ أُشير في سورة التين إلى وجه التصديق وعدم التكذيب بيوم الدين إلى أنّه تعالى أحكم الحاكمين ، وكذلك في سورة الفاتحة ، حيث أنّه أُضيف مالك إلى يوم الدين من إضافة الدليل إلى الدعوى ، وهي مالك إلى القول والمعتقد وهو يوم الدين ، فصفة مالك هي بنفسها برهان المعاد ، فمن يستبين ويتبيّن لديه إطلاق مالكيّة الله وحاكميّته وسيطرته وقدرته على كلّ المخلوقات والعباد ، يستبين لديه أنّه رقيب عليهم ، ولا يفلت من قدرته وسيطرته أحدٌ منهم بأيّ عمل من أعماله ، ومآل ونتائج أعمالهم وأحوالهم وصفاتهم إليه تعالى ، لأنّه لا يخرج عن سيطرته وقت من الأوقات ولا عالم من العوالم ، ولا أجل من الآجال ولا قدر من الأقدار .

وقد أُشير إلى هذا البرهان في سُور وآيات عديدة بألفاظ مختلفة ، وانطلاقاً من صفات وأسماء متعدّدة منشعبة من وصف واسم القدرة للتدليل على المعاد ويوم الحساب ، وصيغة هذا البرهان لمّيّة كما هو واضح ، بخلاف جملة من صياغات البراهين الأخرى التي اعتمدها الفلاسفة ممّا مشار إليها في الآيات والسور بالأحاديث انطلاقاً من الأعمال أو سير النفوس بأطوار وتكاملها ، فإنّها أشبه بالبراهين الإنّيّة .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

روى الطبرسي في «الاحتجاج» عن النبيّ ﷺ: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي واحداً، لا نقول كما قالت الدهريّة: إنّ الأشياء لا بدو لها، وهي دائمة، ولا كما قالت الثنويّة الذين قالوا: إنّ النور والظلمة هما المدبّران، ولا كما قال مشركو العرب: إنّ أوثاننا آلهة، فلا نشرك بك شيئاً، ولا ندعو من دونك إلـٰهاً، كما يقول هؤلاء الكفّار، ولا نقول كما تقول اليهود والنصارى: إنّ لك ولداً، تعاليت عن ذلك علوّاً كبيراً»(١).

وروي في «الفقيه» عن الفضل، عن الرضا عليه السلام: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ رغبة وتقرّبٌ إلى الله تعالى ذكره، وإخلاص له بالعمل دون غيره، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ استزادة من توفيقه وعبادته، واستدامة لما أنعم الله عليه ونصره»(٢).

وروى العيّاشي عن بعض أصحابنا، قال: «اجتمع أبو عبدالله عليه السلام مع رجل من القدريّة عند عبدالملك بن مروان، فقال القدري لأبي عبدالله عليه السلام: سل عمّا شئت.

فقال له: اقرأ سورة الحمد.

قال: فقرأها، فقال الأمويّ (وأنا معه): ما في سورة الحمد علينا، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، قال: فجعل القدريّ يقرأ سورة الحمد حتّى بلغ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فقال له جعفر: قف، مَن نستعين، وما حاجتك للمعونة؟! إنّ الأمر إليك، ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٣)»(٤).

---

(١) الاحتجاج: ١: ٢٥.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ١: ٣١٠، الحديث ٩٢٦.

(٣) البقرة ٢: ٢٥٨.

(٤) تفسير العيّاشي: ١: ٢٣، الحديث ٢٤.

وروي في «مجمع البيان»، قال: «قال رسول الله ﷺ: إنّ الله تعالى منّ عليّ بفاتحة الكتاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إخلاصاً للعبادة، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أفضل ما طلب به العباد حوائجهم»[١].

والعبادة في اللغة هي الذلّة والانقياد والخضوع والطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[٢]، وقيل هي أعلى مراتب الخضوع والتعظيم وضرب من الشكر على أُصول النعم.

وعن الراغب في مفرداته، قال: «إنّ العبوديّة إظهار التذلّل، والعبادة أبلغ منها لأنّها غاية التذلّل ولا يستحقّها إلّا مَن له الإفضال، وهو الله تعالى»[٣].

وهل العبوديّة في مقابل الربوبيّة أو مقابل الألوهيّة أو غيرهما كمقابلتها بالمولى ذي الولاية.

التوحيد في العبادة والاستعانة

ثمّ إنّ تقديم الضمير المفعول للفعل يفيد الحصر، وحينئذٍ فالآية مسوقة لحصر العبادة، وكلّ أنواعها لله تعالى، وكذلك حصر الاستعانة به بأنواع الاستعانات، إلّا أنّ الكلام يقع في كيفيّة الأنواع، العبادات والاستعانات، وقد يقال بأنّ هذه السورة بتضمّنها لهذه الآية من حصر العبادة بالله تعالى وهو توحيد العبادة وحصر الاستعانة لله، وهو توحيد الاستعانة، تعبير عن إتجاه الإسلام في رفض الوسطاء بين الله والإنسان، هؤلاء الوسطاء الذين أفتعلتهم المذاهب، فتعلّم

(١) مجمع البيان: ١: ٧٢.

(٢) يس ٣٦: ٦٠.

(٣) مفردات غريب القرآن: ٣١٣.

السورة البشر أن يرتبط بالله بدونما واسطة وتبلور هذا الارتباط الوثيق بين الله والإنسان وبين الخالق والمخلوق دونما واسطة، وإن كان نبيّاً مرسلاً أو ملكاً مقرّباً، ومن ثمّ صار لهذه السورة الصدارة في الكتاب العزيز، وهذا المضمون يحرّر الإنسان عن أيّ موجود من الموجودات ويربطه بالله وحده.

ولو تحرّك الإنسان في دائرة استنطاق الأسباب إنّما يتحرّك بدائرة أمر الله تعالى وهو مسبّب الأسباب.

والصحيح: أنّ العبادة لله تعالى هي على أنماط بقدر ما للعبادة من معاني، فمنها الطاعة والخضوع والانقياد والتذلّل والتأليه والتوجّه وغيرها، وهذه الأنماط منها ما قد فصّله الباري في كتابه، فجعل من بنود طاعته طاعة رسوله، فإنّ اقتران طاعة الله مع طاعة الرسول في موارد كثيرة عديدة للتأكيد على أنّ طاعة الله لا تنفكّ، بمعنى أنّ طاعة الله لا يمكن أن يتفرّد بها عبد من دون أن تقترن بطاعة الرسول ﷺ، فجعل الله تعالى طاعة رسوله طاعة له، فقال: ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ** ﴾(١).

ولذلك جعل طاعة أُولي الأمر مقرونة بطاعة الرسول وطاعته تعالى، فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾(٢)، فلا تتمّ طاعة الله تعالى إلّا باستكمال طاعة رسوله وأُولي الأمر.

فتوحيده تعالى بالطاعة وهي نمط من العبادة لا يتمّ إلّا بطاعة من نصبهم الله سفراء بينه وبين خلقه، بل لو تمرّد عاصٍ على طاعة الرسول وأُولي الأمر من أهل بيته، لمّا وحّد الله في الطاعة ولا كان موحّداً لله في هذا النمط من العبادة، وكذلك

---

(١) النساء ٤: ٨٠.

(٢) النساء ٤: ٥٩.

الحال في الانقياد والاتّباع، لأنّ الطاعة تتضمّنهما.

وكذلك الحال في التعظيم، فإنّه تعالى قد أمر بتعظيم رسوله وجعل تعظيمه من تعظيم الله، كما قال تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾**[2].

وغيرها من الآيات الدالّة على عظائم صفات النبيّ ﷺ، فمَن رفع صوته فوق صوت النبيّ ﷺ فقد حبط إيمانه، ومن صغّر قدر الرسول ﷺ واستهان بمقامه فقد تعدّى على ساحة الربوبيّة، والأمر الإلـهي بتعظيم الرسول ﷺ.

وكذلك الحال في ما ذكره القرآن الكريم من مدائح وفضائل دالّة على تعظيم أهل بيت النبيّ ﷺ، فلا يتمّ تعظيم الله عزّ وجلّ إلّا بتعظيم من عظّمه الله، فتعظيم الله الذي هو ضرب من العبادة لا يتمّ إلّا بتعظيم الله وتعظيم كلّ مَن ندب الله إلى تعظيمه، فتوحيد الله في هذا النمط من العبادة لا يتمّ إلّا في ذلك، فلا يمكن التفريق بين الله ورسله، كما يقول القرآن: **﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ﴾**[3].

وكذلك الحال في التوجّه إلى الله، فإنّه كما أمر الله بالتوجّه إليه كما في قوله على

---

(١) الحجرات ٤٩: ١ ـ ٣.

(٢) التوبة ٩: ١٢٨.

(٣) النساء ٤: ١٥٠.

لسان نبيّه إبراهيم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(٣). فإنّ التوجّه يعني الاتّجاه بالوجه والتواجه إلى وجه الله تعالى، وهذا التلازم ذاتي معنى التوجّه، فالمتوجّه ـ بالكسر ـ يتّجه إلى جهة المتوجّه ـ بالفتح ـ ويواجه وجهه.

وكذلك أمر الله بالتوجّه إلى نبيّه بغية التوجّه إليه، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾(٤)، فاشترط تعالى التوبة والإياب إليه بالتوجّه إلى رسوله، ومن ثمّ يحصل التوجّه إلى الله والاستغفار.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾(٥)، فذكر تعالى لزوم المجيء إلى رسول الله لحصول أوبتهم إلى الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾(٦)، فذكر تعالى أنّ الغاية من الأمر بالاتّجاه إلى قبلة بيت

---

(١) الأنعام ٦: ٧٩.

(٢) البقرة ٢: ١١٢.

(٣) الأنعام ٦: ٥٢.

(٤) النساء ٤: ٦٤.

(٥) المنافقون ٦٣: ٥.

(٦) البقرة ٢: ١٤٣.

المقدس ثلاث عشر سنة، الغاية من هذا التوجّه والعبادة هو طاعة الله وطاعة رسوله واتّباعه، لكي يعلم مَن يتمرّد على طاعة الرسول وينقلب على عقبيه، كما ورد نظير ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(١).

حيث أنذر الله تعالى من ينبذ طاعة الرسول بعد وفاته، ويقول: مَن كان يعبد محمّداً فمحمّد قد مات، ومَن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت، ففكّك بين طاعة الرسول وطاعة الله، ووصف حالة المسلمين عند وفاة الرسول من الانشداد والتعلّق الشديد برسول الله بأنّها عبادة للرسول، وهي عبادة طاعة وليس عبادة تأليه وعبادة حبّ، فكان ذلك التفكيك بين الطاعتين شعاراً استهلّ به تلك المسيرة، ولذلك ندب الله عزّ وجلّ بالتوجّه إلى أهل بيت النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿ قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِن أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾(٤)، فكانت مودّة أهل البيت والتوجّه إليهم سبيل إلى الله تعالى.

فهذه دعوى من القرآن إلى مودّة أهل البيت عليهم السلام وولايتهم، وأنّه بالتوجّه إليهم هو اتّخاذ سبيل إلى الله تعالى، والتوجّه نمط من العبادة فلايتمّ توحيد الله تعالى

---

(١) آل عمران ٣: ١٤٤.

(٢) الشورى ٤٣: ٢٣.

(٣) سبأ ٣٤: ٤٧.

(٤) الفرقان ٢٥: ٥٧.

في هذا النمط من العبادة إلّا بالتوجّه إلى النبيّ ﷺ وأهل بيته ، لأنّهم الأبواب التي نصبهم الله لعباده ، كما مرّ في الآيات.

ويشير إلى ذلك كلّه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾(١).

وكذلك في العبادة (بمعنى التولّي لصاحب الولاية) ، فإنّه تعالى قد بيّن أنّ ولايته تعالى تنشعب وتتنزّل إلى ولاية رسوله وأوصيائه من أهل بيته عليهم السلام ، وحصر هذه الولاية بهم ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾(٢) ، فتوحيد الله في الولاية التي هي ضرب من العبادة لا يتمّ إلّا بتولّي الله ورسوله وأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وولده الطاهرين.

ولا يخفى أنّ هذه الضروب من العبادة وتوحيد الله فيها من الطاعة والانقياد والتعظيم والتوجّه والتولّي إنّما هي ثابتة بالذات لله تعالى ، وثابتة بالتّبع لرسول الله ﷺ في المرتبة الثانية ، وثابتة لأوصيائه من أهل بيته في المرتبة الثالثة ، وهذا الثبوت له ولأهل بيته كأبواب وآيات إلـٰهيّة ، وسبل إليه تعالى ، وليسوا أنداداً من دونه تعالى ، لأنّ الندّ ومَن يكون من دون الله هو الذي يصدّ عن سبيل الله ويكون جبتاً أو طاغوتاً ، وأمّا من يصفه الله تعالى بأنّه باب رحمته وسبيلاً إليه ، كما مرّ في الآيات السابقة ، فهؤلاء هم وجه الله والسبيل إليه ، وصراط هدايته ، والأدلّاء عليه ، والهادين إلى رضوانه ، وهم الذين يسوقون عباده إلى عبادته.

---

(١) الأعراف ٧: ٤٠.

(٢) المائدة ٥: ٥٥ و ٥٦.

وأمّا العبادة بمعنى التأليه والربوبيّة والخضوع الخاصّ للخالق المستحقّ لأُصول النعم بالذات ، فهي خاصّة به تعالى ، وإن كانت كيفيّتها بدلالة هداية النبيّ وأهل بيته ، وبطاعتهم في كيفيّة الخضوع لله تعالى.

وعلى ضوء ذلك يتبيّن أنّ الدين الحنيف ليس قائماً على نفي الوسائط وعلى نفي الارتباط بها ، بل هو قائم على إقامة تلك الوسائط ، كآيات ودلالات وأبواب منها يتّجه إلى الساحة الربوبيّة ، وأنّ بدونها لا تفتّح أبواب السماء ، وأنّها الأسماء الإلٰهيّة التي يدعى بها الباري تعالى ، كما مرّت الإشارة إلى ذلك في البسملة ، والمقالة السابقة قد حصل فيها الخلط بين الوسائط التي تصدّ عن سبيل الله من الجبت والطاغوت ، والوسائط التي هي طرق إلى الله والآيات الدالّة على رضوانه ونعيمه.

فخلطوا بين أبواب الجحيم وأبواب الجنان ، وبين الصراط المستقيم وصراط الجحيم ، وإلّا كيف ينفي الصراط وهو من ضروريّات الدين.

ثمّ إنّ الحال في التوحيد في الاستعانة بالله تعالى ، كما مرّ في التوحيد في العبادة ، وحصرهما به تعالى أي أنّ المراد منها أنّ المستحقّ للعبادة بكلّ معانيها بالذات هو الباري تعالى ، وأمّا غيره تعالى فتثبت له بعض المعاني كالطاعة والاتّباع والتولّي بالتبع . ولا ينافي ذلك التوحيد بعدما كانت تلك الموارد أبواباً وطرقاً إليه تعالى ، فكلّها مظاهر توحيد الله في العبادة ، في قبال الموارد التي تصدّ عن سبيل الله وعن التأدية إليه.

كذلك الحال في التوحيد في الاستعانة ، فإنّ العون منه تعالى بالذات ، وهو الغنيّ المطلق وغيره فقير إليه تعالى مهما تعاظم خلقه ، ولكن بتبع الله تعالى وإغنائه وإقداره للمكرّمين تكون الاستعانة بهم بالتّبع هي من مظاهر الاستعانة به

تعالى، وتوحيده بالاستعانة في قبال الاستعانة واللواذ بأعدائه تعالى، ومن لم يأذن، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾[١].

وكقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَاآتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾[٢].

وكقوله تعالى في شأن يوسف ويعقوب: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً ﴾[٣].

وكقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤].

والاستعانة نحو من التولّي والولاية، ومن ثمّ فسّرت الولاية بالنصرة والمحبّة في بعض معانيها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾[٦].

فيبيّن الله تعالى من خلال هاتين الآيتين أنّ من يجوز تولّيه واتّخاذه وليّاً يسوغ استنصاره والاستعانة به بحدود ما جعل الله له من ولاية، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[٧]، والتي قد نزلت

---

(١) التوبة ٩: ٧٤.

(٢) التوبة ٩: ٥٩.

(٣) يوسف ١٢: ٩٣.

(٤) الأنفال ٨: ٦٢.

(٥) هود ١١: ١١٣.

(٦) الأنفال ٨: ٧٢.

(٧) المائدة ٥: ٥٥ و ٥٦.

في عليّ بن أبي طالب.

فمن نهى تعالى عن ولايته وتولّيه ينهى عن الاستعانة والاستنصار به، كقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾(١).

فهؤلاء الذين في قلوبهم مرض كانوا يجعلون ولاءهم السياسي لليهود والنصارى بغية الاستنصار والاستعانة والاستغاثة بهم إذا تصدّع كيان المسلمين، فمن ثمّ الآيات تزجرهم عن ذلك، وتبيّن أنّ مركز الولاء والتولّي هو لله، ومن بعده للرسول، ومن بعده لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأنّ الله ورسوله ووصيّه هم الذين يحتمى بهم ويستنصر بهم ويستغاث ويلاذ بهم، لأنّ الرسول صلى الله عليه وآله ووصيّه عليه السلام أبواب الله التي يلتجأ إليها، وهو التجاء إلى الله تعالى، فأبواب الاستعانة بالله كما بيّنها الله تعالى، وهي من توحيده في الإستعانة لها مظاهر متعدّدة.

وكقوله تعالى في الطرف الآخر: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾(٢)، أي أنّ تولّي أولياء من دون الله ومن دون من أمر الله بولايتهم هو استعانة واستنصار بمن لا يضرّ ولا ينفع، وهو خلاف توحيد الله تعالى في الاستعانة.

وكذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾(٣)،

---

(١) المائدة ٥١ و ٥٢.

(٢) يس ٣٦: ٧٤ و ٧٥.

(٣) الدخان ٤٤: ٤١.

فبيّنت أنّ من مقتضيات التولّي والولاية الاستنصار والاستعانة، إلّا أنّ ولاية الباطل لا توجب نفعاً ولا تركها يوجب ضرراً بخلاف ولاية الحقّ.

وكقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ (١)، والآية في سياق آيات قبلها: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَالَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ (٢).

وقد مرّ أنّ المراد بـ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ كلّ شيء يصدّ عن سبيل الله من الجبت والطاغوت من البشر أو الحجر، وهذا بخلاف ما يكون سبيلاً إلى الله ودالّاً وهادياً إليه تعالى، وأمر بتولّيه ووصاله والمسارعة فيه، لأنّه يؤدّي إلى الله تعالى، فلا يكون من الله بل سبيلٌ إليه وباب إلى رحمته وصراط إلى جنانه، ومن ثمّ كان أئمّة أهل البيت يدعون إلى الجنّة وأئمّة الضلال يدعون إلى النار، فقال تعالى عن النمطين:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٣).

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ (٤).

وعن مَن هو دون الله قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (٥).

---

(١) الأعراف ٧: ١٩٧.

(٢) الأعراف ٧: ١٩١ و ١٩٢.

(٣) السجدة ٣٢: ٢٤.

(٤) الأنبياء ٢١: ٧٣.

(٥) القصص ٢٨: ٤١.

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

القراءات[١] حكى في «الكشّاف» عن عليّ وأُبيّ ﴿ اهْدِنَا ﴾ (ثبّتنا ـ وقرأ عبدالله ـ أرشدنا)[٢] انتهى.

والظاهر أنّها ليست قراءة بل هي تفسير.

وفي «الدرّ المنثور»: عن ابن عبّاس، أنّه قال: «اهدنا السراط المستقيم، وكذلك عن عبدالله بن كثير، وعن الفرّاء قال: قرأ حمزة: زراط، قال الفرّاء: الزراط ـ لغةً ـ لعذرة وكلب وبني عين»[٣]، وهذه ليست من القراءات التي يعوّل عليها، وذكر في «التبيان» أنّه في ما روي عن أهل البيت عليهم السلام قراءة صراط من أنعمت عليهم، وذكره عن غيرهم أيضاً[٤].

وقد ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام روايات مستفيضة في تفسير الصراط

---

(١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ٤٠: «قرأ ابن كثير في رواية ابن مجاهد عن قنبر والكسائي من طريق ابن خلدون، ويعقوب من طريق روي وكذلك في «صراط» في جميع القرآن. الباقون بـ(ص) وأشمّ الـ(ص) (ز) في الموضعين، خاصّة في رواية عليّ بن سالم، وفي رواية الدوري وخلّاد إشمامها (الزاي) ما كان فيها (ألف ولام) وأمّا (الصاد) إذا سكنت وكان بعدها (دال) نحو (يصدر)، (فاصدع)، (يصدفون) فأشمّ (الصاد) الزاي، حيث وقع، حمزة والكسائي وخلف ورويس.

وفي مجمع البيان: ١٣٠: ذكر السين في الصراط.

(٢) تفسير الكشّاف: ١: ٦٧.

(٣) الدرّ المنثور: ١: ١٤.

(٤) تفسير التبيان: ١: ٤٣.

بولايتهم عليهم السلام ، ففي «معاني الأخبار» بإسناده إلى جعفر بن محمّد عليهما السلام ، قال: «قول الله عزّ وجلّ في الحمد ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني محمّداً وذرّيّته عليهم السلام»[١].

كذا في «معاني الأخبار»: «أنّ الصراط المستقيم أمير المؤمنين»[٢].

وفي «معاني الأخبار» عن تفسير العسكري عليه السلام في قوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، قال: «أدِم لنا توفيقك الذي به أطعناك في ماضي أيّامنا حتّى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا ، والصراط المستقيم هو صراطان: صراط في الدنيا ، وصراط في الآخرة.

فأمّا الطريق المستقيم في الدنيا فهو ما قصر عن الغلوّ ، وارتفع عن التقصير واستقام ، فلم يعدل إلى شيء من الباطل ، وأمّا طريق الآخرة طريق المؤمنين إلى الجنّة الذي هو مستقيم ، لا يعدلون عن الجنّة إلى النار ولا إلى غير النار سوى الجنّة»[٣].

وفي «معاني الأخبار» وصحيح ثابت الثمالي عن سيّد العابدين عليّ بن الحسين عليهما السلام : «نحن أبواب الله ، ونحن الصراط المستقيم»[٤].

وفي «تفسير عليّ بن إبراهيم»: عن أبي بصير ، عن أبي عبدالله عليه السلام : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال: «الطريق معرفة الإمام»[٥].

وفيه أيضاً صحيح حمّاد: عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله: ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال: هو أمير المؤمنين عليه السلام ومعرفته ، والدليل على أنّه أمير المؤمنين قوله: ﴿ وَإِنَّهُ فِي

---

(١) معاني الأخبار: ٣٢ ـ ٣٦ ، الحديث ٧.

(٢) معاني الأخبار: ٣٢ ، الحديث ٢.

(٣) معاني الأخبار: ٣٣ ، الحديث ١.

(٤) معاني الأخبار: ٣٦ ، الحديث ٥.

(٥) تفسير القمّي: ١: ٢٨.

أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[١]، وهو أمير المؤمنين عليه السلام في أمّ الكتاب والصراط المستقيم»[٢]، وذيل الرواية الظاهر أنّه من كلام القمّي باعتبار أنّ أحد أسماء الفاتحة هو أمّ الكتاب.

وفي «تفسير فرات الكوفي»: بسنده عن محمّد بن الحسين، عن أبيه، عن جدّه، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله عزّ وجلّ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾: دين الله الذي نزل به جبرئيل على محمّد صلى الله عليه وآله ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ ﴾ شيعة عليّ الذين أنعمت عليهم بولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام لم تغضب عليهم ولم يضلّوا»[٣].

وروى الصدوق في «إكمال الدين»: عن أبي جعفر عليه السلام: «... ونحن الطريق الواضح، والصراط المستقيم إلى الله عزّ وجلّ، ونحن من نعمة الله على خلقه»[٤].

بيان: وما في الروايات من تعدّد تفسير الصراط متطابق في المآل لأنّ تفسيره بدين الله ينطبق أيضاً على ولاية النبيّ وأهل بيته، لأنّ أُسس الدين في قول تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[٥]، ومفاد الآية جملة الدين كلّه، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ... ﴾[٦]، ومن ثمّ ينطبق على معرفة عليّ وولايته عليه السلام.

---

(١) الزخرف ٤٣: ٤.

(٢) تفسير القمّي: ١: ٢٨.

(٣) تفسير فرات: ٥٢، الحديث ١٠.

(٤) إكمال الدين: ٢٠٦، الحديث ٢٠.

(٥) النساء ٤: ٥٩.

(٦) المائدة ٥: ٥٥.

وهاهنا جملة من المحاور التي لا بدّ من التعرّض لها، وهي الهداية والصراط والذين أُنعم عليهم.

وتقريب المعنى إجمالاً أنّ سورة الفاتحة وهي أمّ الكتاب قد مرّ أنّها عِدل القرآن كلّه فيما منّ الله عزّ وجلّ على نبيّه بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (١).

وقد مرّ أيضاً في الروايات أنّ من فضائل هذه السورة أنّ القرآن جمع فيه كلّه، وعلى ضوء ذلك فلابدّ أن تكون أُصول الدين قد بيّنت فيها برمّتها، وقد مرّ أيضاً في صدر السورة بيان مقامات التوحيد والصفات والمعاد، وأمّا النبوّة فقد مرّ في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أنّ توحيد العبادة والتوحيد في الاستعانة لا يتمّ إلّا بالإقرار بطاعة وولاية الرسول ﷺ واتّباعه والانقياد والتسليم إليه وتعظيمه والتوجّه إليه وبه إلى الله، إذ لا تقبل الطاعة والعبادة إلّا بدلالة وهداية الرسول ﷺ فيما أتى به عن الله من تشريعات وفرائض وسنن، ورغم أنّ ظاهر الإسلام يتمّ بذلك لم تكتف بمجرّد ذلك، بل بيّنت أنّ طريق النجاة في الآخرة مرهون ومتوقّف على ما يزيد على ذلك، وهو الاهتداء بسلوك الصراط المستقيم اهتداءاً بثلّة وصفهم الله بثلاث صفات: الأولى أنّهم منعم عليهم، والثانية أنّهم لم يغضب الله عليهم، والثالثة أنّه لم يضلّهم.

وبذلك تبيّن السورة أنّ في هذا الدين هناك ثلّة هداة لا بدّ من اتّباعهم والائتمام بهم كي يفوز المسلمون بالنجاة في الآخرة، وبهذا المفاد للسورة بيان يفيد أنّ الدين لا يقتصر على ظاهر الإسلام من الشهادتين، بل هناك درجة من الدين أعمق، وهي الهداية باتّباع الهادين من هذه الأمّة، وهم الأئمّة عليهم السلام، لأنّ من أركان

---

(١) الحجر ١٥: ٨٧.

معنى الإمامة في اللغة الهداية، فإنّ المأموم يتبع الإمام ويقتدي به، فتبيّن السورة حقيقة هامّة وهي أنّ هناك درجتان في التديّن بالدين الحنيف:

الأولى: ما يتمّ به انتحال النسبة بالإسلام من الإقرار بالتوحيد والنبوّة والمعاد.

والثانية: هي درجة الإيمان الحاصلة من الاهتداء والاقتداء والتولّي بالهداة الذين أنعم الله عليهم، وهذا تعليم لكلّ مسلم إذا قرأ هذه السورة المباركة في صلوات يومه عشر مرّات أو أكثر، أن يفحص عن طريق الهداية والنجاة، ولا يكتفي بظاهر الإقرار باللسان، لتصدق عليه نِحلة الإسلام، بل لا بدّ أن يسعى لينتهج نهج الإيمان.

وهذا تأكيد في أعظم سورة في الكتاب العزيز على خطورة الاهتداء باتّباع الهداة (أي تولّي أئمّة دعاة إلى الرضوان)، ومن ثمّ يتبيّن مدى خطورة الإمامة في أُصول الاعتقاد الإيمانيّة.

الهداية عنوان للإمامة

ثمّ إنّ عنوان الهداية قد قرن في آيات وسور عديدة بالإشارة للإمامة، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ مَن لَا يَهِدِّي**﴾ (٢).

فتشير الآية إلى أنّ الهادي الذي يستحقّ الاتّباع هو الذي تكون هدايته من ذاته من لدن الله تعالى، والاتّباع هو عبارة أُخرى عن الائتمام، ومن ثمّ مرّ أنّ الهداية من المعاني الذاتيّة لمعنى الإمامة.

---

(١) الرعد ١٣: ٧.

(٢) يونس ١٠: ٣٥.

وكذا قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾[١].

وتبيّن الآية أنّ المغفرة والنجاة مشروطة بالهداية زيادة على أصل الإيمان والعمل الصالح، وهي تتطابق مع مفاد الذي مرّت الإشارة إليه من هذه السورة.

﴿ الصِّرَاطَ ﴾

الملاحظ في الروايات الواردة عنهم عليهم السلام أنّ جُلّها يفسّر ﴿ الصِّرَاطَ ﴾ بالنبيّ وأهل بيته الأئمّة عليهم السلام، ويفسّر ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ بمن أقرّ بولايتهم وطاعتهم، فمضافاً إلى ما مرّ في الروايات فقد روي في «تفسير العسكري عليه السلام».

ورواه في «معاني الأخبار» أيضاً عنه الشيخ الصدوق رحمه الله، قال الإمام عليه السلام: «صراط الذين أنعمت عليهم» أي قولوا: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك، وهم الذين قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً ﴾[٢].

وحكي هذا بعينه عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: ثمّ قال: «ليس هؤلاء المنعم عليهم بالمال وصحّة البدن، وإن كان كلّ هذا نعمة من الله ظاهرة. ألا ترون أنّ هؤلاء قد يكونون كفّاراً أو فسّاقاً، فما ندبتم إلى أن تدعوا بأن ترشدوا إلى صراطهم، وإنّما أمرتم بالدعاء بأن تُرشدوا إلى صراط الذين أنعم الله عليهم بالإيمان بالله والتصديق برسوله وبالولاية لمحمّد وآله الطيّبين»[٣].

---

(١) طه ٢٠: ٨٢.

(٢) النساء ٤: ٦٩.

(٣) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ٤٧ و ٤٨. معاني الأخبار: ٣٦ و ٣٧، الحديث ٩.

وفي الرواية إشارة إلى أنّ ما في الآية من سورة النساء تطابق مع ما في ذيل سورة الفاتحة من أنّ النعمة المنعم بها عليهم هي طاعة الله وطاعة الرسول، وأنّ بطاعة الله وطاعة سيّد الرسل أُنعم على جميع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وهذا مقام عظيم لسيّد الأنبياء، لا سيّما وأنّ لفظ ﴿ النَّبِيِّينَ ﴾ في آية النساء محلّى بـ(ال) وبصيغة الجمع، ويفيد العموم والاستغراق، وأنّ ذلك هو الموجب لرضا الله عليهم، وأنّ ذلك هو رأس الهداية لديهم، فضلاً عن الصدّيقين والشهداء والصالحين.

وهذا المعنى يتطابق مع ما في آية آل عمران: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾(١)، وسيأتي بيان لطائف هذه الآية في موضعه.

وجُلّ الروايات الواردة في تفسير من أنعمت عليهم هي في من آمن بالله وصدّق الرسول وصدّق بالولاية ولأهل بيته عليهم السلام، وفي بعضها بلفظ شيعة عليّ عليه السلام.

نعم، في ثلاث روايات يستظهر منها أنّ الذين أنعمت عليهم هم أهل البيت عليهم السلام، وإن كانت غير آبية عن التأويل والحمل على مفاد سائر الروايات من كون الصراط هو ولاية الله ورسوله وأهل بيته، والذين أنعم عليهم هم الذين أقرّوا بولايتهم.

منها ما رواه الكراجكي بسنده عن الفضيل بن يسار، عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

---

(١) آل عمران ٣: ٨١.

«تلا هذه الآية ـ وهو ينظر إلى الناس ـ: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١]، قال: يعني والله علياً والأوصياء عليهم السلام»[٢]، وهي وإن احتملت تفسير من يمشي سوياً، ولكن محتملة أيضاً لتفسير الصراط المستقيم.

وكذا ما رواه الصدوق في «معاني الأخبار»: بإسناده إلى جعفر بن محمّد عليهما السلام، قال: «قول الله عزّ وجلّ في الحمد ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني محمّداً وذرّيّته عليهم السلام»[٣].

وهذا وإن كان ينسبق إلى تفسير ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، ولكنّه لا يأبى أن يكون تفسيراً للصراط.

وروى الكراجكي أيضاً: بسنده عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٤]، قال: «هو أمير المؤمنين عليه السلام يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم»[٥].

وهذه وإن كانت أظهر الثلاثة، إلّا أنّها أيضاً لا دلالة فيها على كون الذين أنعم عليهم هم أهل البيت عليهم السلام وأنّ الصراط غيرهم، إلّا بنحو التلازم، وعلى أيّ تقدير يستخلص من مجموع الروايات بما تتضمّن من الإشارة إلى مجموعة ومنظومة من الآيات المتعرّضة إلى الصراط المستقيم وإلى سبيل الله وسبله، كما يأتي

---

(١) المُلك ٦٧: ٢٢.

(٢) كنز الفوائد للكراجكي: ١٨١. بحار الأنوار: ٢٤: ٢٢.

(٣) معاني الأخبار: ٣٦، الحديث ٣.

(٤) النحل ١٦: ٧٦.

(٥) عن الكراجكي، بحار الأنوار: ٢٤: ٢٤.

البحث عنها أنّ النبيّ وأهل بيته عليهم السلام هم الصراط الأقوم، والسبيل الأعظم إلى الله تعالى، بل وأنّ الصراط بقرينة أنّه طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة أُولي الأمر من أهل بيته، وهو ولاية الله وولاية الرسول وولاية أهل البيت، فهو على مراتب ودرجات، ومنه يظهر أنّه بمقتضى سؤدد خاتم النبيّين على جميع الأنبياء، فيكون هو الصراط لهم، وأنّ طاعته وولايته منهاجٌ وسبيلٌ لهم، كما مرّ في آية النساء.

وحيث أنّ ولاية أهل بيته تتبع ولايته صلى الله عليه وآله، كما في آية الولاية[١] وآية الطاعة[٢]، فهم يتّبعون رسول الله في الرتبة، ومن ثمّ يصحّ أن يقال: إنّ أهل البيت عليهم السلام هم الصراط، وهم على صراط الله ورسوله، كما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله على صراط الله، أي على طاعة الله وولايته، ومن ثمّ يتوجّه تفسير دعاء النبيّ وأهل البيت عند قراءته هذه الآية، ومن هذا المقطع من السورة يتبيّن وجود هداة لهذه الأُمّة في كلّ زمن إلى يوم القيامة يهدون الأُمّة إلى النجاة، وأنّ هدايتهم عاصمة من الضلال، كما أنّها عاصمة من السخط الإلٰهي، ولا محالة يكون هؤلاء الهداة هم معصومين في جانب العلم وفي جانب العمل.

فالآيتان من آخر سورة الحمد تؤكّدان على أصل الإمامة، وأنّ الإمام الهادي هو الصراط الذي نصبه الله لهذه الأُمّة ولكلّ جيل منها في كلّ زمان يهتدون بهديه وسيرته ونهجه وطريقته إلى سلوك الصراط المستقيم، ومن ثمّ ورد في الروايات تفسير الصراط المستقيم هو معرفة الإمام، وهي في كلّ زمان.

فسورة الفاتحة تؤكّد على أنّ في كلّ زمن إذا ابتليت الأُمّة بالفتن والمنعطفات

---

(١) ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ المائدة ٥: ٥٥.

(٢) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ النساء ٤: ٥٩.

الخطيرة من وجود هادي لهذه الأُمّة إلى صراط الله وسبيله، ومن ثمّ تكون هذه السورة المباركة تحثّ عموم المسلمين على البحث والفحص عن معرفة ذلك الإمام كي يعتصموا بالتمسّك به وبـاتّباعه عـن الوقـوع فـي الغـضب والسـخط الإلـهيّ، وعن الوقوع في الضلال كي يُحبَوا بنعمة الهداية الإلـهيّة، فمفاد الآيتين دالّ على أن لا تخلو الأرض من حجّة إلى يوم القيامة.

وإذا كان هذا الأصل بهذا المثابة من الخطورة، فلامحالة تدلّ الآيتان على كونه من أصول الاعتقاد الإيمانيّة لِما هو مقرّر من أنّ النجاة هـو بـالإيمان لا بـصرف الإقرار بالإسلام لساناً.

ثمّ إنّه قد ورد الصراط في جملة من الآيات الأخرى، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾[٤] (وفي قراءة أهل البيت عليهم السلام لفظ عليّ ليس حرف جرّ وضمير متكلّم) بل اسم علم لابن أبي طالب عليه السلام[٥].

---

(١) الأنعام ٦: ١٦١.

(٢) هود ١١: ٥٦.

(٣) إبراهيم ١٤: ١.

(٤) الحجر ١٥: ٤١.

(٥) بحار الأنوار: ٢٤: ١٥، عن تفسير فرات الكوفي، وأيضاً الكراجكي في كنز الفوائد، والعيّاشي، وقد ذكر في معجم القراءات، قراءة جملة من القرّاء الكثيرين عليٌّ -بالضمّ- معجم القراءات القرآنيّة: ٣: ٢٥٤.

وقوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[٤].

وهذه صفات متعدّدة للصراط، تارة يقسم إلى الصراط المستقيم وإلى صراط الجحيم، وأُخرى يضاف إلى الباري تعالى، وثالثة يوصف بالسويّ، ورابعة يفسّر بالدين القيّم، وخامسة يضاف الصراط إلى عليّ عليه السلام، كما أنّه في مجمل الآيات توصيفه بأنّه الطريق الذي يؤدّي إلى الله تعالى، وأنّ مصير الأمور إليه تعالى.

وأمّا صلة الصراط بسبيل الله، لا سيّما وأنّ السبيل أُضيف إليه كما أُضيف الصراط إليه، وأنّ السبيل يؤدّي إلى الله تعالى كما أنّ الصراط يؤدّي إليه، ففي جملة من الآيات كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾[٦].

---

(١) طه ٢٠: ١٣٥.

(٢) الحجّ ٢٢: ٢٤.

(٣) الصافّات ٣٧: ٢٢ و ٢٣.

(٤) الشورى ٤٢: ٥٢ و ٥٣.

(٥) العنكبوت ٢٩: ٦٩.

(٦) إبراهيم ١٤: ١٢.

وقوله تعالى في وصف الرسول: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُم سَيِّآتِهِمْ﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥).

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾ (٦).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (٧)، وهذه الآية بضميمة ما ورد من قوله تعالى: ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (٨)، فتكون الآيتان ناصّتين على أنّ السبيل إلى الله مودّة قربى النبيّ ﷺ وولايتهم.

---

(١) المائدة ٥: ١٦.

(٢) الأنعام ٦: ١٥٣.

(٣) يوسف ١٢: ١٠٨.

(٤) آل عمران ٣: ١٩٥.

(٥) الأنعام ٦: ١١٧. النمل ٢٧: ١٢٥.

(٦) الفرقان ٢٥: ٢٧ و ٢٨.

(٧) الفرقان ٢٥: ٥٧.

(٨) الشورى ٤٣: ٢٣.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (١)، وظاهر هذه الآية أنّ هناك سبيلين:

١ ـ سبيل الشاكرين، وهو إلى الجنّة.

٢ ـ سبيل الكافرين، وهو إلى النار.

ومثلها قوله تعالى: ﴿مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ (٢)، ومقتضى هذه الآية والسابقة عليها أنّ معرفة الله وولايته ومعرفة الرسول وولايته وولاية قربى الرسول أهل بيته عليهم السلام مركوزة في فطرة الإنسان.

وقوله تعالى في شأن مؤمن آل فرعون (حزقيل): ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ (٥)، وظاهر هذه الآية وصف سبيل الله بالاستقامة، كما وصف الصراط بالاستقامة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٦).

---

(١) الإنسان ٧٦: ٣.

(٢) عبس ٨٠: ١٩ و ٢٠.

(٣) غافر ٤٠: ٣٨.

(٤) النحل ١٦: ٩.

(٥) إبراهيم ١٤: ٣.

(٦) هود ١١: ١٩.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾(٢)، وفي هذه الآية دلالة على أنّ مجرّد الإقرار بالشهادتين لساناً من دون اتّباع سبيل المؤمنين لا يضمن النجاة في الآخرة، وأنّ من شرائط النجاة في الآخرة اتّباع سبيل المؤمنين، ولا يمكن أن يكون هذا الشرط من أحكام الفروع، بل لا بدّ أن يكون من الأركان وأصول الإيمان، وهذا ما مرّ استفادته من الآيتين الأخيرتين من هذه السورة.

وقد مرّ أنّ مودّة قربى النبيّ ﷺ هي السبيل إلى الله تعالى، فسمّاهم في آية النساء بالمؤمنين، كما سمّاهم مرّة أُخرى بالمؤمنين في قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾(٣)، والقرينة على إرادة أهل البيت عليهم السلام من آية رؤية الأعمال، وأنّهم شاهدون لأعمال العباد، ما ورد في آخر سورة الحجّ من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾(٤)، فبيّنت الآية أنّ الشهداء على الناس هم من ذرّيّة إبراهيم عليه السلام، وهم الذين سمّاهم المسلمين في دعوته في سورة البقرة

---

(١) يونس ١٠: ٨٩.

(٢) النساء ٤: ١١٥.

(٣) التوبة ٩: ١٠٥.

(٤) الحجّ ٢٥: ٧٧ و ٧٨.

بأن يكون من ذرّيّته أمّة مسلمة[١] وهي التي دعا لها بأن تكون الإمامة فيها[٢]، فالشهداء على أعمال الناس سمّاهم بالمؤمنين، والمراد بذلك ليس عموم المؤمنين، بل أئمّة المؤمنين من قربى النبيّ ﷺ الذين هم محلّ دعوة النبيّ إبراهيم في ذرّيّته.

وكقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾[٤].

فيلاحظ أنّ السبيل قد ورد بأوصاف متعدّدة، منها ما في الآية ٦٩ من سورة العنكبوت المتقدّمة أنّ للهداية سبل لا سبيل واحد، وكذلك ما في سورة إبراهيم، وكذلك ما في آية المائدة.

نعم، قد يفرد السبيل إليه تعالى في مقابل السبل التي لا تؤدّي إليه، كما في آية الأنعام، والملاحظ أنّه إذا أضيفت الذات الإلهيّة بالضمير المفرد، أفرد السبيل، وإذا أضيفت إلى ضمير الجمع (الذي قد يفسّر بالتعظيم، وقد يفسّر بالجنود الإلهيّة) تكون بصيغة الكثرة، ولا يخفى المناسبة حينئذٍ من كون كلّ جند إلهي باب إليه تعالى، كما أنّ ما في سورة إبراهيم من إضافة كثرة السُّبل إلى المؤمنين قد يفيد ما اشتهر من أنّ الطرق على عدد أنفاس الخلائق، ولكنّ المراد حينئذٍ

---

(١) ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ البقرة ٢: ١٢٨.

(٢) ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة ٢: ١٢٤.

(٣) الأنعام ٦: ٥٥.

(٤) النساء ٤: ٧٦.

ليس ما يبني عليه بعض الصوفيّة من أنّ عابد الوثن سبيله ذلك، بل ظاهر الآية في وصف المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله والمعاد ودين الإسلام؛ أنّ هؤلاء لكلّ منهم سبيل، وتكثّر السبل بتكثّر الجنود المقرّبين إليه تعالى هو الظاهر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾(١)، فإنّه وصف ارتباط بين الآيات والحجج الإلٰهيّة وأبواب السماء وأنّ للسماء الإلٰهيّة أبواب.

كما أنّ السبيل قد يضاف إليه تعالى، وقد أُضيف إلى السلام، والظاهر أنّ المراد منه دار السلام، وتارة أُضيف إلى ضمير الغائب العائدة إلى الذات الإلٰهيّة، ورابعة أُضيف إلى النبيّ ﷺ، وخامسة وصف السبيل بالمعيّة للرسول ﷺ، كما أنّ السبيل أُطلق على الفطرة الإلٰهيّة المودعة في الإنسان، الهادية له إلى طريق الفلاح، كما في آية الدهر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾(٢)، كما أنّ في تلك الآية أُطلق على غرائز الشهوة ونحوها أنّها سبيل وهداية إلى الدركات، نظير قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(٣)، وفي آية عبس أيضاً بيّن أنّ سبيل الهداية مركوز في فطرة الإنسان ﴿مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾(٤)، ومن هنا يظهر من مجموع النمطين من الآيات نوع ارتباط بين الفطرة الروحيّة والقلبيّة كسبيل هادٍ، ومن الرسول وأهل بيته كسبيل هاد إلى الله تعالى كما مرّ

(١) الأعراف ٧: ٤٠.

(٢) الإنسان ٧٦: ٣.

(٣) البلد ٩٠: ١٠.

(٤) عبس ٨٠: ١٩ و ٢٠.

إطلاق السبيل على مودّة أهل البيت عليهم السلام ، أي أنّ هداية الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته للمؤمنين لا تقتصر على السنن الظاهرة ، بل تتّصل بسلوك الروح منازل الكمال.

ثمّ عُرّفت الهداية بالإمامة والإمام في بُعدها الملكوتي ، بأنّه رائد وهادي النفوس إلى المنازل المعنويّة ، وبذلك يفسّر قولهم عليهم السلام : « نور الإمام في قلوب المؤمنين أضوء من الشمس المضيئة بالنهار ، وهم والله ينوّرون قلوب المؤمنين ، ويحجب الله عزّ وجلّ نورهم عمّن يشاء فتظلمّ قلوبهم .

والله يا أبا خالد ، لا يحبّنا عبد ويتولّانا حتّى يطهّر الله قلبه ، ولا يطهّر الله قلب عبد حتّى يسلّم لنا ويكون سلَماً لنا ، فإذا كان سلماً لنا سلّمه الله من شديد الحساب ، وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر »[١].

وإلى ذلك أُشير إلى ارتباطٍ بين الفطرة العقليّة في الإنسان (أي العقل النظري مع النبوّة والرسالة) ، كما في قوله تعالى: ﴿ **فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾[٢] ، فجعل الارتباط بين فطرة الإنسان ودين الله .

وكما في جملة من الآيات من وصف الرسول بالمذكّر ، ووصف القرآن بالذّكر ، وكما في قوله عليه السلام : « **وَواتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِياءَهُ ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ** ».

وكذلك إلى ارتباطٍ بين العقل العمليّ (كهادٍ في باطن الإنسان محدود) مع الإمام ، باعتبار أنّ العقل النظري هو مجرّد إراءة من دون أن يكون سير وطيّ للسبيل والطريق ، بينما العقل العملي هو الذي يكون فيه طيٌّ للطريق

---

(١) الكافي: ١: ١٩٤.

(٢) الروم ٣٠: ٣٠.

وسيرٌ على الصراط.

ومن ثمّ كان العقل العملي هداية إيصاليّة للمطلوب، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ مَن لَا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾(١).

ومرّة أُضيف السبيل إلى المؤمنين، وأنّه منطبق على ولاية أهل البيت بقرينة الآيات التي مرّت، وأنّه من الأركان وأُصول الإيمان، كما أنّه مرّ في:

﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾(٢).

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾(٣).

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٤) وصف السبيل بالاستقامة نظير وصف الصراط بالاستقامة.

ويتحصّل من ذلك: أنّ السبيل تارة يُطلق على نفس الصراط، سواء كان صراط الهداية للخير أو صراط الشرّ (صراط جهنّم)، وأُخرى يطلق على السبل المؤدّية إلى الصراط، ولعلّه بلحاظ مراتب الصراط، فإنّه كلّما تعالى درجاته تتوحّد سياقاته، وكلّما تتنزّل درجاته تكثر سبله، كما مرّ أنّ لكلّ نفس سبيل يؤدّي بها إلى الصراط، كما أنّ الأوصياء عليهم السلام كلّ منهم سبيل أعظم يؤدّي إلى صراط النبوّة والتوحيد، وقد ورد في الزيارة: «أَنْتُمُ السَّبِيلُ الْأَعْظَمُ، وَالصِّرَاطُ الْأَقْوَمُ»(٥)،

---

(١) يونس ١٠: ٣٥.

(٢) إبراهيم ١٤: ٣.

(٣) هود ١١: ١٩.

(٤) يونس ١٠: ٨٩.

(٥) الزيارة الجامعة

ممّا يشير إلى الدرجات في الصراط والسبل أنّ منها قيّم ومنها أقوم، ومنها عظيم ومنها أعظم.

وقد عبّر عن سنن المعصومين بالطريقة في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً﴾[١]، ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[٢]، والطريق والطريقة قد ورد في آيات عديدة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾[٣].

فهاهنا أُطلق على صراط جهنّم (طريق جهنّم).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾[٤]، والطرائق جمع طريقة، فاستعملت الطرائق على أبواب السماء، وقد مرّ الارتباط بين أبواب السماء وحجج الله تعالى الذين هم آياته الذين يُصدّق ولا يكذب بهم، ويتوجّه إليهم ولا يعرض عنهم، في الآية ٤٠ من سورة الأعراف.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً﴾[٦]، وفي هاتين

---

(١) الجنّ ٧٢: ١٦.

(٢) الجنّ ٧٢: ١٤ و ١٥.

(٣) النساء ٤: ١٦٨ و ١٦٩.

(٤) المؤمنون ٢٣: ١٧.

(٥) الجنّ ٧٢: ١١.

(٦) طه ٢٠: ١٠٤.

الآيتين أشير إلى أنّ لكلّ ذي روح طريقة للهداية وطريقة للغواية، نظير ما مرّ في السبيل.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(١)، فوصف الطريق بالمستقيم نظير ما مرّ في الصراط والسبيل.

ويتبيّن من ذلك أنّ الطريق والطريقة يشار بها إلى السلوك والاتّباع والهداية بحسب أعمال البدن وأحوال الروح وأفعال القلب، وأنّها بلحاظ الوصول والإيصال للمطلوب، وأنّ الطريقة مرتبطة بالهداية والهادي والاتّباع للهداة، وأنّ هذه الهداية بمعنى الإيصال والحركة نحو المطلوب، وليست بمعنى مجرّد الإراءة، ومن ثمّ كانت الطريقة مرتبطة بالإمام، وبالتطابق بين الطريق والطريقة والصراط والسبيل؛ يتبيّن تفسير الطريقة والاستقامة عليها في سورة الجنّ بولاية عليّ عليه السلام.

ويقرب منه قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(٢)، والطريف في تطابق هذه المعاني من الصراط والسبيل والطريقة والحبل، أنّ طرفاً منه بيد الله وهو غايته، وطرف منه بيد الإنسان، فمبدأه مركوز في فطرة الإنسان ومنتهاه عند الله.

ومثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٣)، وعلى أيّ تقدير، فالملحوظ في معنى

(١) الأحقاف ٤٦: ٣٠.

(٢) آل عمران ٣: ١٠٣.

(٣) البقرة ٢: ٢٥٦.

كلّ من الصراط والسبيل والطريقة والحبل والاستمساك بالعروة الوثقى أنّه يرتبط بالسير والعمل والحركة، ولا يقتصر على ظاهر البدن، بل يرتبط بأعمال الروح وأفعال القلب، ورقيّ وترقّي روح الإنسان وسيرها في منازل الملكوت.

ومن ثمّ يؤدّي في المنتهى إلى ما هو باطن الدنيا وهو عالم الآخرة، ولأجل ذلك يستعرض القرآن الكريم جملة من مقامات ولاية أهل البيت عليهم السلام، مرتبطة بأحوال الآخرة كما في شهادتهم لأعمال العباد، ووصفهم بالشهداء، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾(١)، وغيرها من الآيات الواردة في الشهداء.

وكقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

ومن ثمّ سيأتي في السور العديدة أنّهم المهيمنون على مقام الأعراف، يميّزون بين أهل الجنّة وأهل النار، وأنّهم الموازين القسط، ويوكل إليهم من قِبل الله تعالى مقامات مهمّة في الحشر والنشر، وكما مرّ أنّ قبول الأعمال مشروط بولايتهم، وهو المستفاد من سورة الحمد أيضاً، حيث اشترطت النجاة بالاهتداء إلى الصراط المستقيم وأصحابه، من دون كفاية الإقرار بالتوحيد والمعاد والنبوّة في ظاهر اللسان.

مضافاً إلى تعقّب طلب الهداية والاهتداء بالهداة، وأنّ ذلك به النجاة إثر الإقرار بتوحيد الله في العبادة، والاستعانة في الآية ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، وهذا معاضدٌ لما مرّ من أنّ التوحيد في العبادة والاستعانة إنّما هو بطاعة من أمر الله

---

(١) الحج ٢٢: ٧٨.

(٢) التوبة ٩: ١٠٥.

بطاعته والانقياد له، وأنّ توحيد الله في الاستعانة إنّما يتمّ بالتوجّه بمن أمر الله بالتوجّه به إلى الله تعالى، وأنّ صراط التوحيد هو بالاهتداء والاتّباع للهداة الهادين لهذه الأمّة.

الهداية والضلال، والإيمان وظاهر الإسلام

ثمّ إنّ هذه السورة -وهي أمّ الكتاب- تجذّر ميزاناً ومفهوماً عقدياً واعتقادياً مهمّاً، وهو تمييز أهل الملّة والنحلة الواحدة، إلى أهل هداية وأهل ضلال، وأهل الرضا الإلٰهيّ وأهل الغضب والسخط الإلٰهيّ، حيث بيّنت أنّ مَن انتسب وانتمى إلى الملّة والنِّحلة الإسلاميّة بالإقرار بالتوحيد والنبوّة والمعاد، لساناً، والتزم بالطقوس والرسوم في دين الإسلام، إنّما يتّصف بكونه من أهل الهداية إذا اقتدى واهتدى وائتمّ بالهادين أصحاب الصراط المستقيم، وإلّا فإنّه سوف يكون من أهل الضلال، أي ممّن ضلّ عن طريق الجنّة والنجاة، وضلّ سعيه في الآخرة، وتفرّقت به السبل عن سبيل الله وعن السبيل الذي جعله الله مسلكاً إلى رضوانه، كما مرّ بإفصاح من القرآن وهي مودّة وولاية قربى النبيّ ﷺ.

والسورة تؤكّد على أنّ المراد من المودّة ليس صرف المحبّة، بل الاتّباع والانتهاج واتّخاذ سننهم وسيرتهم سبيلاً متّبعاً، وليس مجرّد المحبّة لأنّ الله قد وصف المودّة لهم بالسبيل إليه كما مرّ في الآيتين (آية الشورى ٢٣، وآية الفرقان ٥٧).

وإثبات نهج الهداية ونهج الضلال في هذه الأمّة تثبته آيات في سور عديدة، كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾[١]، كما أنّ التفرقة

---

(١) الأحزاب ٣٣: ٣٦.

بين ظاهر الإقرار بالدين لساناً واعتناقه بحقيقة الإيمان بهذا التصنيف والتقسيم تثبته آيات في سور عديدة، كقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (١)، كما يأتي الإشارة إليها في محلّها إن شاء الله.

وأنّ النجاة هو بالإيمان لا بصرف ومجرّد الإقرار بالإسلام في ظاهر اللسان، هذا المفاد هو الآخر مقرّر في جملة من السور، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ (٢).

المغضوب عليهم والمرضيّ عنهم

ولا يخفى أنّ هذه السورة الشريفة أيضاً تشير إلى تصنيف في هذه الأمّة ولأهل هذه الأمّة والملّة، أنّ من اتّبع الصراط المستقيم منهم وائتمّ بأصحاب الصراط، فهو من المرضيّ عنهم، وأنّ هناك من الأمّة من يعند ويعاند اتّباع ذلك الصراط، فهو من المغضوب عليهم، كما أنّ هناك فئة ثالثة وهي التي ليس لديها لجاج وخصام مع أصحاب الصراط المستقيم الهادين له، ولكنّها لم تهتدِ ولم تعرف صراط الحقّ المستقيم وأهله، والذي يفصح عن هذا التقسيم الثلاثي أنّ الآيتين الأخيرتين في السورة أوردت عنوان الهداية لمن اهتدى وعرف الصراط المستقيم وسلكه، وأنّه يوجب رضى الربّ، ويقابله من عرف صراط الحقّ المستقيم، إلّا أنّه لم يتّبعه، وعَنَده وعدل عنه إلى غيره، فهذا أُقيمت عليه الحجّة بالمعرفة، فيشتدّ جزاء العقوبة عليه، كما أنّه يقابله مَن لم يعرف الصراط والسبيل إلى الله

---

(١) الحجرات ٤٩: ١٤.

(٢) طه ٢٠: ٨٢.

تعالى بعد دخوله في الإسلام، فهو ضالّ عن الهداية، وهو ممّن فيه المشيئة الإلٰهيّة، ويكون من (المرجون لأمر الله)، فهذا تقسيم ثلاثيّ في هذه السورة.

وبالجملة: فإنّ كثيراً من المفسّرين ذكروا أنّ المراد بأصحاب الصراط المستقيم المنعوتين بأنّهم منعمٌ عليهم، وأنّهم غير مغضوب عليهم ولا ضالّين، هم جميع الأمّة الإسلاميّة، وكلّ مَن تشهّد الشهادتين، مع أنّ صدر السورة كما مرّ تبيّن أنّ من أقرّ بالشهادتين أي بالتوحيد والمعاد والنبوّة، فإنّ اللازم عليه بحسب ذيل السورة أن يطلب الهداية، ولا يكتفي بمجرّد اعتناق ظاهر الإسلام وبصرف الإقرار بالشهادتين، ممّا يدلّ بوضوح أنّ النجاة في الآخرة مرهونة بصفة الإيمان وبشرائط تزيد على أصل صفة ظاهر الإسلام، وقد بيّنت الآيات الكثيرة أنّ للإيمان مراتب كما أنّ للهداية مراتب، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً﴾[1].

ومنه يعلم أنّ الهداية المطلوبة في ذيل سورة الحمد هي درجة تزيد على أصل الاهتداء إلى ظاهر الإسلام من الإقرار بالتوحيد والنبوّة والمعاد لساناً، ولا يمكن حمل طلب الهداية في ذيل السورة على أصل اعتناق الإسلام، بل على طلب المزيد من الهداية، وهي التي علّقت النجاة عليها، وأنّ النجاة لا تحرز بمجرّد الاعتناق في الظاهر للإسلام، وأنّ الهداية في تلك الدرجة اللّاحقة لا بدّ أن تكون من الأصول الاعتقاديّة في الإيمان، حيث علّق عليها أصل النجاة في الآخرة، ولعلّه لا اختلاف بين مذاهب المسلمين في أنّ النجاة متوقّفة على الإيمان، ولا يكفي فيها الاعتناق في الظاهر للإسلام، وإنّما الخلاف واقع في تحديد وتعداد الأمور المأخوذة في أصول الإيمان.

---

(١) مريم ١٩: ٧٦.

وكقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[٢].

فجملة هذه الآيات تكشف عن أنّ الانتماء إلى النّحلة الإسلاميّة بمجرّده لا يوجب الهداية المطلوبة للنجاة ولسلوك الصراط المستقيم ما لم ينضمّ إلى ذلك الاتّباع والاهتداء بهداة هادين في هذه الأمّة، كما هو مفاد هذه السورة.

وممّا يوضّح أنّ أهل النجاة في الأمّة الإسلاميّة إنّما هم خصوص من اهتدوا إلى الصراط المستقيم، واتّبعوا الهداة أصحاب الصراط، مضافاً إلى ما تقدّم، أنّ في العديد من الآيات والسور التعرّض إلى تقسيم المسلمين إلى أقسام متعدّدة، منهم المسلم غير المؤمن، ومنهم المؤمن، ومنهم المنافق، ومنهم المستضعف، ومنهم المرجون لأمر الله، ومنهم أهل الضلال في مقابل أهل الهداية، ومنهم مَن غضب الله عليه، ومنهم من رضي عنه، وغيرهم من الأصناف التي استعرضتها الآيات حول صفات المسلمين الذين كانوا في عهده ﷺ.

ظاهرة التمذهب في عصر الرسالة

فهذا التصنيف والتقسيم في القرآن الكريم يشير إلى حقيقة مهمّة، وهي أنّ ظاهرة المذهبيّة العقائديّة والتمذهب العقائدي قد نشأ في عهد الرسالة الأوّل في عهد الرسول ﷺ، بل سيأتي في سورة البقرة في آية: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أنّ ذلك نشأ ـ كما في سورة المدّثّر ـ في أوائل بعثة الرسالة، رغم أنّ ظاهر الإسلام يحتضن الجميع، ويكفل للجميع حقوق المواطن الإسلامي، كما يقرّر على

---

(١) محمّد ﷺ ٤٧: ١٧.

(٢) الحجّ ٢٢: ٥٤.

الجميع الوظائف والمسؤوليّات المشتركة ونظام التعايش المثمر في رحاب ظاهر الإسلام.

الولاء والبراءة

هذا، وقد بيّن في آيات عديدة حرمة تولّي مَن غضب الله عليه، ولزوم التبرّي منه وهي الموالاة والبراءة لما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَا هُم مِنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾[(٢)].

وقد وصف من غضب الله عليه بأنّه أضلّ عن سواء السبيل من الضالّ، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾[(٣)].

وكذلك وصف أهل النفاق من ملّة الإسلام بأنّهم مغضوب عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾[(٤)].

---

(١) الممتحنة ٦٠: ١٣.

(٢) المجادلة ٥٨: ١٤.

(٣) المائدة ٥: ٦٠.

(٤) الفتح ٤٨: ٦.

وكقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ*... أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾(١).

وكقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

وكقوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٣).

وكقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾(٤)، فهذه الآيات تبيّن أنّ بعض مَن هو من فئات المسلمين لا يحمل صفة الإيمان، بل صفة النفاق، أي أنّهم يظهرون الحقّ ويبطنون الباطل، وأنّ تمرّد هذه الفئة ليس في الإقرار بالله تعالى كما يشهد له قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾(٥)، وإنّما إباؤها وجحودها لمقام الرسول ﷺ وولايته، فلم تكن تسلم قلباً لطاعة الرسول ﷺ وكانوا يجدون في قلوبهم حرجاً

---

(١) البقرة ٢: ٨ ـ ١٦.

(٢) الحجرات ٤٩: ١٤.

(٣) التوبة ٩: ١٠٦.

(٤) المنافقون ٦٣: ١ ـ ٣.

(٥) لقمان ٣١: ٢٥.

من الاتّباع لولايته، ونظيرهم فئة أخرى، وهم الذين في قلوبهم مرض كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾[١].

الطبرسي في «مجمع البيان» عن سعيد بن جبير، قال: «قلت لابن عبّاس: سورة التوبة. فقال: تلك الفاضحة.

قال: ما زال ينزل حتّى خشينا ألّا يبقى منهم أحد إلّا ذكر، وسمّيت أيضاً بالمدمدمة والمهلكة والحافرة لأنّها حفرت عمّا كانوا يسترونه، والمثيرة لأنّها أثارت مخازيهم ومقابحهم، وسورة العذاب»[٢].

وقد ذكر الطبرسي في «مجمع البيان»، قال: عن عاصم بن زرّ بن حبيش، عن حذيفة، قال: يسمّونها سورة التوبة، وهي سورة العذاب[٣].

بل في سورة البراءة تعداد لعشر فئات أو يزيد قد ذكرتهم السورة بقوارع فاضحة، ومن ثمّ سمّيت السورة -كما عن ابن عبّاس- بأسماء عديدة كالفاضحة والمبعثرة لأنّها تبعثر عن أسرار المنافقين[٤].

---

(١) محمّد ﷺ ٤٧: ٢٩.

(٢) مجمع البيان: ٥: ٥ و ٦.

(٣) مجمع البيان: ٥: ٦.

(٤) مجمع البيان: ٥: ٥.

المنهج المعرفي
والمنهج الجاهلي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ * ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولٰئِكَ عَلَىٰ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1]

الحروف المقطّعة

﴿ الٓمٓ ﴾ والذي يظهر من جملة من الروايات ـ نظير ما رواه الصدوق في أوائل «معاني الأخبار» ـ أنّ لها جملة من المعاني:

الأوّل: أنّها حروف لأسماء إلٰهيّة، كما في رواية «معاني الأخبار»: بسنده عن سفيان الثوري، عن الصادق عليه السلام، قال: «قلت له: ما معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿ الٓمٓ ﴾؟

قال عليه السلام: أمّا ﴿ الٓمٓ ﴾ في أوّل البقرة فمعناه: أنا الله الملك، وأمّا في أوّل آل عمران فمعناه: أنا الله المجيد...» الحديث[2].

(١) البقرة ٢: ١ ـ ٥.

(٢) معاني الأخبار: ٢٢، الحديث ١.

الثاني: إنّها حروف للاسم الأعظم، فقد روي في «المعاني»: بسنده عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: ﴿الٓمٓ﴾ هو حرف من حروف اسم الله الأعظم المقطّع في القرآن الذي يؤلّفه النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام، فإذا دُعي به أُجيب»[1].

الثالث: إنّها حروف أبجد لحساب تواريخ وتواقيت لملاحم وأحداث مستقبليّة، فقد روى القمّي في تفسيره، عن الخثعمي، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «سمعته يقول: ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾[2] عدد سنيّ القائم (عج)»[3].

وروي عن الباقر عليه السلام: «... وليس من حروف مقطّعة ينقضي أيّام إلّا وقائم من بني هاشم عند انقضائه»[4].

الرابع: إنّها رمز وإشارة بينه تعالى وبين حبيبه محمّد صلى الله عليه وآله، ففي «مجمع البيان»، قال: «وروت العامّة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: إنّ لكلّ كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجّي»[5].

وروى العيّاشي عن أبي لبيد، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «يا أبا لبيد، إنّ لي في حروف القرآن المقطّعة لعلماً جمّاً»[6].

وروى القمّي في تفسيره عن الخثعمي، عن أبي جعفر عليه السلام: «وعلم كلّ شيء في ﴿عٓسٓقٓ﴾»[7].

---

(١) معاني الأخبار: ٢٣، الحديث ٢.
(٢) الشورى ٤٢: ١.
(٣) تفسير القمّي: ٢: ٢٦٨.
(٤) و (٦) تفسير العيّاشي: ٢: ٣، الحديث ٣.
(٥) مجمع البيان: ١: ٧٥.
(٧) تفسير القمّي: ٢: ٢٦٧.

الخامس: إنّها إشارة إلى الحروف العربيّة التي نزل بها القرآن الكريم.

السادس: إنّ جملة منها من أسماء النبيّ ﷺ، وقَسَمٌ بتلك الأسماء، وهي التي ذكر بعدها الكتاب والقرآن، ففي دعاء السجّاد يوم الفطر:

«وَقُلْتَ جَلَّ قَوْلُكَ لَهُ حينَ اخْتَصَصْتَهُ بِما سَمَّيْتَهُ مِنَ الأَسْماءِ: ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾[١].

وَقُلْتَ عَزَّ قَوْلُكَ: ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾[٢].

وقُلتَ تَقَدَّسَتْ أَسْماؤُك: ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾[٣].

وَقُلْتَ عَظُمَتْ آلاؤُكَ: ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾[٤].

فَخَصَصْتَهُ أَنْ جَعَلْتَه قَسَمَكَ حينَ أَسْمَيْتَهُ، وَقَرَنْتَ الْقُرْآنَ بِهِ، فما في كِتابِكَ مِنْ شاهِدِ قَسَمٍ وَالْقُرْآنُ مُرْدَفٌ بِهِ إِلَّا وَهُوَ اسْمُهُ، وَذٰلِكَ شَرَفٌ شَرَّفْتَهُ بِهِ، وَفَضْلٌ بَعَثْتَهُ إِلَيْهِ، تَعْجَزُ الأَلْسُنُ وَالأَفْهامُ عَنْ وَصْفِ مُرادِكَ بِهِ، وَتَكِلُّ عِنْ عِلْمِ ثَنائِكَ عَلَيْهِ، فَقُلْتَ عَزَّ جَلالُكَ في تَأْكيدِ الْكِتابِ وَقَبُولِ ما جاءَ بِهِ: ﴿ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ﴾[٥].

وَقُلْتَ عَزَزْتَ وَجَلَلْتَ: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[٦].

وَقُلْتَ تَبارَكْتَ وَتَعالَيْتَ في عامَّةِ ابْتِدائِهِ: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾[٧].

---

(١) طه ٢٠: ١ و ٢.

(٢) يس ٣٦: ١ و ٢.

(٣) ص ٣٨: ١.

(٤) ق ٥٠: ١.

(٥) الجاثية ٤٥: ٢٩.

(٦) الأنعام ٦: ٣٨.

(٧) يونس ١٠: ١.

وَ: ﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾[١].

وَ: ﴿ الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾[٢].

وَ: ﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾[٣].

وَ: ﴿ الَمَ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٤]، وَفي أَمثالِها مِنْ سُوَرِ الطَّواسينِ وَالْحَواميمِ في كُلِّ ذٰلِكَ بَيَّنْتَ بِالْكِتابِ مَعَ الْقَسَمِ الَّذي هُوَ اسْمُ مَنِ اخْتَصَصْتَهُ لِوَحْيِكَ، وَاسْتَوْدَعْتَهُ سِرَّ غَيْبِكَ»[٥].

ولا يخفى أنّ في كلامه ﷺ بيان لجملة من مقامات النبيّ ﷺ، منها: القسم بأسماء النبيّ ﷺ، ومنها: أنّه قرن به القرآن لا العكس، ومنها: أنّه صدّر اسمه على الكتاب، وفي هذا إعلاء لمقام النبيّ على الكتاب، ومنها: أنّه وصف النبيّ بالكتاب الناطق بخلاف المصحف.

السابع: إنّها أسماء لحقائق كونيّة ملكوتيّة، كما روي في (ص) أنّه نهر في الجنّة[٦]، مع أنّه اسم من أسماء النبيّ، كما مرّ في السابق، وفي (ق) أنّه جبل محيط بالدنيا من زمرّد أخضر وخضرة السماء من ذلك الجبل[٧]، وفي رواية

---

(١) هود ١١: ١.

(٢) إبراهيم ١٤: ١.

(٣) يوسف ١٢: ١.

(٤) البقرة ٢: ١ و ٢.

(٥) الصحيفة السجّاديّة الجامعة ـ دعاء عيد الفطر: ٣١٠.

رواه في الإقبال: ٢٨٥ بإسناده إلى التلعكبري، بإسناده إلى جابر بن يزيد الجعفي، وأورده في البلد الأمين.

(٦) الأحاديث المختارة: ٨: ٥٤.

(٧) روضة الواعظين: ٤٨. تفسير القمّي: ٢: ٢٦٨.

«معاني الأخبار» (ن) اسم نهر في الجنّة، وهو اسم ملك[١].

الثامن: إنّه يشار بهذه الحروف إلى تشابه صفات بعضها لبعض صفات الله تعالى، كما ورد في رواية الثعلبي في تفسيره مسنداً إلى الرضا عليه السلام عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن قوله: ﴿الٓمٓ﴾، فقال: «في الألف ستّ صفات من صفات الله عزّ وجلّ»[٢].

﴿ذٰلِكَ الْكِتَابُ﴾

والمعروف عند اللغويّين أنّه اسم إشارة للبعيد، وقد استعمل فيه حرفان للبعد اللام والكاف، ومن ثمّ ذكروا أنّ لفظ (ذاك) للبعد المتوسّط، وأمّا لفظ (ذلك) فللبعد البعيد أو الأبعد.

وما ذكره جملة من المفسّرين[٣] من استعمال ذلك للمشار إليه القريب، وذكروا جملة من الشواهد والاستعمالات، فكلّها مخدوشة عند التأمّل والتدبّر وغير خارجة عن معنى البعد، مضافاً إلى تنصيص اللغويّين على ذلك (أي استعمالها للبعيد).

وقد وقع الكلام في معنى البُعد في الكتاب المشار إليه في الآية على وجوه:

١ ـ ما ورد في «التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام» من أنّ الكتب السابقة من التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وغيرها قد أنبأت بخاتم الأنبياء وبنزول القرآن الكريم عليه، فذلك الذي قد أنبئت به الرسل والكتب السابقة هو

---

(١) معاني الأخبار: ٢٣، الحديث ١، وليس فيه: «اسم ملك».

(٢) مجمع البيان: ١: ٧٥، عن الثعلبي.

(٣) حكاه الشيخ في التبيان عن جماعة من اللغويّين، والفخر في تفسيره.

هذا الكتاب، وهو القرآن الكريم[١]، وعلى ضوء هذا المعنى يكون معنى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو التأكيد على أنّ ما أنبأت به الرسل هو نفس هذا القرآن الكريم، وهذا المعنى متّجه ومتّسق مع ترتيب لفظ الآية.

٢ ـ أن تكون الإشارة إلى المقام الغيبيّ المكنون في القرآن الكريم الذي أشير إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾[٢]، فتشير هذه الآية من سورة الواقعة إلى وجودٍ علويّ ملكوتيّ للقرآن الكريم في كَنٍّ لا يرقى إليه البشر إلّا المطهّرون، وأنّ المصحف الشريف بسوره وآياته تنزيل من ذلك الموقع، فللقرآن الكريم منزلتان ومقامان أو منازل ومقامات كما يظهر من سور أُخرى، جملة منها علويّة، وبعض منها نازلة في متناول أيدي الناس، ثمّ تؤكّد الآيات أنّ هذا الحديث عن تعدّد مقامات القرآن الكريم لا يداهن فيه ولا يستراب، فهناك نحو تطابق بين هذه الآيات من سورة الواقعة والآية في المقام.

وبالجملة ما يشير إلى وجود مقامات علويّة غيبيّة للقرآن الكريم آيات كثيرة، كقوله تعالى في سورة المعارج: ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[٣]، والتوصيف بالمجيد والمجد يقارب التوصيف بالكرامة، وهما وصفان للمقام الغيبي للقرآن، كما أنّ المحفوظ معنىً يقرب من المكنون، فهو وصف له بلحاظ ذاك المقام.

ومنها: ما في جملة من السور العديدة من وصف القرآن بالكتاب المبين،

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٦٣.

(٢) الواقعة ٥٦: ٧٧ ـ ٨١.

(٣) البروج ٨٥: ٢٠ ـ ٢٢.

وأنّه أحصي فيه كلّ شيء، وغير ذلك من الآيات التي ستأتي لاحقاً.

وهذا المعنى أيضاً متين ومستقيم، وإن كان لا يروق بمذاق جملة من المفسّرين الذين يستوحشون منه إثبات المقام الغيبيّ للقرآن بعيد المنال يختصّ به ثلّة من هذه الأمّة الموصوفين بالمطهّرين، وهذا ممّا يقطع الطريق أمام منهج حسبنا كتاب الله، ولا يخفى تناسب هذا المعنى مع تصوير، وسبق هذه الآية بالحروف المقطّعة التي مرّ أنّ من أظهر معانيها أنّها أسماء لمقامات النبيّ ﷺ، فيتناسب ذلك المقام العلويّ للقرآن مع ذلك المقام الغيبيّ للنبيّ، وأنّه ينحدر من مقام غيبيّ أعلى منه للنبيّ ﷺ، كما يستشفّ ذلك من إشارة السجّاد عليه السلام في دعائه ويتطابق مع ما سيأتي من تفسير الكتاب بعليّ عليه السلام.

إنّ الإشارة للتعظيم والتفخيم والإكبار، أي لأجل الإشارة إلى علوّ معاني وفخامة علوم القرآن وخطورة وصاياه، فكأنّه كالبعيد عن منال الطالبين، فلا يدرك دقائق ورقائق وإشارات حكمه بمجرّد بادرة النظر، بل يحتاج إلى إمعان وتدبّر وتعمّق، وهذا التفسير وإن اختلفت صوره عن السابق، إلّا أنّه يؤوّل إليه بنحو ما، ثمّ لا يخفى أنّ الإشارة على ما تقدّم من المعاني، على درجات، فمنها قلبيّة عقليّة، ومنها ذهنيّة، ومنها حسّيّة.

معاني الكتاب

منها: ما قد ورد في روايات عديدة أنّ الكتاب عليّ عليه السلام، كما في «تفسير القمّي»[١]، كما قد وردت روايات عنه عليه السلام أنّه الكتاب المبين[٢]، وسيأتي في

(١) تفسير القمّي: ١: ٣٠.
(٢) تفسير الصافي: ٢: ١١٣٦.

مباحث لاحقة أنّ القرآن والعترة في الوجود العلويّ والغيبيّ وجود واحد، عُبّر عنه بحبل الله الممدود، طرف منه بيد الله وطرف منه بيد الناس، وأنّ تعدّدهما في الوجود النازل من المصحف الشريف وأبدانهم الطاهرة لا يتنافى مع وحدة الحبل الممدود من الله، وهذا معنى من معاني أنّهما لن يفترقا.

ويشير إلى ذلك: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[1]، مع أنّه قد قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً﴾[2]، وهناك آيات عديدة أخرى يظهر منها التطابق، نوكلها إلى محلّها المناسب.

وعلى ضوء هذا المعنى يُفسّر المتّقين في الآيات بشيعة عليّ وأهل البيت عليهم السلام، حيث أنّهم اتّقوا أنواع الكفر والجحود، وسلّموا وأذعنوا وأخبتوا للحقّ، فاتّقوا الذنوب الموبقات، أي استوفوا ما ينبغي أن يتّقى منه، فأقاموا في أنفسهم تمام الحدّ وحدود التقوى، واتّقوا إظهار أسرار المعارف عن غير أهلها.

ومنها: ما مرّ إليه الإشارة إلى المصحف الشريف، ثمّ إنّ المصحف لا يقتصر على الألفاظ بل له معاني، ولمعانيه معاني، وإلى طبقات عديدة ومدارج من المعاني، وللمعاني بحور ومحيطات، فالإشارة لا تقتصر على ألفاظه الشريفة، بل تشمل صفاته ومعانيه، وكم حافظ لألفاظ القرآن جاهل بمعانيه، وكم من حافظ لبعض معانيه وجاهل بما وراء ذلك من الطبقات.

ومنها: ما في «تفسير العيّاشي» من تفسير الكتاب بكتاب عليّ عليه السلام[3]، ولعلّه المراد به المصحف الذي جمعه عليه السلام، والذي قد دوّن فيه أسباب النزول والتأويل،

---

(١) يس ٣٦: ١٢.

(٢) النبأ ٧٨: ٢٩.

(٣) تفسير العيّاشي: ١: ٢٥، الحديث ١.

وأنّ ترتيب سوره وآياته بحسب النزول.

فالقرآن فيه مفسّر تنجلي فيه كلّ المتشابهات، وهو محفوظ مصون عند أهل البيت، بل يتوارثونه ومودع عند الإمام المهدي عليه السلام.

وقد وصفه غير واحد من الصحابة بأنّ فيه علماً جمّاً، وتأوّه غير واحد منهم من عدم استقباله عندما عرضه عليهم فلم يكترثوا به.

ولا يخفى أنّ الكتاب لا يقتصر معناه على الرسم المنقوش في الورق من الصحائف، كما أنّ التدوين لا يقتصر على الرسم بالدواة، كما أنّ الكلمة والكلام لا تقتصر على الحروف المصوّتة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾[1]، وسيأتي البحث فيه مفصّلاً.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

وقد تعدّدت الاحتمالات في إعراب ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إلى وجوه عديدة:

فمنها: كون العامل في الجار هو مادة «ريب».

ومنها: أنّ العامل في الجار ﴿هُدىً﴾، كما أنّ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قد تجعل صفة للكتاب، وقد تجعل صفة لـ ﴿هُدىً﴾، أي لا ريب في اشتماله على الهدى.

وقيل: إنّ ﴿فِيهِ﴾ للتعليل، كما في ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[2]، أي بسبب القرآن ينتفي الريب، وتكون بمعنى الباء كما في ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾[3].

(١) آل عمران ٣: ٤٥.

(٢) البقرة ٢: ١٧٩.

(٣) الشورى ٤٢: ١١.

و ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ كما في «البحر المحيط» قلق النفس، والشكّ بتهمة[١]، قيل: إنّ الريب أسوء من الشكّ في صفة اضطراب النفس كما في «مجمع البيان»[٢]. ويشير إلى ذلك وصف الشكّ بالمريب في عدّة آيات[٣].

ثمّ إنّه قد ذُكرت وجوه إعراب كثيرة في آية ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ تارة بجعل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ خبر لـ ﴿ الٓمٓ ﴾، ولكن هذا الاحتمال مخالف لما مرّ من أنّ الإشارة إلى مقام نبويّ يقرن به ذلك الكتاب.

وتارة يعرب ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ مبتدأ، وخبره إمّا ﴿ الْكِتَابُ ﴾ أو ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾، أو ﴿ فِيهِ هُدًى ﴾. أو ﴿ هُدًى ﴾، والمعنى على جملة هذه التقادير مآله واحد، ثمّ إنّ في هذه الآيات إشارة إلى جملة من معالم نهج المعرفة عند القرآن الكريم في قبال نهج الجهل والجاهليّة.

المعلَم الأوّل: تجنّب الريب

حيث أنّ نفي الريب يختلف معناه بحسب اختلاف معنى ﴿ فِيهِ ﴾، فعلى التعليل يكون معنى ﴿ لَا رَيْبَ ﴾ أنّ من يهتدي بنور الكتاب، ويستمسك بتعاليمه وأنواره ينتفي عنه الريب والاضطراب والحيرة، ويتّصف بالطمأنينة والحكمة المورثة للسكينة، فيكون الكتاب علاجاً للريب الذي هو الاضطراب والحيرة والترديد، فإنّ الملاحظ في الآيات الكريمة عموماً ذمّ الريب والشكّ، وجعله من صفة الجاهلين والكفّار، وكذلك الحال في الشكّ، ولم يوصف أهل التقوى

---

(١) تفسير البحر المحيط: ١: ١٥٥.

(٢) مجمع البيان: ١: ٧٩.

(٣) هود ١١: ١١٠. سبأ ٣٤: ٥٤. فصّلت ٤١: ٤٥. الشورى ٤٢: ١٤.

واليقين بهاتين الصفتين، ولا يخفى أنّ الشكّ والريب ليسا صفتين تعبّران عن درجة العلم أو الإدراك، كالاحتمال والظنّ واليقين والوهم، بل هما صفتان تعبّران عن الحالة العمليّة في جنبة النفس، نظير القطع والاطمئنان والسكينة، فهما من الصفات العمليّة للنفس.

وبذلك يظهر أنّ الشكّ ليس كما درج عليه المناطقة أو الفلاسفة أو في اصطلاح العلوم المختلفة من تساوي الاحتمالين أو تقاربهما في النسبة، بل الشكّ في حقيقته هو حالة من الاضطراب النفسي والتردّد والحيرة وانجذاب النفس إلى الاحتمالين أو الاحتمالات، مع عجز في قدرة النفس عن التمييز والفحص.

وكذلك الحال والريب والريبة، لكن بنحو أشدّ كما في وصف المنافقين في قوله تعالى: ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾[(١)].

وهذه حالة عيّ وإعياء في النفس تفقد فيها القدرة على إحكام التدبير لرفع الجهالة أو السعي والفحص. فلا يظنّن ظانّ أنّ القرآن يسدّ باب السؤال والفحص وإبداء الاحتمال والتحرّي والتنقيب والتفتيش، وكيف والقرآن الكريم يدعو في أمّ المعرفة وهي معرفة الله والتوحيد، إلى التدبّر والتنقيب والفحص والبرهان، ويذمّ التقليد بلا بصيرة، ويدعو إلى العلم والتعلّم لا إلى الجهل والجهالة، وهذا بخلاف الشكّ والتشكيك والاسترابة الذي هو منهج سفسطي يتوخّونه ليقدّموا إلى الجحود وإنكار الحقائق بمجرّد الاضطراب النفسي والترديد مع أنّ كلاً من الإنكار أو التسليم لا بدّ أن يبنى على الدلائل لا على مجرّد الحيرة والتردّد، وفي الحقيقة إنّ هذه الحالة حالة وقوف وجمود عن الفحص والتنقيب وإيقاف

---

(١) النساء ٤: ١٤٣.

لحركة الفكر وانحباس النفس في طوق الحيرة وإياسها عن السير والحركة الفكريّة لرفع المجهول وتبديله إلى المعلوم، ومن ثمّ يحقّق من أنّ الشكّ والريب شعار الجهل والجاهليّة، وهو المنهج السفسطي.

وممّا يشير إلى كون الريب حالة توقّف في الفكر والفحص العلمي ما يشير إليه قوله تعالى الآتي ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[1]، حيث يتضمّن المقابلة بين الريب وبين الفحص والتثبّت العلميّ، حيث يخاطب القرآن الكريم الكافرين بكون القرآن نازل من عند الله، وأنّه معجزة بأنّ المكث في الريب والتشكيك والحيرة والتردّد لا يوجب انكشاف الحقيقة، وليس نهجاً يتحرّى فيه العلم بحقيقة الحال.

فمن ثمّ دعاهم القرآن الكريم للفحص عن كونه معجزاً بمحاولتهم للإتيان بسورة من مثل القرآن كي يتبيّن لهم أنّ ذلك بوسعهم؛ أو أنّهم عاجزون عن ذلك.

فهذه دعوة إلى الفحص العلمي في قبال الجمود الموجود في حالة الريب الذي هو قذف من بعيد عن متناول الحقيقة، ثمّ يدعوهم القرآن الكريم إلى خطوة علميّة أُخرى إذا عجزوا أو لم يسلكوا الخطوة الأولى، وهي أخذ الحيطة بمراعاة جملة من الاحتمالات والمحتملات، وهذا يغاير ما يمارسه المرتاب بسبب حالة الريبة، فإنّ تلك الحالة من الريب أو التشكيك تدفعه إلى الجحود والإنكار بعجلة واندفاع من دون استبيان وتثبّت وتحرّي فاحص، مع أنّ قواعد المنهج العلمي التي يدركها العقل السليم، والتي ينبّه عليها القرآن المجيد، أنّ اللازم عدم النفي

(١) البقرة ٢: ٢٣ و ٢٤.

والإثبات، وعدم الإقدام على التسليم أو الإنكار، إلّا على وفق دلائل وبيّنات، وإذا لم يقف الإنسان على تلك الدلائل لعجز أو لعدم القدرة على التمييز أو لأيّ سبب آخر، فإنّ اللازم حينئذٍ عدم الركون إلى الحكم والقضاء بأحد الطرفين، والوظيفة حينئذٍ أخذ الحيطة والرعاية للاحمال في كلا الطرفين.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾(١).

وهذه الخطوة الثانية إحدى الإخفاقات العظيمة الجهلانيّة في الغيب يتمسّك بها الجاهلون والمنطق الجاهلي القديم والحديث، وهي خطوة علميّة عملانيّة يفرّط فيها المستمسكون بالريب والمريبون والشكّاك والمنهج التشكيكي يخلدون فيه إلى دعة الكسل الفكري والعملي بدل الجهد الفكري والتحرّي.

ويتبيّن من ذلك أنّ المعنى الآخر لـ﴿ **فِيهِ** ﴾ وهو الظرفيّة أيضاً هو الآخر نعت للقرآن الكريم بصفة العلميّة، فإنّ العلم والنهج العلمي الفاحص يقود إلى التسليم بأنّه من عند الله، وأنّه كتاب هداية.

﴿ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ﴾

المعلَم الثاني

في هذه الجملة إشارة إلى قاعدة والتوصية الثانية للنهج المعرفي عند القرآن، فقد خصّص الهداية الحاصلة من الكتاب بالمتّقين، والهداية هي الوصول إلى الحقيقة ودركها، فهي تتضمّن لكلّ من المعرفة والانتفاع بها للوصول للغاية،

---

(١) البقرة ٢: ٢٤.

فإنّ الهداية كما تستعمل تارة في إراءة الطريق للمطلوب، وأُخرى في الايصال والوصول للمطلوب، فها هنا تشير الآية إلى قاعدة مهمّة ونظام مهمّ في العصمة من الخطأ والخطاء والزلل والضلال.

فالآية في صدد بيان نظام وقواعد إذا رُوعيت أوجبت العصمة والاستعصام من الخطأ، فهي إشارة إلى النظام المنطقي الذي يرسمه القرآن الكريم، وإلى مدرسة متميّزة في النهج المنطقي والفكري تختلف عن المدارس المنطقيّة الأُخرى، سواء المدرسة اليونانيّة في المنطق الأرسطي الذي يقتصر على بعض ضوابط الحركة الفكريّة في بعض قواعد هيئة الاستدلال، أو بعض قواعد موادّها من دون تعرّضها إلى قواعد القوّة الإدراكيّة الأُخرى، كالمخيّلة والواهمة وقوى الحواس، فضلاً عن قوى الإدراك القلبيّة، وفضلاً عن منظومة قوى العمّالة في النفس، وغيرها من طبقات ودرجات منازل النفس والروح.

وكذلك الحال في المنطق الرياضي أو مدرسة المنطق الوضعيّ أو الاحصائيّ أو الاستقرائيّ أو الرقميّ أو النفسانيّ أو الاجتماعي وغيرها من المدارس المنطقيّة، فإنّها تركّز على جانب من القوّة المؤثّرة للنفس في عمليّة الاستنتاج والإدراك الهيوليّ الفكريّ أو القلبيّ، والمسير العمليّ للنفس، سواء كان روحيّاً أو بدنيّاً.

وهذا النظام المنطقيّ الذي تشير إليه الآية هي منظومة متكاملة مترامية بوسع دائرة التقوى والعمل بالشريعة الغرّاء، فكلّ شرعة في الشريعة وكلّ حكم وتوصية دخيل في ازدياد إدراك الإنسان وقوّة تمييزه، نظير ما ورد في قوله تعالى: ﴿إن تتّقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾[1].

---

(١) الأنفال ٨: ٢٩.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾(١)، والآيات الكثيرة الواردة في أنّ الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

لا يهدي القوم الفاسقين ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٣).

لا يهدي القوم الكافرين ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٤).

لا يهدي من هو كاذب كفّار ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾(٥).

لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(٧).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ﴾(٨).

ولا يخفى أنّ الهدى والضلالة لغة من لغات العقل العملي الذي يعبّر عنه بالإدراك وعدم العلم في لغة العقل النظري، بل انّ الهداية سداد وتوفيق علاوة على الإدراك والتنظير لما مرّ أنّ الهداية تستخدم بمعنيين:

١ ـ معنى الإراءة.

٢ ـ الايصال للمطلوب.

---

(١) البقرة ٢: ٢٨٢.

(٢) الجمعة ٦٢: ٥.

(٣) المائدة ٥: ١٠٨. التوبة ٩: ٢٤، ٨٠. الصفّ ٦١: ٥.

(٤) البقرة ٢: ٢٦٤. التوبة ٩: ٣٧.

(٥) الزمر ٣٩: ٣.

(٦) غافر ٤٠: ٢٨.

(٧) العنكبوت ٢٩: ٦٩.

(٨) القصص ٢٨: ٥٠.

ونظير هذه الآية في الإشارة إلى منظومة التقوى كمنظومة منطقيّة تعصم الإدراك، قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وقوله تعالى في شأن الإنجيل: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

وكذلك قوله تعالى في شأن التوراة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾(٣).

فبيّن تعالى أنّ الكتب السماويّة لما فيها من علوم وحقائق وضياء وتذكّر للفطرة والعقل لا يسدّد لذلك ولا يصيبه إلّا المتّقون، فهناك شرطيّة تلازم ما بين التقوى والسداد في الإدراك والاستنتاج والوصول إلى الغاية المطلوبة، ونظير الآية في المقام: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٤).

ويشير إلى ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾(٥)، حيث تشير الآية إجمالاً إلى أنّ هناك ارتباط وثيق بين الطاهرة من الرذائل والمعاصي، وبين نيل درجات وصفات معاني القرآن الكريم.

وكذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾(٦).

---

(١) البقرة ٢: ٩٧.

(٢) المائدة ٥: ٤٦.

(٣) الأنبياء ٢١: ٤٨ و ٤٩.

(٤) آل عمران ٣: ١٣٨.

(٥) الواقعة ٥٦: ٧٧ ـ ٧٩.

(٦) الروم ٣٠: ١٠.

وفي القرآن الكريم بيانات لا تحصى مبيّنة للارتباط بين ارتكاب كلّ رذيلة أو معصية ، وأثرها في زلل الإنسان وخطائه في إدراك الأمور ، وكذلك العكس والارتباط بين ارتكاب كلّ فضيلة وطاعة وقدرة الإدراك والسداد للحقائق والأمور.

ولا تقتصر التقوى على الجانب العمليّ والعملانيّ ، بل كذلك في التسليم والاذعان للحقائق ، فإنّه يورّث قدرة إدراك وسداد وقوّة للوصول للحقائق والغايات.

ثمّ إنّ قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدىً وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰئِكَ عَلَىٰ هُدىً مِن رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] شديد التطابق مع الآيات الخمس في سورة البقرة ، أمّا مغايرة عنوان المتّقين بالمحسنين ، فالإحسان درجة عالية فوق التقوى بالمعنى الأخصّ ، وإن كانت التقوى بالمعنى العام شاملة لها ، ولا ريب أنّه كلّما ازدادت درجات الإيمان ودرجات التقوى ودرجات الطهارة زادت نسبة الهداية بالكتاب.

كما يشعر بذلك قوله تعالى: ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾[2] ، وأنّ مورد الآية في المطهّرين من الأمّة ، إلّا أنّه يستفاد منها بالفحوى والالتزام دخالة درجات الطهارة في درك وإبصار أنوار الكتاب وهدايته.

(١) لقمان ٣١ : ١ ـ ٥.

(٢) الواقعة ٥٦ : ٧٨ و ٧٩.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

المعلَم الثالث: الإيمان بالغيب

وهذه توصية ثالثة في النهج المعرفي في القرآن الكريم في قبال نهج الجهل ألا وهو الإيمان.

ففي هذه الآيات بيان لشرط ثالث للاهتداء للحقيقة وحصول المعرفة من الكتاب، وهو الإيمان بالغيب، وهو عنوان لمساحات من الحقيقة والواقعيّة تغيب عن محدودة إدراك الإنسان، وهذه التوصية والقاعدة ضروريّة ولا بدّ منها في كلّ بحث وتنقيب علميّ في أيّ علم من العلوم، فإنّ المسيرة العلميّة في كلّ علم إنّما تتواصل تنقيباً وتحقيقاً واستكشافاً لإيمان الباحثين بأنّ هناك مساحات من الحقيقة لم يدركوها بعد ولم يصلوا إليها.

ولولا أنّهم بانين على وجود مساحات وراء ما وصل إليه الإنجاز العلميّ الذي هم متخصّصون فيه، لما دأبوا على البحث والفحص، بل إنّ في قرارة كلّ النخب العلميّة على مرّ الأجيال أنّ مسيرة العلوم لم تقف يوماً ما عند حدّ تنتهي إليه، وهذا ممّا يبرهن أنّ مساحة الحقيقة الغائية أعظم من مساحة الحقيقة المكتشفة.

كما يتبيّن أنّ من ضرورة البحث العلميّ توطين النفس على وجود حقيقة غائبة ينصبّ الطلب والسعي والبحث نحو اكتشافها، فالإيمان بالغيب شرط أساس في السعي العلميّ والنهج المعرفيّ، بينما جحود الغيب يعني جمود الحركة العلميّة ومراوحتها في مكانها.

وربّما يشير إلى هذا الأصل المنطقيّ المعرفيّ القرآنيّ أيضاً، قوله تعالى:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾[١]، ومفاد هذه الآية أيضاً اجتناب الإنكار بالمساحات الغائبة من الحقيقة، وإن لم يكن يعني ذلك ولا يستلزم التسليم بشيء من دون دلائل وبيّنات، فإنّ بين التسليم بدون بيّنات أو الإنكار من دون بيّنات طريق ثالث معرفيّ يحثّ عليه القرآن، وهو السعي والفحص، ولا يمكن البناء عليه إلّا بالإيمان.

فتوطين النفس على وجود ما غاب عن الإدراك سبب يحثّ على المزيد من التعلّم، بل واستمراره، وهذا عكس الإنكار والمسارعة إلى الاسترابة والتشكيك، فإنّه يحول دون ذلك.

ثمّ إنّ هاهنا تساؤل في مغايرة تفسير الآية الكريمة بين ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾، فلماذا جُعل عنوان الإدراك والإذعان المتعلّق بالآخرة إيقان، بينما جُعل المتعلّق بالغيب إيمان، كما أنّه كذلك في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾[٢] في الآيتين، حيث أُطلق على الإذعان بالوحي النازل عليه، وعلى الأنبياء من قِبله أُطلق عليه الإيمان، فما هو الفرق بين العنوانين؟

ومن الملاحظ أنّ اليقين لم يُجعل متعلّقه في الآيات والروايات، الذات الإلهيّة، بل جُعل متعلّقه في الآيات، الآخرة، أو الإيقان بالآيات الإلهيّة، أو اليقين بوجود النار، ويُحذف متعلّقه ويقدّر بلحاظ سياق الجملة، بينما الإذعان به تعالى جُعل دوماً بعنوان الإيمان.

وقد ذكر في الآيات لليقين مراتب: علم اليقين ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ

(١) يونس ١٠: ٣٩.

(٢) البقرة ٢: ٤.

﴿الْيَقِينِ﴾[١]، وعين اليقين: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[٢]، وحقّ اليقين ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾[٣]، ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾[٤].

والإيمان وإن استعمل في مطلق الإذعان الشامل لمطلق مراتب اليقين والظنّ والرجاء إذا روعي الاحتمال والمحتمل وأُخذ على جانب الحيطة، كما ورد في الروايات، ففي قول الصادق عليه السلام: «إنّ الإيمان عشر درجات بمنزلة السُلَّم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة»[٥].

وروي في «الكافي» عن الباقر عليه السلام: «إنّ المؤمنين على منازل، منهم على واحدة، ومنهم على اثنتين... فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقو.... وعلى صاحب الستّ سبعاً لم يقو، وعلى هذه الدرجات»[٦].

وهذه الرواية تعطي عدم الحصر في درجات الإيمان.

وفي رواية أُخرى عن الصادق عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى خلق أجزاء بلغ بها تسع وأربعين جزءاً، ثمّ جعل الأجزاء أعشاراً، فجعل الجزء عشرة أعشار، ثمّ قسّمه بين الخلق» الحديث[٧].

فيظهر منها أنّ تقسيمه إلى مئات بل الآلاف من الدرجات.

---

(١) التكاثر ١٠٢: ٥.

(٢) التكاثر ١٠٢: ٧.

(٣) الواقعة ٥٦: ٩٥.

(٤) الحاقّة ٦٩: ٥١.

(٥) الكافي: ٢: ٤٥، الحديث ٢، كتاب الإيمان والكفر.

(٦) الكافي: ٢: ٤٥، الحديث ٣.

(٧) الكافي: ٢: ٤٤، الحديث ١.

وفي رواية رابعة عنه ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ وضع الإيمان على سبعة أسهم»[١].

ورغم إطلاق الإيمان على كلّ هذه الدرجات، إلّا أنّ بين استعمال الإيمان بمعنى مطلق الإيمان والتسليم يغاير استعمال الإيمان بمعنى أخصّ، وهو الإذعان والتسليم بشيء خارج عن حيطة الإدراك التفصيلي، بل يدركه الإنسان من وراء حجاب، أو فقل: يدركه بالآيات والدلائل.

وبعبارة أُخرى: أنّ الإيمان بالمعنى الأخصّ ما يُفرض فيه عدم الإحاطة بالشيء، بل إدراك وجه الشيء إدراكاً إجمالياً، وهذا بخلاف اليقين (علم اليقين) أو (عين اليقين) أو (حقّ اليقين).

نعم، قد يُفرّق بين اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين وعلم اليقين بأن يعرّف اليقين كما عن «القاموس» (بإزاحة الشكّ)[٢]. ومن المعلوم أنّ معنى الشكّ ليس تساوي الاحتمال، بل هو افتراض النفس وحيرتها وتردّدها، سواء كان مستوى الإدراك لدى النفس عالٍ أو متوسّط أو نازل وهو الريب الذي مرّ ذمّ القرآن له، وأنّه منهج غير معرفيّ، بل نهج جاهليّ جهليّ، وعلى هذا المعنى من اليقين، وهو حالة سلامة النفس في كيفيّة التعاطي مع المعطيات العلميّة، سواء توفّرت النفس على حجم وفير من الإدراكات أو مقدار ضئيل، فإنّ لكلّ مقدار ووظيفة علميّة ومعرفيّة للتعاطي معها، ولا معنى حينئذٍ للاضطراب أو الجمود عن الحركة الفكريّة، ولا معنى للابتعاد عن الموقف العمليّ اتّجاه النتيجة العلميّة لذلك المطلوب، ولعلّ من هذا الباب ما ورد عن أمير المؤمنين ﷺ: «**الْإِسْلَامُ هُوَ التَّسْلِيمُ، والتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ، والْيَقِينُ هُوَ التَّصْدِيقُ، والتَّصْدِيقُ هُوَ الْإِقْرَارُ، والْإِقْرَارُ**

---

(١) الكافي: ٢: ٤٢، الحديث ١.

(٢) القاموس المحيط: ٤: ٢٧٨.

هُوَ الأَداءُ، والأَداءُ هُوَ العَمَلُ»[١].

«إنّ المؤمن يرى يقينه في عمله، والكافر يرى إنكاره في عمله»[٢].

فجعل عليه السلام المقابلة بين اليقين والإنكار حيث أنّ عنوان الإنكار يستعمل في الإباء والرفض من دون دليل وشاهد، ومن الواضح أنّ هذا المعنى من الإنكار ليس هو النفي المسند إلى بيّنات ودلائل، وإنّما هو الإباء من دون بحث ولا تنقيب علميّ.

وممّا يعزّز هذا المعنى للشكّ ما قيل عن جملة من اللغويّين أنّ الريبة والريب في الأصل القلق والاضطراب، وشاع استعمالها في سوء الظنّ والتهمة، ومن ثمّ فسّر قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾[٣]، باليقين، أي فُسّر الرجاء في قوله جلّ جلاله باليقين، ونحوه من استعمالات الرجاء في الآيات المتعلّقة بالآخرة، والمصحّح لهذا الاستعمال هو استناد هذا الراجي إلى موازين تقتضيها الحكمة والعلم، وإن كانت درجة إدراكه نازلة، بخلاف الجاحد والمنكر، فإنّه وإن تصاعدت درجة الاحتمال لديه، إلّا أنّه لا يقوم بالوظيفة والمسؤوليّة العلميّة اتّجاه هذه المعطيات العلميّة بخلاف الشخص الموقن، فعلى هذا يكون الوجه المصحّح لليقين في مقابل الشكّ هو استناد الشخص إلى موازين يستيقن بجدوائيّتها بغضّ النظر لدرجة الاحتمال التي وصل إليها.

ومن موارد إطلاق اليقين بهذا المعنى على الظنّ في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ

(١) الكافي: ٢: ٤٥، الحديث ١. عيون الحكم والمواعظ: ٥٨.

(٢) أصول الكافي: ٢: ٤٥، كتاب الإيمان والكفر ـ باب نسبة الإسلام.

(٣) الكهف ١٨: ١١٠.

﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[١]، وغيرها من موارد الاستعمال.

مع أنّ الظنّ استعمل في القرآن في موارد أُخرى كثيرة في مقابل الحقّ، بل أُطلق الظنّ على ما يوجب اليقين المنطقي الأرسطيّ، أي ما ينبع من الحسّ، كما في قوله تعالى في شأن اليهود والنصارى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِن عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾[٢]، فالمقابلة بين اليقين والظنّ هاهنا وإطلاق الظنّ على الحسّ إنّما هو بلحاظ ترك اليهود والنصارى ما هو أقوى في درجة العلم والحجّيّة، وهو قول عيسى ومعاجزه، وأنّه سيبقى ويساهم في إقامة دولة الحقّ في الأرض، وركنوا إلى ما هو أضعف في درجة العلم وهو الحسّ، ومن ثمّ أُطلق عليه الظنّ بهذا الاعتبار، وهذا معنىً من الظنّ غير ما هو مستعمل في المنطق اليوناني، مع أنّ المنطق الأرسطيّ قد فاوت في درجات أسباب العلم، فجعل الفطريّات، ثمّ الأوّليّات، ثمّ البديهيّات، ثمّ الحسّيّات، ثمّ التجربيّات، ثمّ الحدسيّات، أي بينها هذه الأقسام الستّة درجات متفاوتة في أسباب العلم، فلا يمكن للدرجة الأضعف أن تناهض الدرجة الأقوى.

وعلى أيّ تقدير، فالإيمان بالمعنى الأخصّ يغاير عين اليقين وحقّ اليقين، بل علم اليقين بالمعنى الذي يفرض فيه الإحاطة، ولم نقف ـ كما مرّ ـ على مورد لم يُجعل متعلّق اليقين ـ فضلاً عن عامّه وحقّه وعينه ـ معرفة الله، بل جُعل متعلّقاً للإيمان.

ثمّ إنّ ما ورد في الروايات من المغايرة بين المؤمنين والمتّقين والموقنين

---

(١) البقرة ٢: ٤٦.

(٢) النساء ٤: ١٥٧.

والمخلصين يشير إلى اختلاف مراتب الإدراك في المعرفة الإيمانيّة، وحيث تبيّن الرواية أنّ الفارق بين المؤمنين والمسلمين، والذي قد بيّنته الآيات أنّه طورٌ نوعيٌ متكامل وراء طور ابتداء الإسلام.

هذا الفارق بينهما هو بعينه الفارق بين مقام المتّقين والمؤمنين كذلك الفارق بين الموقنين والمتّقين وبين المخلصين والموقنين.

وفي الحقيقة أنّ هذه الدرجات تابعة لدرجات المعرفة والبصيرة، فالمؤمنون حيث يشوب معرفتهم جانب من الإبهام والإجمال، ومن ثَمّ تكون الحجّيّة لديهم تعبّديّة، أي علميّة مشوبة بإبهام وإجمال.

بينما الحجّيّة عند الموقنين حجّيّة علميّة تفصيليّة، وهي فوق الحجّيّة التعبّديّة، أي لا إبهام فيها ولا إجمال، وإن كان فيها تسليم وانقياد للحقّ والحقيقة، ومن ثمّ تكون طاعة وتسليم الموقن لإبصاره الحقيقة، ويكون استمساكه بطريق الصواب أشدّ من عموم المؤمنين.

وممّا يشير إلى هذا المعلَم الثالث في نهج المعرفة قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1]، فخصّ تعالى حصول المعرفة والهداية ونزول الرحمة التي هي عبارة عن السعادة بالموقنين.

المعلَم الرابع: الهداية وافتراقها عن عموم العلم

حيث أنّ القرآن رغم إشادته الكثيرة بالمديح للعلم، إلّا أنّه يؤكّد من جانب آخر على الهداية ويقع الكلام في المائز بين عموم أنواع العلم والعلوم، وبين حقيقة الهداية.

---

(١) الجاثية ٤٥: ٢٠.

والهداية كما في «صحاح الجوهري» و«القاموس»: الرشاد والدلالة[١]، وهذان المعنيان عبارة أُخرى عن الايصال إلى المطلوب، وهو الرشاد والرشد، والثاني إراءة الطريق، وهو الدلالة والكاشفيّة، وقريب من ذلك ما ذكره الفتوني في «مرآة الأنوار»، قال: «الهداية في الاستعمال الشرعيّ: الدلالة إلى الحقّ والدعاء إليه، وإراءة الطريق والإرشاد إليه، والأمر به»[٢].

وبشيء من التدقيق، فإنّ المائز بين المعنيين للهداية هو الفارق بين فعل قوّة العقل النظريّ الذي شأنه الإراءة ومجرّد الإدراك من دون استدعاء عمل ولا حركة، بخلاف فعل قوّة العقل العمليّ الذي شأنه الدعوة والتحريك والبعث والحاكميّة والآمريّة والناهويّة بالزجر، وإن لم يصل إلى حدّ الإلجاء. وبالتالي فهذان المعنيان لغتان للعقل النظريّ والعمليّ.

ومن أمثلة التعدّد لمعنى الهداية ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٣]، فالإنذار إراءة للطريق يقوم به الأنبياء والرسل، فهم المنذرون، والهداية وهي الايصال للمطلوب وهو دور يقوم به الأئمّة، سواء أكانوا من الأنبياء أو الأوصياء.

وعلى أيّ تقدير: فبين الهداية بمعنييها فرق فارق مع مطلق الآية، فإنّ كلّ علم لا يتخطّى حدود متعلّقه وموضوعه وغايته، فمثلاً علوم الطبيعيّات، كعلم الفيزياء يتناول أحوال المادّة، وعلم الأحياء يتناول أحوال الكائن الحيّ الجسماني، وعلم الكيمياء يتناول التفاعل بين عناصر الموادّ، وعلم الرياضيّات يتناول العدد

---

(١) الصحاح: ٦: ٢٥٣٣. القاموس المحيط: ٤: ٤٠٣.

(٢) مرآة الأنوار مشكاة الأسرار: ٥٤٤.

(٣) الرعد ١٣: ٧.

موالمعدود... وهلمّ جراً، كلّ علم له موضوع يبحث عن اتّصافه بحكم أو بصفة ما يسمّى المحمول، وهذا الحكم أو الصفة هي الغاية من ذلك العلم، ولا ريب أنّ هذه الغاية محدودة لا تتناول ما وراءها، ودوائر مساحات أبعد.

ومن ثمّ صحّ ما يقال من أنّ غاية العلم لا تُحدّد ما وراءها، فقد تُوظّف هذه الغاية إلى غايات مختلفة وراءها، فعلم الفيزياء وعلم الذرّة الذي يُعبّر عنه بعلم الفيزياء النوويّة، قد يُوظّف للمقاصد السلميّة النافعة، وقد يُوظّف للأهداف الحربيّة المهلكة للنسل البشريّ.

فالعلم النوويّ من حيث هو، لا يُحدّد المسار والاتّجاه فيما وراء غايته، وكذلك علم الأحياء وما يُعرف بعلم الباحث عن المسائل الجرثوميّة والبكتيريّة أو مسائل المحاليل والعناصر الكيميائيّة الخطرة، فإنّ هذه العلوم قد تُوظّف وتُجيّر للخدمة البشريّة والتنمية والعمران والبيئة الكونيّة، وقد تُوظّف لهلاك البشريّة والبيئة، فإنّ هذه العلوم بنفسها لا تحدّد مسار الخير والشرّ، بل لا بدّ من علم آخر وراءها يتحدّد به المسار، وليس هذا القصور خاصّ بالعلوم الطبيعيّة كذلك خاصّ بالعلوم الروحيّة والإنسانيّة والنفس، فإنّ غاية هذه العلوم تحديد أحوال النفس وحالات القوّة فيها وحالات الضعف والتدبير والترويض لقوى النفس أو في بيئة الأُسرة أو في البيئة الاجتماعيّة، كما في العلوم الاجتماعيّة، كالعلوم السياسيّة والإداريّة والاستراتيجيّة، وغيرها من العلوم النظميّة، فإنّها مهما بلغت فلها غاية محدودة وهي النشأة الأرضيّة، وأمّا ما وراءها من الحياة في العوالم الأُخرى، فليست في متناولها، ومن ثمّ تقصر هذه العلوم في تحديد المسار في العوالم اللّاحقة، فلابدّ من علم ومعرفة فوقها يوظّفها في مسار الخير والسعادة والكمال، سواء في النشأة الدنيويّة أو النشآت اللّاحقة، فالعلوم في نفسها

لا تُحدّد الغايات التي وراءها، بل هناك علم جامع يُحدّد خريطة المسار ويكون فوقيّاً مشرفاً مهيمناً عليها، وهذا هو معنى الهداية.

ومن ثمّ مرّ في معنى الهداية إمّا بمعنى إراءة الطريق، وهو المسار أو الإيصال إلى المطلوب، وبالتالي اختلفت الهداية عن مطلق العلم، فإنّ الهداية تستهدف بالدرجة الأُولى التوظيف والاستثمار الذي يتعلّق بالعلوم، وتجعل من العلوم علوماً هادفة للسعادة والفلاح، ولك أن تقول: إنّ الفارق بين العلم والهداية نظير الفرق بين إدراكات العقل النظريّ حيث يُدرك مطلق وجود المعلومات، وبين العقل العمليّ، فإنّه يُعمل المعلومات والعلوم في مسير الكمال والخير والسعادة، كما في قول الإمام الكاظم عليه السلام في تعريف العقل بأنّه «ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان»[١]، وعلى ضوء ذلك فالهداية أمر أرفع مهيمن على العلوم، ومن ثمّ كانت الغاية المهمّة من الكتاب والصفة العليّة للقرآن أنّه كتاب هداية، وهذا معلَم مهمّ في نهج المعرفة الذي يهديه القرآن الكريم بينما في المدارس المنطقيّة الأُخرى لا تتناول الغايات البعيدة، بل تقتصر على الغايات المحدودة، وهذا مائز آخر بين نهج المعرفة في القرآن والمناهج البشريّة.

الغيب والانتظار

قد ورد في جملة من الروايات عنهم عليهم السلام في تفسير الغيب في هذه الآية بالإمام المهدي المنتظر عليه السلام.

ففي رواية أبي بصير، قال: «سألت الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ... ﴾، فقال: المتّقون

(١) الكافي: ١: ١١، الحديث ٣.

شيعة عليّ عليه السلام ، والغيب فهو الحجّة الغائب ، وشاهد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾[1][2].

وبيان الرواية بقرينة بقيّة الروايات الواردة المفسّرة للغيب بمطلق الغيب ، في صدد بيان أبرز معالم الغيب ، وهو الإيمان بمجيء دولة الحقّ كغاية وحكمة من خلقة الأرض.

ومجموع الآيات في المقام يعضد بروز هذا المصداق ، حيث ذكر في الآيات الإيمان بالكتب السماويّة واليقين بالآخرة ، وهو يفترض فيه الإيمان بالله وبالمرسلين ، فمع إفراد عنوان الإيمان بالغيب في مقابل ذلك ، يبرز هذا المصداق من الغيب كمورد جليّ يراد من هذا العنوان ، لا سيّما بضميمة ما استشهد به عليه السلام في قوله تعالى من سورة يونس ، حيث إنّ احتجاج المشركين مع النبيّ صلى الله عليه وآله ومطالبتهم بنزول آية ربّانيّة فاصلة بين الطرفين ، والظاهر من هذه الآية أنّ سِمَتها تأييد ربّاني للنبيّ صلى الله عليه وآله ، لا سيّما وأنّ البيان في الآيات السابقة على ذلك في تلك السورة حول اختلاف الناس من بعد ما كانوا أمّة واحدة.

ومن البيّن أنّ مجيء دولة الحقّ بحسب الوعد القرآنيّ في الآيات العديدة وروايات الفريقين ، هو التأييد العظيم الموعود به النبيّ ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[3].

ومن ثمّ يظهر أنّ تفسير المتّقين بشيعة عليّ عليه السلام هو بيان لاستكمال مراتب التقوى.

---

(١) يونس ١٠: ٢٠.

(٢) كمال الدين: ٢٩.

(٣) التوبة ٩: ٣٣.

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

ولا يخفى أنّ هاتين الجملتين معطوفة على الصلة لاسم الموصول ، وهو في موضع نعت أو بيان للمتّقين ، فتكون هذه الجمل الثلاثة في الصلة مبيّنة لأعمدة التقوى وهي الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة ، والإنفاق ممّا يملكه المؤمن ، كما لا يخفى أنّ إقامة الصلاة يغاير مجرّد أدائها ، بل إقامة الصلاة لا يقتصر على أدائها بحدودها ، بل يشمل ما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾[١].

وقوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[٢].

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾[٣] ، أي إقامة الصلاة كشعيرة في المجتمع كما أنّ هذه الآية من الحجّ تبيّن عمدة وظائف الحاكم في نظام الشريعة ، فيظهر من كلّ منهما أنّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ركنان في التقوى وركنان في وظائف الحكم.

وقد بيّن أنّ هذين الركنين يؤسّسان البُنية الرئيسيّة لمجتمع الإيمان ، أحدهما في البُعد الروحيّ ، سواء الفرديّ أو الاجتماعيّ ، والآخر البُعد المادّي ، وهو التكافل في المادّة والأموال ، وفيما ورد عنهم عليهم السلام شمول الإنفاق إلى إنفاق العلم ومعرفة الهداية ، فعن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : « ممّا علّمنا هم ينبئون ، وما علّمناهم من القرآن يتلون »[٤] ، وهو بيان للمصاديق الأكثر خطورة.

---

(١) مريم ١٩ : ٥٥.

(٢) طه ٢٠ : ١٣٢.

(٣) الحجّ ٢٢ : ٤١.

(٤) معاني الأخبار : ٢٣ ، الحديث ١.

المعلَم الخامس: في نهج المعرفة القرآنيّ
شرطيّة العبادة في قوّة الإدراك والبصيرة

حيث أنّ هاتين الجملتين في الآية من إقامة الصلاة والإنفاق، كما مرّت الإشارة إليه وردتا في سياق تعريف المتّقين، وبيان التقوى التي توجد الأهليّة لإدراك الهداية القرآنيّة ومعرفتها، ففي هاتين الجملتين بيان لارتباط السلوك الروحيّ للإنسان في ضمن برنامج ونظام الصلاة وارتباطه بقوّة إدراك الإنسان للحقائق، وقد نقل عن كثير من المحقّقين أنّهم كانوا إذا استعصت عليهم المسائل تنفّلوا بركعات بغية أن تنحلّ لديهم عُقد المسائل العلميّة.

والحاصل: أنّ ما للصلاة من خواصّ من أنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾[١]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** ﴾[٢]، وأنّها معراج وعروج المؤمن، فإنّ لتهذيب قوى النفس الأثر البالغ في عدم مشاغبتها للعقل، والأثر البالغ لعدم تعصّي النفس وتمرّدها، وعدم جحودها أمام الحقائق.

ومن ثمّ أخفقت المدارس المنطقيّة الكثيرة في عصمة الفكر الإنسانيّ، حيث أغفلت التهذيب الأخلاقي، أو أغفلت البرنامج الأمثل في تهذيب الأخلاق الذي هو الصلاة، ومن أهمّ خواصّ الصلاة إيجابها للذكر، والذكر هو من أهمّ معالم نهج القرآن الكريم، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ** ﴾[٣].

---

(١) العنكبوت ٢٩: ٤٥.

(٢) طه ٢٠: ١٤.

(٣) يس ٣٦: ٦٩.

وهناك العشرات من الآيات التي تشير إلى هذا النهج في القرآن، وأنّه من أهمّ خواص منهاج السماء والكتب النازلة على الأنبياء، وأنّه الغاية لجملة من الأحكام في الشريعة، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٢].

والذكر اسم للنبيّ ﷺ وللقرآن الكريم أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[٦].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ﴾[٧] فيه بيان لغاية القرآن، مع أنّ القرآن الكريم قد وصف بأوصاف عديدة، كالنور والهداية والحكمة، وغيرها، إلاّ أنّه من أهمّ الأوصاف فيه (الذكر).

---

(١) الغاشية ٨٨: ٢١ و ٢٢.

(٢) القصص ٢٨: ٥١.

(٣) الطلاق ٦٥: ١٠ و ١١.

(٤) آل عمران ٣: ٥٨.

(٥) النحل ١٦: ٤٤.

(٦) الأنبياء ٢١: ٥٠.

(٧) القمر ٥٤: ١٧.

ومادّة الذكر تشير إلى التذكّر لما هو موجود في الأصل في فطرة الإنسان، ومن ثمّ بيّن الهدف من رسالة الرسل في قوله ﷺ: «فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَواتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِياءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ العُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ المَقْدِرَةِ»[1].

وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[2]، حيث تشير الآية إلى تطابق الفطرة مع أحكام الشريعة، وهذا التطابق في الخطوط العامّة بمعنى قضاء الفطرة بذلك وإدراكها.

ثمّ إنّ في منهج التذكير الذي هو من معاني المنهج السماوي والمنهج الوحياني جملة من الخصائص:

الأولى: اعتماد التنبيه على البديهيّات (أي اعتماد الأدلّة الأقرب لإدراك البديهيّ للفطرة)، وهذا بخلاف خطاب الفلاسفة أو المتكلّمين، فإنّهم يعتمدون الأدلّة المتوغّلة في النظريّة، ممّا يصاحبها الكثير من الإجمال والإبهام، وبالتالي عدم انجذاب عموم الناس إلى أساليبهم وخطابهم.

الثانية: إنّ أسلوب التفكير أبعد عن الخطأ والاشتباه من الأساليب التي تعتمد المنهج النظريّ، فإنّ الأدلّة النظريّة كلّما ابتعدت عن البديهيّة أكثر وأكثر، دبّ وكبر احتمال الخطأ.

الثالثة: إنّ في التذكير سهولة في تحريك الفطرة، وذلك بسبب إثارة مرتكزات مغروزة في الأصل في فطرة وقوى الإنسان، وهذا بخلاف الخطاب النظريّ

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة ١.

(٢) الروم ٣٠: ٣٠.

التجريديّ، فإنّه أبعد عن أنس الفطرة وألفها.

الرابعة: إنّ في التذكير موازنة بين قوى النفس والحيلولة بين طغيان بعضها على البعض الآخر، وهو شاكلة الفطرة في أصل الخلقة، وهذا بخلاف المناهج النظريّة، فإنّها توجب الإفراط في التركيز على قوّة الفكر أو بعض القوّة الإدراكيّة ممّا يتسبّب التغافل عن بقيّة القوى وعدم إحكام السيطرة أو الموازنة بينها وبين بقيّة القوى، من ثمّ يُمزج في الخطاب القرآنيّ بين الجانب التعليميّ والتربويّ، كما في قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾[١].

فجمع بين التلاوة والتزكية والتعليم، والتلاوة هي التعليم الابتدائي.

وكذا في قوله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[٢]، فجمع بين الخطاب بالحكمة والوعظ الحسن الذي هو ترويض وتهذيب للقوى العمليّة في النفس، بل للقوى الإدراكيّة أيضاً، وهذا ما يفتقد بوضوح في خطاب المدارس البشريّة الأخرى.

وقد مرّ الصلة بين إقامة الصلاة وحصول الذكر والتذكّر، حيث أنّ في إقامة الصلاة ترويض للقوى النفسانيّة والغرائز عن الجموح والطغيان، والذي يسبّب انطماس الفطرة ودفنها تحت ركام الهيئات الرذيلة، فيستعصي على الإنسان إدراك الحقائق والحقيقة لعجزه عن التذكّر، وهذا رباط خطير تشير إليه الآيات القرآنيّة في ضعف وقصور إدراك كلّ إنسان بسبب الهيئات الرديّة الظلمانيّة التي تنتقش في النفس، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ**

(١) الجمعة ٦٢: ٢.

(٢) النحل ١٦: ١٢٥.

لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

وقوله تعالى: **﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**(٢).

وقوله تعالى: **﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾**(٣)، وفي الآية إشارة إلى أنّ الطبع على القلب حصول حجاب على سمع القلب وبصيرة وإبصار القلوب، فتحصل غفلة عن التذكّر.

وقد صرّح بذلك في قوله تعالى: **﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾**(٤).

وقوله تعالى: **﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾**(٥).

وغيرها من الآيات التي تشير إلى تأثّر إدراك الإنسان الفطريّ بنتيجة الأعمال الرديّة التي يرتكبها، بل لا يقتصر هذا الأثر السلبيّ على الأعمال الرديّة، بل قد بُيّن في الآيات أنّه ينجم عن الفعل الإدراكيّ الخاطئ للإنسان أيضاً الذي هو نحو من العمل العلميّ الذي تمارسه النفس، كما في قوله تعالى: **﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾**(٦).

بل أنّ هناك إشارة هامّة أُخرى في الآيات إلى أنّ كمال التذكّر لا يحصل في

---

(١) التوبة ٩: ٩٣.

(٢) المطفّفين ٨٣: ١٣ و ١٤.

(٣) النحل ١٦: ١٠٨.

(٤) الأعراف ٧: ١٠٠.

(٥) المنافقون ٦٣: ٣.

(٦) يونس ١٠: ٧٤.

فطرة الإنسان إلّا بذكر مبدأ الوجود ومنبعه ومصدر الواقعيّة، فإذا جهل أكبر حقيقة وواقعيّة، ينجرّ ذلك إلى جهل جملة من جمود الفطرة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[1].

وينبّه على ذلك ما ذكر في الأبحاث العقليّة من براهين الصدّيقين على وجوده تعالى انطلاقاً من التسليم بأصل الواقعيّة، وأنّ ذلك عين التسليم بالواقعيّة الأزليّة الأبديّة السرمديّة، إذ كلّ واقعيّة لا بدّ أن تستند إليها، وإلّا لفقدت واقعيّتها.

فالركون إلى أيّ واقعيّة ما، ينطوي على الركون إلى الواقعيّة الأزليّة، وقد ذكروا ذلك بصياغات وتقارير عديدة رشيقة فائقة لا تحتاج إلى مقدّمات نظريّة، بل تستند إلى أبده البديهيّات.

وعلى ضوء ذلك فتكون البيانات الوحيانيّة الواردة في التوحيد وشؤون الألوهيّة ما هي إلّا تذكير بهذه البديهيّة على الإطلاق، والظريف اللطيف في هذه البراهين أنّها تبيّن أنّ أوّل التصوّرات كما أنّ أوّل التصديقات هو الباري تعالى، لا ما قيل من أنّ أوّل التصوّرات مطلق الوجود أو الوجود المطلق، وأنّ أوّل التصديقات بطلان التناقض، وذلك لأنّ مطلق الوجود أو الوجود المطلق ينطوي فيه تصوّر الوجود الأزليّ، وأمّا اجتماع النقيضين فيفترض فيهما التقييد في الوجود والعدم، والتقييد في كلا الطرفين يستند إلى الإطلاق في الواقعيّة، فتكون الواقعيّة المطلقة سابقة عليهما.

أو لك أن تقول: إنّ صدق بطلان اجتماع النقيضين كقضيّة صادقة في الأزل أن تستند إلى واقعيّة أزليّة مطلقة، فهيمنة تلك الواقعيّة المطلقة وإحاطتها وقيوميّتها

---

(١) الحشر ٥٩: ١٩.

على كلّ شيء.

ثمّ لا يخفى الإشارة واللطيفة الموجودة في تسمية النبيّ ﷺ بالذكر في قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ ﴾[١]، فإنّ أوّل الذكر -كما مرّ- هو الباري تعالى، وثنّى بعد ذلك بالنبيّ ﷺ.

وفي «مرآة الأنوار» للفتوني: «أنّه قد ورد في تأويل الذكر في الآيات، بالقرآن»[٢]، وقد مرّت الإشارة إلى تلك الآيات، ولا يخفى أنّ هذا المعنى أيضاً يشير إلى أنّ مهمّات علوم الفطرة كلّها مودعة في القرآن الكريم، هذا وقال أيضاً: «أنه ورد تأويل الذكر بعليّ عليه السلام أيضاً، وبالأئمّة من آل محمّد عليهم السلام»[٣]، ولا يخفى أنّ هذا التسلسل في مراتب الذكر بالبدءة به تعالى، ثمّ بالرسول ﷺ، ثمّ بالقرآن، وعليّ، ثمّ بالأئمّة من ولده عليهم السلام.

---

(١) الطلاق ٦٥: ١٠ و ١١.

(٢) و (٣) مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار: ٢٤٧.

تكامل المعرفة الدينية
بين
النقد التاريخي وتقليد السلف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1]

قد جرى لغط شديد حول مفاد هذه الآية ، وهي من أُصول المناهج التي يجنّدها القرآن كمحكم من الآيات ، وقد اتّخذ منها نبراساً في كيفيّة التحرّي عن العقيدة ، ودور السلف السابق في تحديد المسار العقائدي ، فهناك عدّة تفاسير لمفاد الآية:

تفسير أوّل للآية: التحريف الأموي لمعنى الآية

وهذه الآية قد احتجّ بها أهل سنّة الجماعة والخلافة على عدم لزوم تحديد الموقف تجاه الصحابة ، وما جرى منهم وما جرى بينهم ، وأنّهم أمّة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون ، فلن نُسْئَل عن أعمالهم ، ولسنا مطالبين بتقييمها ، ولا بتعيين الصائب منها من الخاطئ ، ولا الحقّ منها والباطل.

والمتتبّع في روايات أهل السنّة يجد أنّ تاريخ الروايات حافل عندهم على احتجاج بني اُميّة بدءاً من معاوية بن أبي سفيان ، وأنّهم قد جنّدوا الرواة للاحتجاج

(١) البقرة ٢: ١٣٤.

بهذه الآية على غلق باب مساءلة الولاة، وعدم مساءلتهم ومراقبتهم، وعدم محاسبتهم عمّا يفعلون، ولكي لا تقوم الرعيّة بردعهم عن المنكر السياسي والمالي والأخلاقي، فيتخلّص ولاة بني أُميّة بهذا التعريف لمفاد الآية عن مقاومة ومعارضة الناس لما يفعلون، ولئلا تتفطّن الأمّة لما جرى بين الصحابة كي لا يهتدوا إلى المسير الهادي لدى أهل البيت عليهم السلام.

مع أنّ اللفظ الوارد في الآية ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ﴾ ليس ـ بفتح التاء ـ أي ليس فيها نهي عن السؤال عمّا كانوا يعملون، وإنّما فيها نفي مسؤوليّتنا عن أعمالهم التي كانوا قد عملوها، ولو من باب ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[(١)].

قواعد مسؤوليّة الموقف تجاه أعمال الأمم

القاعدة الأُولى: مع أنّ هناك أصل عظيم مرويّ في الحديث النبوي عند الفريقين، وهو قاعدة شريفة مهمّة، وهي قوله صلى الله عليه وآله: «من أحبّ عمل قوم أُشرك معهم، ومن أحبّ شيئاً حشر معه»[(٢)]، وهذه القاعدة الشريفة ربّما يتراءى منها

---

(١) الأنعام ٦: ١٦٤. الإسراء ١٧: ١٥. فاطر ٣٥: ١٨. الزمر ٣٩: ٧.

(٢) قد ورد هذا الحديث النبويّ الشريف بألفاظ مختلفة، وصيغ متنوّعة متعدّدة المعنى، فهو من المستفيض، بل من المتواتر، معنى عند الفريقين، ونذكر نبذة من المصادر والبقيّة لا تخفى على الباحث المتتبّع، فمن مصادرنا:

بشارة المصطفى للطبري: ٢٧٨. مستدرك الوسائل: ١٢: ١٨٠. بحار الأنوار: ٥٣: ٣٨ و: ٦٥: ١٣١ و: ٦٦: ٨١. العمدة لابن بطريق: ٢٧٨، وغيرها.

وأمّا المصادر الأُخرى:

صحيح البخاري: ٤: ٢٠٠، باب مناقب المهاجرين و: ٧: ١١٢ و١١٣، كتاب الأدب. وصحيح مسلم: ٨: ٤٢، كتاب البرّ والصلة والآداب ـ باب المرء مع من أحبّ. مسند أحمد بن حنبل: ٣: ٢٢٢، فيما رواه عن أنس بن مالك. سنن الدارمي: ١: ٩٢ ⇦

التضارب مع ظاهر الآية، حيث إنّ أعمال الآخرين يسأل الإنسان عنها من جهة المحبّة لها أو الكراهة والبراءة منها.

القاعدة الثانية: بل أنّ هناك قاعدة دينيّة مهمّة تابعة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي: «مطلوبيّة ورجحان حبّ المعروف على صعيد المحبّة القلبيّة ولزوم الكراهة والنفرة من المنكر على صعيد القلب، وموضوع المعروف والمنكر في هذه المرتبة لا يختصّ بالمعروف والمنكر المعاصر لزمن المكلّف، بل يتّسع بوسع ما لروح الإنسان من أفق فوق الزمان، أي على الإنسان المكلّف أن يحدّد موقفه تجاه كلّ معروف ومنكر وقع في تاريخ وأدوار البشر منذ آدم إلى يومنا هذا، بل كذلك ما سيقع من أحداث أنبأ عنها القرآن أو السنّة المطهّرة، بل قد تستوسع هذه الدائرة إلى عوالم أُخرى سابقة ولاحقة، فيحبّ الإنسان ما هو معروف بقلبه، ويكره وينفر ما هو منكر بقلبه، وبالتالي أعمال الأمم التي قد خلت أو التي ستأتي نسأل عنها من جهة أفعال القلب من فعل المحبّة والتضامن والتولّي، أو فعل الكراهة والنفرة والتبرّي.

نعم، قد يقال بأنّ السؤال هنا منصبّ عن فعل المكلّف القلبي تجاه أعمال الآخرين، وليس مصبّ السؤال والمحاسبة هو نفس أعمال الآخرين، فيرتفع التنافي بين ظاهر الآية وهذه القواعد، وإلّا فالقرآن لم يفتأ في السور القرآنيّة يستعرض أنباء وأخبار وأحوال وأعمال شؤون الأمم السابقة منذ قابيل وهابيل

⇦ و: ٢: ٣٢١، باب المرء مع من أحبّ. المعجم الصغير للطبراني: ٢: ٤١. المعجم الأوسط: ٦: ٢٩٣. المعجم الكبير: ٣: ١٩. مجمع الزوائد: ١٠: ٢٨١. مستدرك الحاكم النيشابوري: ٣: ١٨. كنز العمّال: ٩: ١٠، وغيرها.

ولا يخفى أنّ هذه المصادر قد ذكرت طرقاً كثيرة للحديث في هذه المواضيع.

إلى نمرود وفرعون، فيستعرض سلسلة الصالحين، ويربّي على محبّتهم والتضامن معهم، والتحلّي بحليتهم، كما يستعرض الطواغيت والمتجبّرين ويندّد بهم، ويحذّر عن الاتّصاف بأوصافهم.

كما يوصي القرآن بالعبرة وبقراءة تاريخ الأمم السابقة، كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[٢]، وغيرها من الآيات الواردة في الحثّ على الاعتبار بتفتيش ما في أحوال الأُمم.

القاعدة الثالثة: وفي الحقيقة فإنّ التولّي والتبرّي توسّعه تعاليم القرآن الكريم إلى جميع الأمم السابقة، ولا يختصّ بالأمّة المعاصرة للإنسان، فتعاليم القرآن الكريم تؤكّد على المسؤوليّة الاجتماعيّة والعقيديّة الفكريّة، وعلى اتّخاذ الموقف من الفعل الاجتماعي إلى حدٍّ يجد القارئ للقرآن الكريم أنّ ترابط ونسيج الفعل الاجتماعي يتداعى تأثيره، ويتجاوز زمن وقوعه، ويمتدّ إلى أجيال وأزمنة لاحقة كحلقات مترابطة، وهذه من المعادلات العلميّة في علم الاجتماع التي كشف عنها القرآن الكريم، فكيف يمكن أن يؤسّس مذهب الفرديّة والتمحور الذاتي من ظاهر هذه الآية الكريمة، مع أنّ تقرير ماهيّة الفعل الاجتماعي حقيقة مفروغ عنها في تعاليم السور والآيات، وأنّ الأفعال في الأزمة السابقة مؤثّرة في البيئة الحاضرة والمستقبليّة كأمواج تتداعى منها مثيلاتها.

هذه الآية ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ تكرّر ورودها أيضاً في نفس السورة في رقم ١٤١، وسياق الآية

---

(١) الروم ٣٠: ٩.

(٢) الأنعام ٦: ١١.

في الموضع الأوّل بلحاظ الآيات التي قبلها في بيان أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنيه كانوا مسلمين، وهي ملّة إبراهيم، وأنّهم كانوا على مقام عند الله.

ثمّ تبيّن الآيات التي بعدها أنّ أهل الكتاب يدعون الناس ليكونوا هوداً أو نصارى ليهتدوا، فيردّهم القرآن الكريم بأنّ ملّة إبراهيم الحنيف هي الأحرى بالاهتداء بها، وأنّ الأنبياء جميعهم على دين واحدٍ، لا فرق بين أحد منهم، وأنّها صبغة الله، وأنّهم يحاجّون المسلمين في الله، مع أنّ نسبة الطرفين إلى الله واحدة ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾[1]، ثمّ تتابع الآيات أنّ أهل الكتاب يدّعون أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، فتقابل الآية بين قولهم وقول الله، وأنّه قوله تعالى أحرى بالاتّباع وأحجّ، وأنّ أهل الكتاب يكتمون الحقيقة، وما تحمّلوا من شهادة عنده من قول الله في العهدين السابقين بذلك، وأنّ الله ليس بغافل عن كتمانهم هذا.

ثمّ يأتي تكرار الآية، هذا! وقد احتدمت الأقوال في تفسير الآية الكريمة، لا سيّما وأنّ الآية تؤسّس قاعدة مهمّة في منهج المعرفة، وقد صاغ الأمويّون لها معنى، ومن قبلهم ومن بعدهم لسدّ باب البحث والفحص عمّا جرى من حقائق الأحداث بين الصحابة، سواء فيما جرى بينهم أو فيما جرى في عهد رسول الله منهم. أو فيما صدر منهم قبل الإسلام، وكذا فيما جرى بينهم عند وفاة رسول الله، واتّخذت هذه الصياغة في معنى الآية شعاراً لقفل أي بحث عن حقائق عهد الإسلام الأوّل.

فيروي الدارقطني في سننه بسنده عن أبي الدرداء، قال: «أربع سمعتهنّ

---

(١) البقرة ٢: ١٣٩.

عن رسول الله : لا تكفّروا أحداً من أهل قبلتي بذنب وإن عملوا الكبائر ، وصلّوا خلف كلّ إمام ، وجاهدوا ـأو قال: قاتلوا ـ، ولا تقولوا في أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ إلّا خيراً قولوا: ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ** ﴾ »[١].

وروى الطبراني في «المعجم الكبير» بسنده عن أبي راشد، قال: «جاء رجال من أهل البصرة إلى عبيد بن عمير، فقالوا: إنّ إخوانك من أهل البصرة يسألونك عن عليّ وعثمان.

فقال: وما أقدمكم شيء غير هذا؟

قالوا: نعم.

قال: ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ »[٢].

إلّا أنّ الذهبي علّق على حديث أبي الدرداء بقوله: «هذا باطل، ورواته تلفى هلكى»[٣].

وفي «تفسير السمعاني» ـبعدما ذكر تفسيراً سطحيّاً لمعنى الآية ـ قال: «وحكي عن بعض العلماء أنّه سئل عن ما وقع من الفتن بين عليّ ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة... فقرأ: ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ...** ﴾ الآية»، وهذا جواب حسن في مثل هذا السؤال.

وروى ابن عساكر، قال: «أخبرنا أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم بن أررة الفقيه، حدّثنا أبي، قال: حضرت أحمد بن حنبل وسأله رجل عمّا جرى بين عليّ

---

(١) سنن الدارقطني: ٢: ٤٢.

(٢) المعجم الكبير: ١: ١٥٠.

(٣) تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق: ١: ٢٥٦ و ٢٥٧.

ومعاوية، فأعرض عنه، فقيل له: يا أبا عبدالله، هو رجل من بني هاشم، فأقبل عليه، فقال: اقرء: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ »[١].

وروى ابن كثير في «البداية والنهاية»، قال: «وروى ابن عساكر عن أبي زرعة الرازي أنّه قال له رجل: إنّي أُبغض معاوية.

فقال له: لِمَ؟

قال: لأنّه قاتل علياً.

فقال له أبو زرعة: ويحك! إنّ ربّ معاوية رحيم، وخصم معاوية خصم كريم، فايش دخولك أنت بينهما؟»[٢].

وروى ابن أعثم في كتاب «الفتوح»: «أنّ حرقوص سئل رجلاً من يتولّى من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: أتولّى أولياء الله المؤمنين، أتولّى أبا بكر وعمر وعثمان ومقداداً وسلماناً وصهيباً وبلالاً وأسلاف المؤمنين.

قال: فممّن تتبرّأ؟

قال: ما أتبرّأ من أحدٍ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ... ﴾ الآية»[٣].

وقال آخر حول ما جرى بين الصحابة: «إن أمكن الكلام بينهم بعلم وعدل، وإلّا تكلّم بما يعلم من فضلهما ودينهما، وكان ما شجر بينهما وتنازعا فيه أمره إلى الله، ولهذا أوصوا بالإمساك عمّا شجر بينهم، لأنّا لا نسئل عن ذلك كما قال عمر بن عبدالعزيز، تلك دماء طهّر الله منها يدي فلاأحبّ أن أُخضّب بها لساني،

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٥٩: ١٤١.

(٢) البداية والنهاية: ٨: ١٣٩.

(٣) الفتوح: ٤: ٢٦٦.

وقال آخر: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ... ﴾ الآية»[١].

وقال البعض: إذا كان هناك خلاف بين الصحابة فكان حسن النيّة والإخلاص دائماً حاضرين.. وماذا جنى من محاكمتهم، ومن تكون حتّى تحاكمهم، وقد حذّرنا الله من ذلك إذ يقول في موضعين من القرآن الكريم ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ... ﴾[٢].

وقال أبو بكر الخلّال في كتاب السنّة ـ بعدما أورد أقوالاً لجملة من الرواة في حَظْر التعرّض لما جرى بين الصحابة، ولزوم الكفّ عمّا شجر بينهم ـ: «روي عن ابن حنبل أنّه استشهد بهذه الآية لذلك»[٣].

والمتصفّح لكلماتهم حول ما جرى في الصدر الأوّل من أحداث يرى لتمسّكهم بهذه الصياغة لمعنى الآية موارد كثيرة، وصيرورة هذا المعنى قاعدة منهجيّة.

ومحصّل هذا المعنى الذي ذهبوا إليه في الآية هو: أنّ الأمم الماضية لا يعيننا أي شأن منهم لأنّهم أمم قد خلت ومضت وحسابهم على ربّهم، فلهم أعمالهم ولنا أعمالنا، وكأنّ المعنى في هذه الآية هو أن يجعلوا قاعدة وهي: المسؤوليّة لكلّ عامل عن عمله لا عن أعمال الآخرين سبباً لعدم الاعتناء بشأن وأحوال الأمم الماضية، لأنّنا غير مسؤولين وغير مطالبين بما كانوا يعملون، وكان ذلك مدعاة لأن لا يقاضي الإنسان بحكم على تلك الأمم أو على ما شجر بينهم من اختلاف، ولكن أخذهم هذه النتيجة من معنى الآية تحريف بيّن، وذلك:

---

(١) منهاج السنّة: ٦: ٢٥٤.

(٢) حقيقة الخلاف بين علماء الشيعة وعلماء المسلمين لسعيد إسماعيل: ١٥ و ١٦.

(٣) كتاب السنّة للخلّال: ٢: ٤٨١.

حثّ القرآن على تقصّي حقائق التاريخ

أوّلاً: إنّ القرآن الكريم لم يفتأ يقصّ على البشر أحوال الأمم السابقة، الصالحة والطالحة. وما جرى من شؤونهم واختلافهم من عهد آدم، وما جرى بين هابيل وقابيل، وما جرى من الفراعنة وأصحاب الأخدود، وقوم عاد وثمود، وما كانوا عليه من شنيع الأفعال، فهذا دأب القرآن في تقصّي سجلّات الأفعال لتكون عبرة للبشر كي لا يقعوا مواقع الظالمين وأهل القبائح، وليتأسّوا بأهل الحقّ والصلاح، ويستقيموا كاستقامتهم، فكيف يتوهّم أنّ القرآن يدعو إلى عدم الاعتبار والاتّعاظ بالأمم السابقة، بل ها هو قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾(١).

قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا...**﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا...**﴾(٣).

وقوله تعالى ـ في شأن أهل الكهف والذين اعتدوا عليهم ـ: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ...**﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ...**﴾(٥).

---

(١) يوسف ١٢: ١١١.

(٢) يوسف ١٢: ٣.

(٣) الأعراف ٧: ١٠١.

(٤) الكهف ١٨: ١٣.

(٥) البقرة ٢: ٩٩.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ (١).

بل أنّ القرآن يدعو إلى تربية الأجيال وتحديثهم بعبر التاريخ والأمم، كقوله تعالى: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢).

ثانياً ـ تاريخ صدر الإسلام مصدر من أُصول معرفة الدين:

إنّ تاريخ الإسلام والأحداث التي جرت فيه بما فيه من سيرة الصحابة ومواقفهم وأفعالهم، وما جرى بينهم ليس تاريخاً بحتاً ولا حقباً تاريخيّة محضة، بل هو من تاريخ الأديان المرتبط بأدلّة ودلائل ذلك الدين، وليحصل التمييز بين ما هو صافي الدين، وبين ما استحدث من إحداث تبديل فيه.

وبعبارة أُخرى كيف يتسنّى لمن يريد البحث في صحّة المذهب الذي يعتنقه، والنهج الذي يسلكه ليعذر ما بينه وبين ربّه، أن لا يتصفّح حقيقة أحداث تاريخ الإسلام، بل كيف يتعرّف الإنسان على دين وينتمي إليه لا يعرف تاريخه، وفي سورة آل عمران في الآيات التي تتعرّض إلى واقعة وغزوة أُحد والأُحُديّين ـوهم من شارك في غزوّة أُحدـ وكذلك آيات سورة الأنفال التي تتعرّض إلى البدريّين، قد تضمّنت الذمّ لطوائف منهم بشدّة، فضلاً عن الآيات التي تتعرّض إلى غزوة حنين في سورة البراءة، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، وغيرها من السور، كسورة المنافقين وذيل سورة الجمعة وسورة التحريم التي لا تفتأ تعلّم المسلمين في قراءتهم اليوميّة للقرآن على تمحيص حال الصحابة والتديّن بمنهج التمحيص، وتعبّدهم على ذمّ من اتى منهم بالموبقات، فتلاوة هذه السور

---

(١) الأعراف ٧: ٧.

(٢) الأعراف ٧: ١٧٦.

والآيات والإيمان بها دين من محكمات الكتاب العزيز، مضافاً إلى الأحاديث النبويّة الواردة بنفس هذا المضمون التي لا تحصى كثرة، كحديث الحوض، وحديث الناكثين والقاسطين والمارقين، وحديث أُغيلمة قريش وغيرها.

التاريخ هويّة الأُمم

ثالثاً: إنّ الحقّ والواقع الأصيل يعتزّ به ومحلّ فخر واعتزاز ولا يتنكّر منه، ممّن له هويّة ممتدّة وضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، كيف يتخوّف من ذلك التاريخ المجيد، وإنّما الذي يهرب من حقائق التاريخ هو صاحب الهويّة المسبوكة بوضع السياسات المرتسمة في أُفق السراب، وأي أُمّة أصيلة تتنكّر من تاريخها الذي هو هويّتها وأصلها وحسبها ونسب انتمائها، وإنّما يتنكّر من تاريخه من يتخوّف من بقاع مظلمة فيه ليلتصق بها، وينتمي إليها، وأمّا ذو التاريخ المنير الوضّاء فكيف لا يحب الانشداد إلى ذلك الماضي التليد وأثيل العزّ، فلا يمكن تصوّر صاحب مقالة حقّ ومنهج واضح يتأبّى من التعرّف على تاريخ مذهبه ودينه، بل كيف يتسنّى له التعرّف على حقيقة دينه ومذهبه من دون وقوفه على بدء الابتداء والولادة، وكيف له أن يوثّق ويعدّل من حمل تراث الدين ويصدّقهم ويركن إليهم ويؤمنهم على دينه وهو لا يعرف حالهم ولا سيرتهم ولا موقفهم ومسالكهم.

مسؤوليّة الموقف تجاه أحداث التاريخ

رابعاً: تطابق قواعد عدّة في مسؤوليّة الموقف

إنّه من القواعد الدينيّة التي لا غبار عليها المرويّة عن نبيّ الله ﷺ أنّ من أحبّ عمل قوم أُشرك معهم، ومن أحبّ حجراً حشر معه.

وقد روي هذا الحديث النبويّ بألفاظ متعدّدة بطرق مستفيضة عند الفريقين، وعلى ضوء ذلك فمعرفة أحوال التاريخ، وما جرى لأصحاب تلك الحقبة أمر بالغ الخطورة بحسب هذه القاعدة؛ لأنّ أعمالهم ومصيرهم يؤثّر على نمط أعمال الإنسان ومصيره إذا أحبّ عملهم وتولّاهم أو تبرأ منهم ومن عملهم، وتطابق هذه القاعدة قاعدة أخرى أصيلة، وهي وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب مرتبة القلب، فإنّ ما جرى في الأُمم السالفة من عدل فهو معروف يجب أن يحبّه الإنسان بحسب قلبه ويأمر بانتهاجه، ولذلك ما جرى من ظلم وقبح فيجب أن ينكره المسلم بقلبه، وينهى عن اتّباعه، إذ قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لها مراتب بحسب القلب واللسان واليد، وهذه القاعدة بحسب المرتبة الأُولى لا تختصّ بالأحياء، بل تعمّ الماضين، بل وتشمل القادمين في مستقبل الدهر.

وهذا بعدٌ بديع في خلقة الإنسان حيث إنّ الإنسان في مرتبة روحه وقلبه يشرف على الدهور والأزمنة، بل وعلى العوالم التي هي أوسع من الدنيا، ألا ترى كيف يحكي لنا القرآن الكريم عمّا جرى بين الملائكة وبين الله في استخلاف آدم ليعطينا العبرة، وهي أنّ الحكمة ألا يعترض المخلوق على أفعال الله تعالى إذا لم تتّضح له حكمة تلك الأفعال، وأنّ دين الله لا يصاب بالعقول، كما يبيّن لنا القرآن الكريم صفات أهل النار في المحشر، بل وفي جهنّم، ممّا هم عليه من رذائل يتواجهون بها فيما بينهم في تلك الدار ممّا يعطي عبرة للإنسان وهو في دار الدنيا.

وفي صحيحة الريّان بن شبيب، قال: «دخلت على الرضا عليه السلام في أوّل يوم من المحرّم...: يابن شبيب، إن سرّك أن تسكن الغرف المبنيّة في الجنّة مع النبيّ صلى الله عليه وآله

فالعن قتلة الحسين عليه السلام .

يابن شبيب ، إن سرّك أن يكون لك من الثواب مثل من استشهد مع الحسين بن عليّ عليه السلام فقل متى ذكرته : ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً .

يابن شبيب ، إن سرّك أن تكون معنا في الدرجات العلى من الجنان ، فاحزن لحزننا ، وافرح لفرحنا ، وعليك بولايتنا ، فلو أنّ رجلاً أحبّ حجراً لحشره الله عزّ وجلّ معه يوم القيامة »[(١)].

وروى الطبري في « بشارة المصطفى » : بسنده عن عطيّة العوفي ، عن جابر بن عبدالله الأنصاري : « قال : قال في حديث : يا عطيّة ، سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : من أحبّ قوماً حشر معهم ، ومن أحبّ عمل قوم أُشرك في عملهم »[(٢)].

وروى الشيخ الطوسي في « الأمالي » : بسنده إلى موسى بن عبدالله بن الحسن ، عن أبيه ، عن آبائه ، قال : « أتى رجل النبيّ صلى الله عليه وآله فقال : يا رسول الله ، رجل يحبّ من يصلّي ولا يصلّي إلّا الفريضة ، ويحبّ أن يتصدّق ولا يتصدّق إلّا بالواجب ، ويحبّ أن يصوم ولا يصوم إلّا شهر رمضان . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : المرء مع مَن أحبّ »[(٣)].

وروى أيضاً بسنده إلى عبدالله بن الصامت ابن أخي أبي ذرّ ، قال : « حدّثني أبو ذرّ ، وكان صِغْوهُ وانقطاعه إلى عليّ عليه السلام وأهل هذا البيت ، قال : قلت : يا نبيّ الله ، إنّي أُحبّ أقواماً ما أبلغ أعمالهم .

قال : فقال : يا أبا ذرّ ، المرء مع من أحبّ ، وله ما اكتسب .

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام : ٢ : ٦٢٨ و ٦٢٩ .

(٢) بشارة المصطفى : ٧٤ .

(٣) أمالي الطوسي : المجلس ٢٩ ، الحديث ١٧ .

قلت: فإنّي أُحبّ الله ورسوله وأهل بيت نبيّه.

قال: فإنّك مع من أحببت»[١].

وروى الشيخ المفيد قريباً منه في أماليه[٢].

وروى ابن حنبل في مسنده ـ مسند الكوفيّين ـ عن الحسن بن موسى، قال: «قال رسول الله ﷺ: المرء مع من أحبّ»[٣].

وروى في ذلك ما يقرب من اثني عشر رواية بطرق متعدّدة.

وروى الترمذي في مسانيد مختلفة متعدّدة في سننه عن أنس بن مالك وعن آخرين، قال رسول الله: «المرء مع من أحبّ يوم القيامة».

ورواه بطريق آخر عن صفوان بن عسّال[٤].

وروى هذا الحديث عنه ﷺ بلفظ: «المرء مع مَن أحبّ» كلّ من أبي داود في سننه، ومسلم في صحيحه (عن عبدالله بن مسعود)، والبخاري[٥] (عن عبدالله

---

(١) أمالي الطوسي: المجلس ٣١، الحديث ٥.

(٢) أمالي المفيد: المجلس ١٩، الحديث ٢.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ١: ٣٩٢.

(٤) سنن الترمذي: ٥: ٢٠٥، باب المرء مع من أحبّ، الحديث ٢٤٩٢ ـ ٢٤٩٤. و: ٤: ٢٢. سنن أبي داود: ٢: ٥٠٤، كتاب البرّ والصدقة والآداب ـ الباب ٥٠. صحيح مسلم: ٨: ٤٣، باب المرء مع من أحبّ، وروى مسلم أربعة عشر رواية بطرق مختلفة. صحيح البخاري: ٧: ١١٢ و ١١٣، كتاب الإرب ـ باب علامة الحبّ في الله عزّ وجلّ، ورواه البخاري في ذلك أربع روايات بأربع طرق.

وروى الحديث أبو داوود في سننه روايتين بطريقين ـ كتاب الأدب ـ باب ١٢٣ (إخبار الرجل الرجل بمحبّته إيّاه).

(٥) حديث البخاري: قال عبدالله بن مسعود: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يارسول ⇦

ابن مسعود).

وروى الحاكم في مستدركه: عنه ﷺ، قال: «من أحبّ قوماً حُشر معهم»[١]، ذكر أسماء أهل الصُّفّة رضوان الله عليهم.

وأخرج الهيثمي في «مجمع الزوائد»: عن أبي قُرصافة، قال: «قال ﷺ: لا يحبّ رجل قوماً إلّا حشر معهم»[٢]، وأخرجه عن طرق أُخرى متعدّدة في أبواب في الألفة ـ باب المرء مع من أحبّ.

وأخرج المتّقي الهندي في «كنز العمّال»، قال: «سأل رجل من رسول الله ﷺ عن الساعة؟ فقال: ما أعددت لها؟

قال: ما أعددت لها كبيراً، إلّا أنّي أُحبّ الله ورسوله.

فقال: أنت مع من أحببت»[٣]، وذكر جملة من الروايات بهذا المضمون[٤].

وأخرج أيضاً عن الخطيب، عن جابر، قال: «قال رسول الله ﷺ: من أحبّ قوماً على أعمالهم حشر يوم القيامة في زمرتهم فحوسب بحسابهم، وإن لم يعمل أعمالهم»[٥].

⇐ الله، كيف تقول في رجل أحبّ قوماً ولم يلحق بهم؟

فقال رسول الله ﷺ: المرء مع من أحبّ».

وأخرج الطبراني في مسند الشاميّين عن أبي ذرّ، قال: «قلت يا رسول الله، إنّي أُحبّ قوماً لا أبلغ أعمالهم.

فقال: أنت مع من أحببت» ـ الحديث ٢٧١٥٢.

(١) المستدرك: ٣: ١٨.

(٢) مجمع الزوائد: ١٠: ٢٨٠، باب من أحبّ أحداً فليعلمه.

(٣) كنز العمّال: الحديث ٢٥٥٥٣.

(٤) في الكتاب الثالث ـ حرف الصاد / كتاب الصحبة.

(٥) كنز العمّال: ٩: ٢١.

وأخرج ابن كثير في تفسيره، وقال في الحديث المتّفق عليه، بل المتواتر من طرق صحيحة، قال: «قال رسول الله ﷺ: من أحبّ قوماً فهو منهم -وفي رواية: حشر معهم-»[١]، وذكر ذلك تحت عنوان ما أعدّه الله للمهاجرين والأنصار.

وأخرج ابن العربي في تفسيره، قال: «قال رسول الله ﷺ: المرء مع من أحبّ، حتّى لو أحبّ حجراً حُشِر معه»[٢].

وروى المناوي قريب منه في «فيض القدير»[٣].

وأخرج الطبراني في «مسند الشاميّين»: عن أبي ذرّ، عن رسول الله ﷺ، قال: «إنّي أُحبّ قوماً لا أبلغ عملهم؟

قال: أنت مع من أحببت»[٤].

ومن الواضح أنّ الإطلاق في لفظ الروايات شامل لكلّ قوم، وإن لم يعاصرهم المرء، ويمتدّ هذا الشمول إلى أعماق التاريخ منذ صدر البشريّة، بل يتّسع ليشمل ما ستأتي من أُمم وأقوام لاحقة انبئ عن أعمالهم وأحوالهم في لسان الوحي، ومن ثمّ يستخلص من هذه القاعدة الشريفة التي أكّد عليها القرآن قبل السنّة النبويّة.

أوّلاً: إنّ الإنسان مسؤول عن ميوله النفسيّة وهواه وموقفه الفكري والنفساني تجاه الأُمم السابقة واللاحقة، وأنّ تضامنه أو قطيعته هي من فعله وعمله المتشاكل مع مواقف أُولئك أو المتباين معهم في الموقف، وهذا هو معنى التولّي والتبرّي،

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢: ٣٤٣.

(٢) تفسير ابن العربي: ١: ٤٢ و: ٢: ٢١٨.

(٣) فيض القدير: ٦: ١١٥.

(٤) مسند الشاميّين للطبراني: الحديث ٢١٧٥.

أو الولاء والبراءة ، فإنّها منبع ومصهر تربوي للنفس الإنسانيّة أمام مشهد البشريّة .

ثانياً: لزوم الفحص والتنقيب عن كلّ فئة من الفئات ، لا سيّما إذا كان لها دورٌ حسّاس ومؤثّر في منعطفات الدّين ـ أو الأديان ـ أو تاريخ البشريّة ، وضرورة هذا الفحص والتنقيب هي غير راجعة إلى البُعد الشخصي لتلك الشخصيّات والفئات ، بل راجعة إلى جانب عمومي فيها وهو جانب التأثّر واتّخاذها نموذجاً أو قوالب مقبولة .

وضرورة هذا الفحص راجعة إلى تكبّل الإنسان وزر أو نتاج تلك الفئات بلا أن ينقص من نصيبهم شيء ، وهذه التبعيّة والتبعات تفرض على الإنسان أن يتحرّى حال الفئات واتّجاهاتهم ومناهجهم لئلّا يقع في مسؤوليّة ما وقعوا فيه ، فيما لو كانوا من أصحاب الردى ، أو يشاركهم في النهج كي يغنم ويتكامل ويفوز فيما لو كانوا من أصحاب الهدى .

ثالثاً: إنّ هذه القاعدة في الحقيقية تترجم حكمتها وفلسفتها أنّها تبيّن مدى التأثير التربوي الحاصل من موقف الإنسان تجاه الفئات والنماذج المختلفة الماضية في البشريّة ، فإنّ عامل المحبّة مؤثّر جذّاب يضفي بتأثيره وتغييره على الإنسان ، ويطبّعه بشاكلة تلك الفئات فكراً ومنهجاً ، وسلوكاً وأخلاقاً وسيرةً ، وغيرها من الجهات ، فمن ثمّ كان باب المحبّة باب بالغ الأهميّة يفتح للإنسان من صحائف الأعمال ما يتجاوز حدود عمره القصير إلى امتدادات زمنيّة شاسعة ، وكأنّ السرّ في ذلك أن تأثّر الإنسان بتلك المناهج يكون عامل بقاء واستمرار لتلك المناهج ، فمن ثمّ يثاب بثوابهم ، سواء كانت حسنات أو أوزار ، بلا أن ينقص من ثوابهم شيء .

ومن ثمّ كانت المحبّة من أكبر ساحات عمل الإنسان ، وأعظم مجالاً وامتداداً

من أفعال البدن ، بل لا قياس بين الجانبين ، إذ بعامل المحبّة يشرف الإنسان على كلّ حقب الأزمان والأجيال والأنسال البشريّة ، ويعيش في كلّ بيئاتهم وطوال مددهم الزمنيّة ، وهذه حياة أطول ، وعيشة معمّرة ، والحساب فيها أشدّ ، والخطورة أعظم . وفلسفة كلّ ذلك هو ما مرّ من أنّ المناهج والأفكار والسِّير عامل بقائها هو المحبّة ، فمن ثمّ تكون المحبّة تحمل هذه المسؤوليّة والعبء .

رابعاً: إنّ مفاد قوله الشريف ﷺ : « المرء مع من أحبّ » هو الأمر بمحبّة الصالحين والمهديّين ، والذي يعبّر عنه بالتولّي ، وبكراهة ومباينة الطالحين والضالّين ، وهو الذي يعبّر عنه بالتبرّي ، ففي الحديث بشارة ونذارة ، أمرٌ ونهي ، حثٌّ وتحذير ، حثٌّ على محبّة الفريق الأوّل ليغنم الإنسان ثواباً لثوابه ، وحشراً في صعيد موقف حشرهم ، وتحذير من محبّة الفريق الثاني لينجو الإنسان من أن يكتب عليه مثل أوزارهم ، ولكي ينجو الإنسان من المصير الذي يلاقي أُولئك ، فلابدّ أن يوجد الهوّة النفسيّة بينه وبين الفريق الثاني ، وهو الذي يعبّر عنه بالتبرّي والكراهة ، فهذه الكراهة والتبرّي ليس فلسفته تربية أحقاد وإحن وإشعال ضغينة أو سخيمة ، بل فلسفة ذلك هو أن لا يتأثّر الإنسان بمنهج أُولئك ونمط أفعالهم ، وأن لا يتبع شاكلتهم؛ لأنّ المرء مع من أحبّ نهجاً وفكراً وسلوكاً واعتقاداً ، فكم هي خطيرة المحبّة في صياغة ذات الإنسان والأجيال فكراً وسلوكاً ونهجاً ، وهذه هي فلسفة التبرّي ، فليست هي ثقافة كراهية وأحقاد وعقليّة ظلاميّة ، بل هي ذات فلسفة وحكم وغايات تربويّة خطيرة وتعليميّة عميقة .

القاعدة الرابعة: ومن ثمّ نعرف تطابق هذه القاعدة مع قاعدة رابعة وهي التحسين والتقبيح التي تحكم بها فطرة العقل البشري ، ومن معاني التحسين المحبّة والمدح والانجذاب والتفاعل مع الملائم ، كما أنّ من معاني التقبيح

الكراهة والذمّ ونفرة الطبع عن غير الملائم والمباينة مع القبيح، فالعقل هو بنفسه يقوم بنشاطين وبفعلين: بالتقرّب والتقريب لِما هو كمال وحَسَن وبالإبعاد والإقصاء لِما هو نقص وقبيح وسيء، وهذا هو المعنى العقلي للتولّي والتبرّي.

وهذه الدعوى الفطريّة من العقل فلسفتها جذب الإنسان من الكمال وإبعاده عن التردّي في الحضيض.

القاعدة الخامسة: وهناك قاعدة أُخرى شرعيّة قرآنيّة ونبويّة، وهي الصلوات في مقابل اللعن، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾(١).

ثمّ يتبعه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾(٢).

فكما أمر تعالى بالصلاة على النبيّ ﷺ أمر بلعن الذين يؤذون الله ورسوله، فهذه ليست ثقافة أحقاد وكراهية يربّي فيها القرآن المسلمين عليها، بل هي مدرسة تربويّة وتعليميّة.

القاعدة السادسة: وهناك قاعدة شرعيّة أُخرى تصبّ في نفس المصبّ، وهي ما جاء في الحديث النبوي: «لا يكمل إيمان عبد حتّى يحبّ في الله، ويبغض في الله» وعلى هذه القاعدة يربّي القرآن أجيال المسلمين يحبّب إليهم الفئات والجماعات الصالحة بذكره لهم بجميل النعوت وبديع الصفات ومحاسن الأفعال، كما أنّه يكره لهم الجماعات الطالحة الغاوية، بذكره لتلك الجماعات

---

(١) الأحزاب ٣٣: ٥٦.

(٢) الأحزاب ٣٣: ٥٧.

بشين الصفات وسيء الأفعال وقبائح النعوت، فالمدح تحبيب وتزيين وتولية، والذمّ تكريه وتبغيض وتبرّى، كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾[١].

فالتحبيب أو زرع الكراهة أو بذر المحبّة أسلوب تربوي بالغ التأثير، وهو منهاج التزكية القرآنيّة، كما أنّه أسلوب تعليمي نافذ البيان والتبيين.

وممّا روي في مضمون هذه القاعدة ما رواه البيهقي في سننه عن عبدالله بن مسعود، قال: «قال رسول الله ﷺ: يا عبدالله، أي عرى الإسلام أوثق؟

قال: قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: الولاية في الله، والحبّ في الله، والبغض في الله».

وروي ذلك من حديث البراء وابن عبّاس وعائشة[٢].

ورواه الطبراني في «المعجم الصغير» عن عبدالله بن مسعود أيضاً[٣].

وهذا النهج يؤكّده القرآن الكريم، ففي ذيل قوله تعالى: ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٤].

روى سماعة، قال: «سمعت أبا عبدالله ﷺ يقول:... وقد علِمَ أنّ هؤلاء لم يقتلوا، ولكن قد كان هواهم مع الذين قتلوا، فسمّاهم الله قاتلين لمتابعة هواهم ورضاهم بذلك»[٥].

---

(١) الحجرات ٤٩: ٧.

(٢) سنن البيهقي: باب شهادة أهل العصبيّة، الحديث ٢٠٨٥٨.

(٣) باب من اسمه عبدالله: الحديث ٦٢٤.

(٤) آل عمران ٣: ١٨٣.

(٥) تفسير العيّاشي: ١: ٢٠٨، الحديث ١٦٢.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾[١].

ففي «نهج البلاغة» قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أيُّها النّاس، إنّما يَجْمَعُ النّاسَ الرِّضىٰ والسُّخطُ. وَإنّما عَقَرَ ناقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بالْعَذابِ لَمّا عَمُّوهُ بالرِّضىٰ. فَقالَ سُبْحانَهُ: ﴿ فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ ﴾، فَمَا كَانَ إلّا أنْ خَارَتْ أرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ في الْأَرْضِ الْخَوَّارَةِ»[٢].

ورواه الثقفي في «الغارات»[٣].

وكقوله تعالى في جملة الآيات الواردة في سورة البقرة وآل عمران والنساء والأعراف، وغيرها من السور الواردة في توبيخ القرآن لليهود المعاصرين للنبيّ صلى الله عليه وآله بما فعل أسلافهم في القرون السابقة من قتل الأنبياء، وعبادة العجل، والاعتداء بالصيد في يوم السبت ومماطلتهم في الطاعة، ومشاكستهم في اتّباع الأوامر. ومن طلبهم رؤية الله جهرة وغيرها من أفعال أسلافهم، فهذه العشرات من الآيات الموجّه فيها الخطاب، وعذل القرآن لليهود والمعاصرين لرسول الله بفعل أسلافهم ـ وذمّه لهم بما فعلت الأمم الماضية منهم ـ الوجه فيه والمسوّغ لهذا الخطاب وهذه المحاسبة هو رضى اليهود بأفعال الأمم الماضية منهم. وهذا هو مفاد ما روي في «تفسير العسكري عليه السلام» عنه عليه السلام عن الباقر عليه السلام، قال في حديث: «أنّ عليّ بن الحسين قال له بعض من في مجلسه: يابن رسول الله، كيف يعاقب الله ويوبّخ هؤلاء الأخلاف على قبائح أتى بها أسلافهم وهو يقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ

---

(١) الشعراء ٢٦: ١٥٧.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٦.

(٣) الغارات: ٢: ٥٨٤.

وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[١] ؟

فقال زين العابدين عليه السلام : إنّ القرآن نزل بلغة العرب ، فهو يخاطب فيه أهل اللسان بلغتهم ، يقول الرجل التميمي وقد أغار قومه على بلد وقتلوا مَن فيه : قد أغرتم على بلد كذا وكذا ، وفعلتم كذا وكذا ، ويقول العربي أيضاً : نحن فعلنا ببني فلان ، ونحن سبينا آل فلان ، ونحن خرّبنا بلد كذا ، لا يريد أنّهم باشروا ذلك ، ولكن يريد هؤلاء بالعذل وهؤلاء بالافتخار أنّ قومهم فعلوا كذا وكذا.

وقول الله عزّ وجلّ في هذه الآيات إنّما هو توبيخ لأسلافهم وتوبيخ العذل على هؤلاء الموجودين؛ لأنّ ذلك هو اللغة التي بها نزل القرآن ، ولأنّ هؤلاء الأخلاف أيضاً راضون بما فعل أسلافهم ، مصوّبون ذلك لهم ، فجاز أن يقال : أنتم فعلتم إذ رضيتم قبيح فعلهم »[٢].

القاعدة السابعة : التولّي والتبرّي ، والتضامن والإدانة ، وهاتان القاعدتان ملحوظتان بوضوح في نهج القرآن الكريم ، وذلك من خلال استعراضه لتاريخ وأحوال الأمم الماضية ، حيث استعرض القرآن الكريم جملة الأحداث المهمّة من أوّل تاريخ البشريّة ، كالذي جرى بين هابيل وقابيل وبين نوح والمؤمنين الذين معه ، وبين قومه وبين الأنبياء السابقين وأقوامهم ، وأصحاب الأخدود ، ويوسف وإخوته إلى عصر الرسول صلى الله عليه وآله ، بل تنبّأ بملاحم مستقبليّة أيضاً هامّة في مصير البشريّة ، وفي كلّ تلك التفاصيل التي يستعرضها يدأب القرآن على تمييز جانب الحقّ من جانب الباطل ، والفصل بين المحقّ والمبطل ، وكذلك التفرقة بين

---

(١) الأنعام ٦ : ١٦٤ . الإسراء ١٧ : ١٥ . فاطر ٣٥ : ١٨ . الزمر ٣٩ : ٧ .

(٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام ، في ذيل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ البقرة ٢ : ٦٥ .

المصلح والمفسد، وبين المظلوم والظالم، وهو يكرّس في ذلك التضامن مع الفريق الأوّل، والتأييد له، ولنهجه، والإدانة والشجب والكراهة للفريق الثاني، وهو ما يعرف بالصلوات والتسليم في مقابل اللعن، وهذا نمط تربوي لتعيش الأجيال على نهج السداد وإبعادهم عن نهج الضلال، بل إنّ المستغرق والمتدبّر لأساليب العرض القرآني لتلك الأحداث يشاهد بوضوح تشويق القرآن وتحبيبه للفريق الأوّل بينما يشاهد تقريعه وتنفيره من الفريق الثاني، وهو ما يُعرف بالتولّي والتبرّي والتسليم.

فإنّ قوله تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ... ﴾[1] لا يقتصر في تطبيقه على من حادد الله في زمن رسول الله أو الزمن الراهن، بل هو شامل لقابيل ولعتاة أعداء الأنبياء، كفرعون ونمرود وأصحاب تبّع وأصحاب الرّس وقوم عاد وثمود وقارون وهامان وأبي جهل والحكم بن العاص ومروان بن الحكم طريدا رسول الله، وكذلك قاتلي عترة الرسول ﷺ، وبعبارة أخرى: أنّ هذه الآية عامّة بعموم تاريخ الإنسان، ماضيها ومستقبلها وراهنها، وتبيّن للفرد المسلم أنّه لا ينحصر اهتمامه ولا يعيش في نفس عصره فقط، بل أنّ الإنسانيّة أجمع بكافّة قرونها كأنّها تعيش في حقبة واحدة تتفاعل اتّجاهاتها وتتجاذب فيما بين بعضها البعض، وهذه هي حقيقة الهويّة الإنسانيّة، فإنّها ليست مكوّنة من خصوص العصر الراهن الذي تعيشه، بل من مجموع تراكمات تاريخيّة تتفاعل وتفرز الهويّة الراهنة للإنسان، بل إنّ النظرة المستقبليّة هي الأخرى من مكوّنات الهويّة الراهنة.

ومن ثمّ نرى القرآن الكريم يبيّن أنّ الأنبياء السابقين قد بشّروا أُممهم وأقوامهم

---

(١) المجادلة ٥٨: ٢٢.

بخاتم المرسلين كما بشّروا بالآخرة، فلا يقرّ القرآن بالفواصل والحواجر التاريخيّة، بل هناك عولمة واحدة عبر كلّ الأزمان وليست العولمة هي بتساقط الفواصل الجغرافيّة المكانيّة، بل نرى في تعاليم القرآن المعرفيّة وسننه في أُصول التربية الاجتماعيّة أنّه يسقط الفواصل في الجغرافية الزمنيّة، فالإنسان لا يعيش حبيس عصره، بل هو منفتح على كلّ الأدوار الزمنيّة وكلّ الثقافات، وعلى وتيرة تفاعل وتأثير وتأثّر، ومن ثمّ لا نجد في القرآن الكريم تكريساً لهذه الفواصل كما لا يعترف بهذه الجدر، بل يرى الحقب الزمانيّة منفتحة على بعضها البعض.

وهذا ما سيتجسّد عيناً في عرصات المحشر، حيث ينادي القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾[1].

فالبشريّة بأفكارها ومدارسها واتّجاهاتها تعيش مشهداً واحداً روحيّاً وعقليّاً وثقافيّاً، تلمّ بالألوان وتلوّنات كثيرة، وليس بإمكان فرد أو حقبة زمنيّة أن تنأى بفكرها وعقلها وروحها عن بقيّة الحقب، إذ البيئة هذه لا تعرف الحدود الزمانيّة، وإن اختلفت الاتّجاهات والانتماءات والأهواء؛ وذلك لأنّ الإنسان لا يعيش ببدنه فقط المحبوس في حقبة زمنيّة، بل من مكوّنات الإنسان الروح والعقل وقوّة الفكر والقلب بما يحمل من أحاسيس وعواطف وضمير، فإنّ هذه القوى والمكوّنات كما هي مقرّرة في البحث العقلي موجودة في أُفق ما وراء الزمان، ويهيمن على كلّ الأزمنة، أي مجرّدة عن هذه المادّة الغليظة الأرضيّة.

ومن ثمّ شأن أفعالها وأحكام أفعالها كما هو الحال في أحكام المعارف لا يتقيّد بالزمان، فالتبرّي والقطيعة، والشجب والإدانة، لا يختصّ برؤوس الظلم الذين

---

(١) الواقعة ٥٦: ٤٩ و ٥٠.

يعاصرهم الإنسان، بل يعمّ رؤوس الظلم من بداية الخلقة إلى نهايتها، فالموقف واحد متّصل، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾[١].

وهذه الآية في سياق قوله تعالى في أوائل السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ...﴾[٢].

والقطيعة في الآية الكريمة مع أعداء الله لا تختصّ بمن هو معاصر راهن، بل تعمّ كلّ من انطبق عليه هذا الوصف في غابر التاريخ وفي مستقبله، فليس لمسلم ولا مؤمن أن يتّخذ قابيل وقارون ولا فرعون ولا نمرود قدوة ينتهج مسارهم أو نموذجاً يستأنس بسلوكيّاتهم، وهذه أحد حِكَم القطيعة والتبرّي والمجافاة، والسبب في هذا التعميم علاوة على عموم دلالة الآيات موضوعاً الواردة في التبرّي أنّ مشاهد الحقب التاريخيّة وأشخاص الإنسانيّة شاخصة في المنظر العقلي والذهني والفكري للبشريّة، وصوره حاضرة في البصر الإنساني غير غائبة، وإن غابت أبدانهم، إلّا أنّ أفعالهم وصفاتهم ماثلة للعيان في النفس البشريّة الراهنة.

وهذا لا يقتصر على من مضى، بل يعمّ من هو آت، ولا يقتصر هذا التقريب على هاتين الآيتين من آيات التبرّي والقطيعة والمجانبة لروّاد الضلال، بل هو في جملة الآيات العديدة في هذا المضمار.

وكذلك في آيات التولّي والتضامن، والمساندة والدعم، والتأييد والاحتفاء،

---

(١) الممتحنة ٦٠: ٤.

(٢) الممتحنة ٦٠: ١.

والحفل برموز الهداية في التاريخ، وروّاد الصلاح والعدل، فإنّ التركيز على هذه النماذج العالية ذو مغزى تربوي ومعرفي بالغ التأثير في تربية الأجيال البشريّة على هذه القيم النبيلة وتجنيبهم الانزلاق في حضيض الرذائل وإبعادهم عن الهوي في سحيق الباطل، فلا يتوهّم أنّ التبرّي والقطيعة والمجانبة هي ثقافة كراهية وتكريس أحقاد وإحَن. وبعدما تبيّن بطلان المعنى الذي فسّرت به الآية في نفسه لشواهد وقواعد دينيّة وعقليّة عديدة، نفحص حينئذٍ عن المعنى السديد لها.

تفسير ثانٍ للآية: بطلان التقليد وضرورة الفحص والتحقيق

وتحقيق معنى الآية أنّه من ملاحظة سياق الآيات يظهر بوضوح أنّها في صدد جواب جدال أهل الكتاب مع النبيّ ﷺ والمسلمين، وإصرارهم على ماهم عليه كما في قوله تعالى في الآية المتقدّمة عليها: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّن خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(١) ﴿مَا نَنسَخْ مِن آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(٢).

وفي هذه الآيات إشارة واضحة إلى نزاع أهل الكتاب وإصرارهم على بقاء شريعتهم وعدم نسفها وما هم عليه وحسدهم أن تنزل شريعة على النبيّ ﷺ للمسلمين، وإجابة منه تعالى أنّ النسخ سنّة إلٰهيّة في الشرائع، لأنّ الله تعالى له ملك السموات والأرض وهو وليّ كلّ شيء، فأيّ مجال لإنكار أهل الكتاب

(١) البقرة ٢: ١٠٥.

(٢) البقرة ٢: ١٠٦ و ١٠٧.

الشريعة الجديدة، ثمّ تتابع الآيات: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ... وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾[١].

وفي هذه الآيات تخطئة لأهل الكتاب في حصرهم الهداية بشريعتهم، وذلك تخطئة لهم في التخاصم الدائر بينهم، وهذا ببيان قاعدة في النجاة، وهي التسليم لله تعالى مع الإحسان، أي أنّ صراط الهداية واحد، وهو الدين الواحد الذي اتّفقت عليه وبعثت به جميع الأنبياء والمرسلين، وهو التسليم لله تعالى والعمل بالمحاسن، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم.

ثمّ تتابع الآيات في قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٢].

ثمّ تستعرض الآيات ملّة إبراهيم ودينه، وأنّه كان دين الإسلام، وكذلك إسماعيل، وأنّه وصيّة إبراهيم لبنيه، كما أنّ دين الإسلام وصيّة يعقوب لبنيه، ثمّ قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا

---

(١) البقرة ٢: ١٠٩ ـ ١١٣.

(٢) البقرة ٢: ١٢٠.

يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(١).

ثمّ تتابع الآيات التأكيد على ضرورة وحدة الإيمان بكلّ ما أُنزل على الأنبياء السابقين وجميع النبيّين وعدم التفرقة بين أحد منهم، وأنّ صبغة الله هي دين الإسلام، وأنّ محاجّة اليهود على المسلمين في الله مبنيّة على زعمهم الاختصاص به تعالى، مع أنّ الله ربّ الجميع على نحو الاستواء، وكلّ مسؤول عن عمله، كما تحاججهم الآيات في قوله تعالى: **﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾**(٢).

فمقتضى كلّ هذا السياق هو التأكيد على عدم صحّة التبعيّة والتقليد من أهل الكتاب المعاصرين للمسلمين لأسلافهم وأممهم التي قد خلت، لأنّ النسخ لمّا كان جائزاً فمن غير الصحيح بقاء أهل الكتاب في عهد النبيّ على شرائع الأنبياء السابقين، إذ لكلّ أمّة وظيفتها وتكليفها، وأنّه لو سُلّم أنّهم كانوا على غير دين الإسلام ما جاز لهم أن يتركوا ما يوحي الله عزّ وجلّ على لسان محمّد ﷺ من وحي بالبيّنات والمعجزات. إذن انّ لله تعالى أن ينسخ من الشريعة ما شاء على ما يعلم في ذلك من وجوه الحكمة، وأنّه إذا كان الإنسان لا يؤاخذ إلّا بعمله، فلابدّ عليه من استبيان الحجّة بنفسه والتنقيب عن الأدلّة ابتداءاً، ولا يتكل على فضائل الآباء والأجداد والأسلاف، فإنّ ذلك لا ينفع إذا خالف أمر الله

---

(١) البقرة ٢: ١٣٣ ـ ١٣٥.

(٢) البقرة ٢: ١٤٠ و ١٤١.

فيما أوجب عليه، وتكون إشارةً إلى أنّ من سلف من آباء أهل الكتاب ممّن كان على ملّة اليهوديّة والنصرانيّة يحرم على أخلافهم ممّن كانوا في عهد رسول الله ﷺ التبعيّة والتقليد لأولئك الأسلاف بنحو التبعيّة والتقليد العمياوي، بل لا بدّ من التمحيص والتنقيب والفحص عن الأدلّة والبراهين وأصول المعرفة الحقّة التي فيها أساس التوحيد.

عدم حجّيّة النهج السلفي

فهاتان الآيتان تناديان وترفعان شعار نبذ التقليد، ولزوم التحرّي والفحص والتنقيب عن الحقائق عبر الأدلّة والبراهين، وعدم الاكتفاء بطريقة نهج الأسلاف، وما كانوا عليه فإنّ ذلك لا يشكّل مستنداً علميّاً، ولا برهان، فلا يحتجّ بالأمّة التي خلت بل بالدليل ولا يحتجّ ولا يسوغ عذراً بأنّه لا يجوز مخالفة الأمم السابقة، فإنّ المدار على حكم الله وسلطانه وأوامره ونواهيه، وما يتعبّد به الخلائق في كلّ زمن حتّى أنّ بعض المفسّرين، كالطوسي في التبيان وغيره، ذكروا بأنّ مقتضى السياق في معنى الآية الأولى أنّه لو سلم أنّ الأنبياء العظام السابقين كانوا على ما يذكره ويدّعيه اليهود والنصارى لما جاز لليهود في زمن رسول الله رغم ذلك البقاء على اليهوديّة والنصرانيّة، بل اللازم عليهم هو اتّباع سلطان الله تعالى وولايته، والوحي الذي ينزله في زمان النبيّ ﷺ، أي لما كان لهم أن يتركوا الفحص عن ما هو أبين وأكثر حجّيّة، والتعويل على ما هو دون ذلك في الدلالة والاحتجاج.

وعلى ذلك يكون معنى الآية ليس فقط نبذ التقليد، بل ضرورة التحرّي عن ما هو أبلغ حجّة وأشدّ إيقاناً وأكبر دلالة، وعدم الاكتفاء والركون إلى ما هو دون وإن كان في نفسه حجّة بعد وضوح أنّ للحجج مراتب بعضها أعلى من بعض،

وبعضها أكبر وبعضها أصغر، ولا يبرّر ترك العالي بالتشبّث بالمتوسّط، والداني في الحجّيّة. فإذا كان الحال في عموم عدم الاحتجاج بأفعال الأمم السابقة ولو كانوا من الأنبياء العظام في مقابل ما هو أبلغ وأكبر حجّيّة، فكيف الحال في الاحتجاج بمن هو دونهم.

توسعة معنى التقليد في القرآن

على ضوء ما تقدّم من المعنى السياقي للآية وتطبيقها على الأنبياء العظام يظهر للتقليد مفهوم ومنظور يعمّ كلّ اتباع ولو لبعض الأنبياء السابقين في مقابل الدليل الذي هو أكبر حجّيّة، وأبلغ برهاناً، فإنّ سلوك التبعيّة بطبعه من البواعث التي تشدّ وتغالب تنبيه الإنسان إلى الفحص عمّا هو أحرى بالأخذ والانتهاج، فمجرّد كون النبيّ هو نبيّ من العظام السابقين على شريعة بعث بها هو غير موجب لصحّة اتّباعه على شريعته، وإن كان قد تلقّاها بوحي من الله في مقابل الحجّة الأبلغ الراهنة، وهي وحي الله لسيّد الأنبياء ﷺ بضميمة أنّ نسخ الشرائع هي من صلاحيّات الباري تعالى التي هي فوق صلاحيّات الأنبياء، فلا يساوى بين حجّيّة النبيّ السابق وولايته ومقامه، مع حجّة الباري تعالى وولايته ومقامه الربوبي، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2] أي أنّ الباري تعالى هو المالك لكلّ شيء، وهو الوليّ

---

(١) البقرة ٢: ١٠٧.

(٢) البقرة ٢: ١٠٦.

فوق كلّ شيء ، وهو القادر على كلّ شيء ، ولا يعجزه شيء ، فكيف لا ينقاد إلى مقامه تعالى ويتّبع مقام من دونه.

فإذا قوبل بين الحجّتين ورتبة الولايتين والمقامين ، واتّبع الأدنى السابق وترك الأعلى اللاحق كان تقليداً مذموماً واتّباعاً واحتجاجاً أمّة قد خلت لها ما كسبت ، ولا يبرّر ما يكسبه المرء في ظرفه الراهن من لزوم وضرورة الاستناد إلى الحجّة الأبلغ ، وهذا المعنى فيه تعميم لمعنى التقليد لكلّ متاركة للأدلّة البالغة وإن كان باتباع الحجج الأدنى السابقة فإنّ الاتّباع من دون الأدلّة البالغة أبين تقليداً ويعمّه ذم التقليد.

التدافع بين تفسيري الآية

فهناك بون شاسع بين المعنى الذي ترمي إليه الآية وبين المعنى الذي شيّده بنو أميّة لتحريفها ، فإنّ المعنى الذي صاغوه يرسم للأمم السابقة حصانة عن النقد وعن الفحص والتفتيش والمحاسبة والتمحيص والغربلة ، كما يوجب تلميع السالفين بالنعوت الجميلة ، وإضفاء الحجّيّة لهم من دون سبر وغور في الأدلّة.

وهذا على الطرف النقيض تماماً من معنى الآية التي هي في صدد بيانه من نبذ التقليد والاتّباع من دون دليل ، حتّى أنّ الآية صاعدت من عموم المعنى إلى تطبيق التقليد حتّى على اتّباع الأنبياء العظام في قبال ما هو أبلغ وأبين من الأدلّة والبراهين الإلٰهيّة ، وهو خاتم وسيّد الأنبياء ، فكيف الحال بمن دونهم.

وجوب التمحيص في سيرة الأنبياء فضلاً عن غيرهم

بل إنّ القارئ لسياق الآيات يشاهد بإلحاح تعليمها وحثّها على الفحص عن حقيقة أحوال الأنبياء العظام ، وما كانوا عليه ، وعدم الاكتفاء بما يزعمه

الأخرون عنهم ممّن يدّعي التبعيّة لهم من اليهود والنصارى، فضلاً عن الحال في لزوم الفحص عن حقيقة أحوال غير الأنبياء.

وكم تمحّص هذه الآيات ما كانوا عليه من جهات وحدة، وهي دين الإسلام وجهات اختلاف وهي الشرائع المتعدّدة، ولا تكتفي الآيات بسرد حالهم الإجمالي، بل تمعن في التفصيل والتنقيب، وبيان مدى حجّيّة كلّ جهة في سلوكيّاتهم، وأنّ أيّها عامّ عميم شامل للمكلّفين في عصر نزول الآية، وأيّها خاصّ منسوخ قد تصرّمت وانقطعت حجّيّته.

عدم حجّيّة سيرة الأنبياء إلّا بالتمحيص

كلّ ذلك لئلّا يكون هناك اتّباع لسيرتهم من دون تمحيصها على الأدلّة القاطعة الأبلغ من حجّيّة أولئك الأنبياء، فإنّ بديهيّات العقل الفطريّة التي لا يختلف فيها اثنان هي منطلق لمعرفة التوحيد فما دونه، كما أنّ معرفة التوحيد أساس في عموم معارف الإيمان من إثبات كلّ كمال له تعالى وتنزيهه عن كلّ نقص وشين، وأنّه تعالى مالك لكلّ الكمالات والكلّ مفتقر إليه، وأنّ مقتضى ربوبيّته تعالى طاعة الخلق له، وشكره على إنعامه وإفضاله، والدين والتسليم والمثول والانقياد إلى إرادته وفرائضه على العباد، وهذه الفرائض من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبما بلّغت به رسله من دار القرار وعهد الميثاق وأركان الدين وأصول الواجبات، فجملة هذه الفرائض هي من الطاعة ـ لله والانقياد لولايته وحكمه ـ الشاملة في عمومها على كلّ مخلوق من نبيّ مرسل، أو ملك مقرّب، أو وليّ ممتحن، فضلاً عمّن دونهم.

فحجّة بديهة العقل تهدي إلى حجّة معرفة الربّ تعالى، ومن بعد ذلك تلزم العباد طاعة الرسل وذروتهم سيّدهم، المأخوذ طاعته على جميعهم،

وهذه هي الحجّة الثالثة ، ثمّ من بعد ذلك تلزم العباد حجّيّة الأوصياء ، إلى غير ذلك من مراتب الحجج ، وكلّ حجّة تفوق الأخرى وتهيمن عليها ، وتحدّد أمدها وحدودها ، ولذلك أشارت الآيات إلى الاستدلال بصفات الله من أنّه مالك للسموات والأرض وما فيهنّ ، وأنّه وليّ كلّ الأولياء لبيان أنّ هناك مراتب في الحجّيّة والدلائل ، وتفاوت في درجاتها ، واللازم مراعاة سلسلة تلك المراتب ، وما هو أكبر وأبلغ ، كاستدلال لدحض ما يزعمه اليهود والنصارى من لزوم اتّباع ما يزعمونه من يهوديّة ونصرانيّة النبيّ إبراهيم والأنبياء السابقين ، حيث أنّ ولاية الله فوق ولاية الأنبياء وصلاحيّاته في الحكم والتشريع فوق صلاحيات الأنبياء في الشرائع ، فكيف يترك أهل الكتاب الدلائل على المشيئة الإلٰهيّة في مقابل ما يزعمونه من حجّيّة يتبعونها.

بطلان التقليد للتفكيك في حساب الأعمال والتفكيك في الوظائف والمسؤوليّات

وبأنّه لو سُلّم لكم أنّ السابقين كانوا على ما تذكرونه ما جاز لكم أن تتركوا ما اتّضح لكم من بيّنات ومعجزات لرسول الله ﷺ ، كإبلاغ عن الله تعالى على لسان رسوله محمّد ﷺ ، وأنّه لا بدّ أن تتبيّن الأمور بدلائل وبيّنات تراعى فيها المراتب واختلاف الموازين لا باتباع من سبق ، لأنّ تقليدهم لا يغني شيئاً ، إذ ليسوا ملزمين بتقليدهم لأنّهم لا يسألون عمّا يفعلون وعمّا كانت وظيفتهم ، فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي كلّ مطالب بالعمل بالحجّة التي تقوم لديه ، ولا يتّحد الجميع في نمط المسؤوليّة ونوع الوظيفة كي يسوّغ لأجل ذلك التقليد والاتّباع ، ولا سيّما وأنّ المساءلة والمحاسبة ، والعقوبة والمؤاخذة تختلف من شخص لآخر ، ومن أمّة لأخرى ، ومن جيل لآخر ،

ومن زمن سابق للاحق بحسب اختلاف العقول ودركها والأفهام ووعيها، وقيام الدلائل وتنوّعها، هذا فضلاً عن اختلاف واقع الأحوال وتجدّد الحكم الإلـهي والتشريع، ومن ثمّ ليس لأحد من هذه الأمّة ولا لجيل أن يكتفي ويتّبع ما فعله الأوائل من صدر هذه الأمّة إذا قام لديه الدليل والبيان والحجّة على لزوم منهاج هدى وتبيّن له سبيل الرشاد قصر عنه السابقون زمناً، فبطلان التقليد أمام الدليل والدلائل يستلزم تكامل المعرفة الدينيّة وإن لم يدركها السلف السابق زمناً.

جدليّة تكامل المعرفة الدينيّة وبطلان التقليد للسلف

ومن ثمّ لا مجال لما يثار ويعترض على اتّباع أهل البيت وعلمائهم في العصر الراهن من أنّ مذهب أهل البيت عليهم السلام مرّ بأطوار وتطوّر ضمن مراحل إلى أن بلغ ما هو عليه الآن في الوقت الحاضر الراهن وأنكم تبدّهون مسائل عقديّة لم تكن بتلك الدرجة من الوضوح عند أوائل الرواة والأجيال التي تربّت في كنف الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، فكيف تشيّدون معارف ومعالم في العقائد لم يعهدها أولئك الرواة، ومن ثمّ تنبري دعوات وإثارات إلى نبذ هذه المعارف والمفاهيم العقديّة، كلّ ذلك تحت وطئة أنّ الأمم السابقة من أتباع أهل البيت عليهم السلام ومن المسلمين لم يعهدوا ولم يألفوا مثل هذه الأمور، ورغم أنّ هذه المقالة مدحوضة:

بلوغ بعض أصحابهم عليهم السلام ذورة المعرفة

أوّلاً: بوجود فئات وعيّنات في الأجيال الأولى منذ صدر الإسلام كانت تعي وتتفهّم عمق المعارف وغور المفاهيم، كسلمان وأبي ذرّ والمقداد ميثم التمّار ورشيد الهجري وجابر بن يزيد الجعفي، وأمثالهم، وكانت هناك إرهاصات قد توصم بالإفراطيّة وقد اتّهمت ورميت بالغلوّ والتأليه، حتّى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال

في عليّ يوم خيبر: «لولا أن تقول فيك طوائف من أُمّتي ما قالته النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم مقالاً لا تمرّ على ملأ من المسلمين إلّا أخذوا من تراب رجليك وفضل طهورك يستشفون به»[١].

مضافاً إلى ظاهرة السبئيّة والمغيريّة والخطّابيّة وغيرهم من الفئات الذين طعن عليهم بالغلوّ من قِبل الآخرين، بغضّ النظر عن تمحيص ما قالت تلك الفئات أنّه هل يستدعي ما طعن عليهم به، أو أنّ ما كانوا يقولون به[٢] في وادي وما انطبع عند الآخرين في وادٍ آخر، فإنّ تلك الظواهر والاتّجاهات والمدارس تبيّن أنّ الأجيال الأولى لم تكن على سطح واحد أو درجة متّحدة من المعرفة، بل في كتاب البخاري: روى عن المسوّر بن مخرمة ومروان في حديث صلح الحديبية أنّ عروة بن مسعود جعل يرمق أصحاب النبيّ ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخّم رسول الله ﷺ نخامة إلّا وقعت في كفّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمّد محمّداً»[٣].

---

(١) ينابيع المودّة لذوي القربى: ١: ١٩٩ و ٢٠٠. الكافي: ٨: ٥٧ و ٥٨.

(٢) كما فصّلناه في الجزء الثاني من بحوث مباني علم الرجال.

(٣) رواه أيضاً في كتاب الوضوء، رواه في مسند أحمد بن حنبل: ٥: ٤٢٣، الحديث ١٨٤٣١، ١٨١٦٦، وأيضاً رواه البيهقي في السنن الكبرى: ٩: ٢١٩، باب المهادنة على النظر للمسلمين، وأيضاً كتاب الوضوء: ١٨٠، وأيضاً الواقدي في المغازي: ٢: ٥٩٨ وابن هشام في السيرة: ١: ٣٢٨.

وكذلك ما روي من استلام زين العابدين عليه السلام الحجر الأسود، وانفراج الناس له في الحجّ سماطين، بينما لم يفسحوا المجال لهشام بن عبدالملك المرواني مع أنّه كان وليّ العهد في الخلافة الأمويّة، وكان في زمرة البلاط محتفّين حوله، وحينها قال الفرزدق قصيدته المشهورة، وهي الأخرى تحمل من أسمى المعاني العالية.

المنهج التجريدي عن التقليدي

ثانياً: لو سُلّم عدم وجود نماذج وعيّنات تحمل مثل ذلك المستوى من المعرفة، إلّا أنّ الاحتكام إلى ما كان عليه الأجيال والأمم السابقة دون الأدلّة القائمة

وروى البخاري عن أبي جحيفة يقول: «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله بالهاجرة، فأُتي بوضوء، فتوضّأ، فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه فيتمسّحون به» كتاب الوضوء ـ باب استعمال فضل وضوء النبيّ صلى الله عليه وآله، الحديث ١٨٧..

وفي رواية أُخرى: «فمن أصاب منه شيئاً تمسّح به، ومن لم يصب منه شيئاً أخذ من بلل يد صاحبه» الباب المتقدّم. ورواه أحمد في مسنده: الحديث ١٨٢٦٩ و: ٥: ٣٨٩، والبيهقي في السنن الكبرى ـ باب الالتواء في حيّ على الصلاة، وكذا في دلائل النبوّة وصحيح مسلم: ١: ٣٦٠، والنسائي في السنن ـ كتاب الطهارة: ١٥٤، باب الانتفاع بفضل الوضوء.

وروى مسلم في صحيحه عن أنس، قال: «لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله والحلّاق يحلقه وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلّا في يد رجل» أبواب مسانيد الأنصار ـ مسندات أنس بن مالك: الحديث ١١٩٥٥. والبيهقي في السنن الكبرى: ٧: ٦٨.

وروى ابن سعد في الطبقات: بسنده عن سهل بن سعد: «أتى رسول الله بئر بضاعة، فتوضّأ في الدلو وردّه في البئر، ومجّ في الدلو مرّة أُخرى وبصق فيها وشرب من ماءها، وكان إذا مرض المريض في عهده يقول: اغسلوه من ماء بضاعة، فيُغسل، فكأنّما حُلّ من عِقال» الطبقات الكبرى: ١: ٥٠٥.

ليس إلّا احتكاماً إلى التقليد في قبال الأدلّة البالغة والحجج الظاهرة، والمفروض الاحتكام إلى الدليل لا الاحتجاج بالتبعيّة، فأين الموضوعيّة العلميّة والمنهج التجريدي عن التقليد؟!

أوليس الآية الكريمة تبطل التقليد أن ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من مستوى وقدرة من المعرفة ووظيفة هم مؤاخذون بها بحسب ما لهم من فهم وعلم وقدرة.

المعرفة الدينيّة لا تقف عند حدّ

ثالثاً: إنّ واقعيّة الدين وسعته الحقيقيّة غير متناهية كما يشير إلى ذلك قول رسول الله ﷺ: «ربّ حامل فقه وليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[(١)].

فإلى ماذا يشير رسول الله ﷺ؟ أوليس يشير إلى أنّ مواد الوحي ليس الكلّ ينتهل منها بدرجة واحدة، بل هذان الحديثان يشيران إلى سنّة تكامل المعرفة بحسب الأجيال، ومن ثمّ ورد في الحديث النبويّ الشريف ما مضمونه: «أنّ جيل آخر الزمان من هذه الأمّة هم من أعقل الأجيال»، كالذي ورد أنّهم يؤمنون بحبر على ورق، أي أنّ إيمانهم بالبراهين لا بالحسّ، أو أنّ فيهم المتعمّقون.

بل إنّ في الآيات الكريمة إشارة إلى هذه السُّنّة، كما في قوله: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[(٢)]، ممّا يدلّل على وجود أعماق في المعاني، وليست الحقائق

---

(١) رواه ابن حنبل في مسنده: ٥: ١٨٣، والطبراني في المعجم الأوسط: ٥: ٢٣٣، ورواه في المعجم الصغير: ٣٠٠. والترمذي في سننه ـ باب ما جاء من تبليغ السماع: الحديث ٢٦٥٦ ـ ٢٦٥٨. سنن الدارمي ـ باب الاقتداء بالعلماء، وفي سنن ابن ماجة ـ باب من بلغ علماً، وصحيح ابن حبّان بترتيب ابن بلبان ـ كتاب العلم، الباب ١١٨.

(٢) يوسف ١٢: ٧٦.

مقصورة على السطح الظاهر، حيث تشير الآية إلى أنّ الدين والمعرفة الدينيّة هي ذات درجات وأعماق، ولا تقتصر على سطح التنزيل.

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾(٣).

تفسير ثالث للآية: الفخر المذموم والممدوح

وقد ذكر غير واحد من المفسّرين معنى آخر للآية ومحصّله أنّ الآية في صدد مواجهة خُلق خاطئ في الإنسان والناس، وهو التفاخر بفضائل الأسلاف، وأنّ هذا معيار خاطئ في الفخر، لأنّ فضيلة الإنسان إنّما هي بأعماله لا بأعمال آبائه وأجداده وعشيرته وقبيلته، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(٤) ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(٥)، فالآية واردة بذمّ اليهود على مفاخرتهم بأنّ أجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وكلّهم من الأنبياء، فعلى هذا المعنى تبيّن الآية أنّه لا يصحّ الاعتماد على أمجاد الأجداد والآباء ولو كانوا أنبياء.

واستشهد لهذا القول بقوله ﷺ: «يا بني هاشم، لا تأتوني يوم القيامة بأنسابكم،

---

(١) لقمان ٣١: ٢٧.

(٢) الكهف ١٨: ١٠٩.

(٣) آل عمران ٣: ٧.

(٤) المدّثّر ٧٤: ٣٨.

(٥) الأنعام ٦: ١٦٤. الإسراء ١٧: ١٥. فاطر ٣٥: ١٨. الزمر ٣٩: ٧.

وائتوني بأعمالكم»[١].

تقييم هذا المعنى

أوّلاً: وهذا المعنى وإن كان لا يخلو من وجه، إلّا أنّه ليس المعنى العمدة الذي في صدده الآية، وذلك لأنّ سياق الآيات قبل الموضع الأوّل للآية، وكذلك السياق في الآيات قبل الموضع الثاني، وهو فيما بين الموضعين ليست في سياق مفاخرة اليهود بآبائهم، بل في صدد محاججتهم بصحّة اليهوديّة أو النصرانيّة فيما كان عليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فمحتدم الجدال بينهم وبين المسلمين هو في الدين الصحيح والشريعة القويمة، فلم يكن الحديث فيما بينهم وبين المسلمين حول مفاخرتهم بآبائهم من الأنبياء إلّا بالعرض لا بالأصالة.

ثانياً: إنّ الفخر المذموم إنّما هو على تفصيل لا مطلقاً، أي فيما كان المرء يتكل على أمجاد آبائه ويترك العمل، أو فيما كان يفتخر بأمجاد آبائه بقصد وغرض النكاية والتحقير للآخرين، أو فيما كان افتخاره بأسلافه رغم أنّهم كانوا ذوي عمل سيّء تعصّباً بالأسلاف، وفي غير ذلك فالانتساب إلى الأسلاف الصالحين هي فضيلة، ومن تبرّأ من نسبه فهو على حدّ الكفر.

وقد ورد عنه ﷺ: «كلّ نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلّا نسبي وسببي»[٢].

كما حكى الله على لسان يوسف: ﴿**وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ**﴾[٣].

---

(١) تفسير الكشّاف: ١: ٣١٤. أحكام القرآن للجصّاص: ١: ١٠٢.

(٢) سعد السعود: ٢٥٧. ذخائر العقبى: ١٦٩.

(٣) يوسف ١٢: ٣٨.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[١].

وكذا قوله تعالى في آل موسى وآل هارون: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢].

وكذلك قوله تعالى في آل النبيّ: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾[٣].

وكذا في آل داوود: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً ﴾[٤].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً ﴾[٥].

إبادة حقائق القرآن بتحريف معانيه

إنّ ما فعلته السلطات السياسيّة والخلافة الأمويّة من قلب معنى هذه الآيات ومسخ معناها الحقيقي إلى معنى محرّف إلى درجة شديدة من الغسيل الفكري آل الأمر إلى هجران حقيقة المعنى وإلى تبدّه ونقيضه، وهذا يُعدّ من الملاحم الهامّة في تاريخ القرآن عند المسلمين وهي بصمة من بصمات كثيرة موجودة في تحريف وطمس معاني وحقائق القرآن الكريم، فتعود حقائقه بالية عن الأذهان

---

(١) آل عمران ٣: ٣٣ و ٣٤.

(٢) البقرة ٢: ٢٤٨.

(٣) الصافّات ٣٧: ١٣٠.

(٤) سبأ ٣٤: ١٣.

(٥) النساء ٤: ٥٤.

لتستغيث بمجدّد يحيي الكتاب ليأتي إلى الناس بكتاب جديد في معانيه التي هي حقائقه الأصليّة المطموسة دهوراً وأحقاباً ، فيجدّد إظهار تلك الحقائق المندرسة ، وكم في القرآن الكريم من أمّهات الآيات المحكمات ومعاقد معانيه قد حُـرّفت معانيها وطمسوها ، بل جعلوا لها نقيض معانيها الأصليّة ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُـمَّ يُـحَرِّفُونَهُ مِـن بَـعْدِ مَـا عَـقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وقوله تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾[2].

---

(١) البقرة ٢ : ٧٥.

(٢) المائدة ٥ : ١٣.

التشدد والترهب والرياضات غير المأثورة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ * لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(١)

التشدّد والترهّب والرياضات غير المأثورة

قيل: إنّ الآية الأُولى ـ ٨٧ ـ نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وبلال وعثمان بن مظعون، فأمّا أمير المؤمنين عليه السلام كما روت العامّة، وروى القمّي في تفسيره: عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن بعض رجاله، عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ﴾، قال: «نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وبلال وعثمان بن مظعون، فأمّا أمير المؤمنين عليه السلام فحلف أن لا ينام بالليل أبداً، وأمّا بلال فإنّه لا يفطر بالنهار أبداً، وأمّا عثمان بن مظعون فحلف أن لا ينكح أبداً، فدخلت امرأة

(١) المائدة ٥: ٨٧ ـ ٨٩.

عثمان على عائشة ، وكانت امرأة جميلة ، فقالت عائشة : ما لي أراك متعطّلة ؟

فقالت : ولِمَن أتزيّن ؟ فوالله ما قاربني زوجي منذ كذا وكذا ، فإنّه قد ترهّب ولبس المسوح وزهد في الدنيا ، فلمّا دخل رسول الله ﷺ أخبرته عائشة بذلك ، فخرج فنادى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : ما بال أقوام يحرّمون على أنفسهم الطيّبات ؟ ألا إنّي أنام بالليل ، وأنكح ، وأفطر بالنهار ، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي .

فقام هؤلاء فقالوا : يا رسول الله ، فقد حلفنا على ذلك ، فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ... ﴾ إلى آخر الآية »[١] .

وأوردها ابن شهرآشوب في «المناقب» عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا ... ﴾ الآية ، نزلت في عليّ بن أبي طالب وأبي ذرّ وسلمان والمقداد وعثمان بن مظعون وسالم أنّهم اتّفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا بالليل ، ولا يناموا على الفراش ، ولا يأكلوا اللحم ، ولا يقربوا النساء والطيب ، ويلبسوا المسوح ، ويرفضوا الدنيا ، ويسيحوا في الأرض ، ويرفضوا الدنيا وهمّ بعضهم أن يَجِبّ مذاكيره ، فخطب النبيّ ﷺ ، وقال : ما بال أقوام حرّموا النساء والطيب والنوم وشهوات الدنيا ، أما إنّي لست آمركم أن تكونوا قسسة ورهباناً ، فإنّه ليس في ديني ترك النساء واللحم واتّخاذ الصوامع ، وأنّ سياحة أمّتي ورهبانيّتهم الجهاد »[٢] .

وروى الطبرسي عن الشعبي وأبي مخنف ويزيد بن أبي حبيب المصري :

---

(١) تفسير القمّي : ١ : ١٧٩ . تفسير مقاتل بن سليمان : ١ : ٣١٧ . جامع البيان : ٧ : ١٢ ، ١٤ . تفسير ابن أبي حاتم : ٤ : ١١٨٦ . معاني القرآن للجصّاص : ٢ : ٣٤٩ .

(٢) مناقب آل أبي طالب : ٢ : ١٠٠ .

أنّه... حيث رووا محاججة معاوية وحزبه من بني أُميّة وبني العاص والمغيرة، محاججتهم مع الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام، وتواطأهم عليه، فأدلوا بطعونهم على الإمام الحسن عليه السلام، فأجابهم، ثمّ أخذ يذكر مقامات عليّ عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام، ثمّ قال: **أنشدكُم بالله! أتعلمونَ أنَّ عليّاً أوّلُ مَنْ حرّمَ الشّهَواتِ كلّها علىٰ نفسِهِ مِنْ أصحابِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾**(١)»(٢).

وروى «تفسير فرات الكوفي» ذلك أيضاً أنّها نزلت في عليّ وأصحابه، منهم عثمان بن مظعون وعمّار بن ياسر وسلمان، حرّموا على أنفسهم الشهوات(٣).

وقد أشكل بعض المخالفين المعنى، وأنّه منقصة وذمّ، بل ادّعى بعضهم أنّ هذا من التطرّف والافراط، وأنّ هذه الظاهرة حدثت قبل ظاهرة الخوارج.

الجواب:

أوّلاً: في رواية تفسير النعماني ظاهرها أنّ الذين قاموا بذلك هم عثمان بن مظعون وجمع من الصحابة هم غير عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقد روى عليّ بن الحسين الشريف المرتضى في «رسالة المحكم والمتشابه» نقلاً عن تفسير النعماني: بإسناده عن عليّ عليه السلام، قال: «إنّ جماعة من الصحابة كانوا حرّموا على أنفسهم النساء والإفطار بالنهار والنوم بالليل، فأخبرت أمّ سلمة رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرج إلى أصحابه فقال: أترغبون عن النساء؟ إنّي آتي النساء، وآكل بالنهار، وأنام بالليل،

---

(١) المائدة ٥: ٨٧ و ٨٨.

(٢) الاحتجاج: ١: ٤٠٧.

(٣) تفسير فرات: ١٣٣.

فمن رغب عن سنّتي فليس منّي ، وأنزل الله : ﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

فقالوا : يا رسول الله ، إنّا قد حلفنا على ذلك ؟

فأنزل الله : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ... ذٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ ﴾ »[1] .

ولا يخفى دلالة مواضع منها على المغايرة بين من قاموا بذلك وأمير المؤمنين ، مع أنّ أكثر الروايات الواردة في سبب النزول عامّيّة ، ومع أنّ أكثر رواياتهم لم تشتمل على ذكر اسم أمير المؤمنين .

نعم ، قد مرّ في « تفسير القمّي » روايته ذلك عن الصادق عليه السلام ، وتحتمل الرواية للتقيّة كما هو معهود في جملة من الموارد من اتّقاء الصادق عليه السلام في نسبة فعل أو سيرة لأمير المؤمنين حسب زعم العامّة ، مع أنّ في روايات أُخرى عنه عليه السلام نفى ذلك ، وأمّا رواية الطبرسي في « الاحتجاج » فهي عامّيّة أيضاً ، نعم وبقيّة الروايات من طرقنا مرسلة .

وممّا يعضد ذلك ما روي من أنّ عثمان بن مظعون ، قال : « أتيت النبيّ صلى الله عليه وآله فقلت : يا رسول الله ، ائذن لي في الترهّب .

فقال : لا ، إنّما رهبانيّة أُمّتي في الجلوس في المسجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة .

فقلت : يا رسول الله ، أتأذن لي في السياحة ؟

قال : سياحة أُمّتي الجهاد في سبيل الله .

فقلت : يا رسول الله ، أتأذن لي في الاختصاء ؟

---

(١) وسائل الشيعة : الباب ٢ من أبواب مقدّمات النكاح وآدابه ، الحديث ٩ ، عن المحكم والمتشابه : ٩١.

فقال: ليس منّا من خصى واختصى، إنّما اختصاء أُمّتي الصوم»[١].

فيظهر منها أنّ ابن مظعون هو المتصدّر لهذا الأمر وجماعة آخرون من أصحابه، ومن ثمّ في رواية أُخرى أنّه ﷺ قال لامرأة عثمان بن مظعون: أحقّ ما بلغني عن زوجك وأصحابه؟

والتعبير بأصحاب عثمان بن مظعون لا يشمل عليّاً عليه السلام بعد كونه غير تابع لابن مظعون.

ثانياً: في «الاحتجاج» روى عن الشعبي وأبي مخنف ويزيد بن أبي حبيب المصري، أنّهم قالوا:... وذكروا احتجاج الحسن بن عليّ عليهما السلام على جماعة من بني أُميّة وفيهم المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، وفي الرواية المزبورة احتجاجه عليه السلام على أُولئك بقوله عليه السلام: **وَأَنْشُدُكُمُ اللهَ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ عَلِيّاً أَوَّلُ مَنْ حَرَّمَ الشَّهَوَاتِ كُلَّها عَلىٰ نَفْسِهِ مِنْ أَصْحابِ رَسولِ اللهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾**[٢]، وكان عندهم علم المنايا، وعلم القضايا، وفصل الكتاب، ورسوخ العلم، ومنزل القرآن، وكان رهط لا نعلمهم يتمّمون عشرة نبّأهم الله أنّهم مؤمنون، وأنتم في رهط قريب من عدّة أُولئك لعنوا على لسان رسول الله ﷺ فاشهد لكم واشهد عليكم أنّكم لعناء الله على لسان نبيّه كلّكم»[٣].

واستشهد الفيض في تفسيره «الصافي» بهذه الرواية قائلاً: «ليس في مثل هذا

---

(١) التبيان: ١: ٨.

(٢) المائدة ٥: ٨٧ و ٨٨.

(٣) الاحتجاج: ١: ٤٠٧.

الخطاب والعتاب منقصة على المخاطب والمعاتب إن لم يكن محمدة، نظيره قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[1]، وقد ورد القرآن كلّه تقريع وظاهره تقريب»[2].

أي أنّ لحن الخطاب وإن كان فيه العقاب، لكنّه بداعي الحنان والعطف والرأفة نظير قوله تعالى: ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾، ونظير ما استشهد به الفيض آية سورة التحريم من أنّ ظاهرها عتاب، ولكنّ الغاية المرادة جدّاً هو الدفاع من الله عزّ وجلّ عن نبيّه في قبال أزواجه، ويدعم هذا الاستظهار أيضاً ما أشارت إليه رواية «الاحتجاج» من نعت الله لهم بالإيمان.

وبعبارة أُخرى: أنّ النهي عن هذا النمط من الترهّب والانقطاع عن الشهوات، إنّما صدر تشريعه بنزول هذه الآية وصدور النهي النبويّ في هذه الواقعة، وأمّا قبل هذه الواقعة فكان ذلك مندرجاً في عمومات التشريع غير منهيّ عنه، وأمّا قوله تعالى في الآية ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ فقد يفسّر ـ كما ذكر القطب الراوندي[3] ـ، أي لا تعتدوا إلى ما حرّم عليكم ونهى عنه الحكيم، وزجر عنه، واعتداء الحدّ مجاوزة لحكمه، وعلى هذا التفسير فلا يكون المخاطب بـ(لا تعتدوا) مَن نزلت الآية فيهم في صدر الآية، بل يكون هذا الذيل توصية عامّة لبيان النهي عن الطرفين: طرف تحريم الطيّبات والطرف المقابل، وهو الوقوع في المحرّمات، أي لا تنقطعوا عن الشهوات بالمرّة كما لا توغلوا،

---

(١) التحريم ٦٦: ١ و ٢.

(٢) تفسير الصافي: ٢: ٨٠.

(٣) فقه القرآن: ٢: ٦٣٦.

وتوصي بالتوسّط ، وهذه قاعدة مهمّة في أسباب النزول ، أُشير إليها في روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ الآية صدرها قد يكون في شخص ومورد معيّن ووسطها في آخر وذيلها في ثالث.

وفي الرواية النبويّة الواردة في شأن عثمان بن مظعون: «مَن رغب عن سنّتي فليس منّي ، واستقيموا يستقم لكم ، فإنّما هلك مَن كان قبلكم بالتشديد... شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع ، فأنزل الله الآية»[1].

وذيل قوله صلى الله عليه وآله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[2].

وفي جملة من الروايات الواردة عنهم عليهم السلام تفسير الرهبانيّة ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ ﴾ بصلاة الليل[3] كما احتمله المجلسي[4]، وهذه الآية في سورة الحديد هي الأخرى من ملاحم الآيات التي تنهى عن التشديد والترهّب ، وإن وقع لكثير من المفسّرين في غير ما تومي إليه الآية ، فظنّوا أنّ ذيل الآية مديح مع أنّ الصحيح ـ حسب الروايات ـ أنّ الذيل هو بيان لغايتهم والهدف الذي قصدوه من ابتداع الرهبانيّة.

---

(١) مجمع البيان: ٣: ٤٠٤.

(٢) الحديد ٥٧: ٢٧.

(٣) الكافي: ٢: ٢٣٢، و: ٣: ٤٨٨. من لا يحضره الفقيه: ١: ٤٧٢. علل الشرائع: ٣: ٣٦٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ٢٥٤. تهذيب الأحكام: ٢: ١٣٠.

(٤) بحار الأنوار: ٨٤: ١٤٦.

فقد روى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ، قال: «كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار، فقال: يابن أمّ عبد، هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانيّة؟

فقال: الله ورسوله أعلم.

فقال: ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى عليه السلام يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهزمهم أهل الإيمان ثلاث مرّات، فلم يبق منهم إلّا القليل، فقالوا: إن ظهرنا هؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو إليه، فتعالوا نتفرّق في الأرض إلى أن يبعث الله النبيّ الذي وعدنا به عيسى عليه السلام يعنون محمّداً ﷺ، فتفرّقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانيّة، فمنهم مَن تمسّك بدينه، ومنهم مَن كفر، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا...﴾.

ثمّ قال: يابن أمّ عبد، أتدري ما رهبانيّة أمّتي؟.

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحجّ والعمرة».

وفي حديث آخر عن ابن مسعود: «أنّه ﷺ قال: من آمن بي وصدّقني واتّبعني فقد رعاها حقّ رعايتها، ومَن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون»[1].

ويظهر من الرواية بوضوح أنّ المراد بـ«ما رعوها حقّ رعايتها» هو الدعوة إلى النبيّ ﷺ والإيمان به، لأنّ غايتهم من ابتداع الرهبانيّة هو الإبقاء على أنفسهم كي يدعوا إلى الدين الذي يبشّر بسيّد الأنبياء.

ويشهد لمفاد هذه الرواية ذيل الآية من قوله تعالى: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، أي أنّ الرعاية هي بلحاظ الإيمان بسيّد الرسل،

(١) مجمع البيان: ٩: ٤٠٤. بحار الأنوار: ٦٥: ٣٠٢.

فالمديح في الرعاية التي هي الغاية لما ابتدعوه وليس للبدعة التي ابتدعوها والترهّب الذي ألزموا أنفسهم به.

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ شرح للغاية التي قصدوها من هذه البدعة وهي الإيمان بسيّد الأنبياء، فلا يستفاد من هذه الآية من سورة الحديد امتداح التشدّد والترهّب كما توهّم ذلك الكثير من المفسّرين فجعلوا مفاد الآية بأنّ تلك البدعة وإن لم يكتبها الله عليهم، إلّا أنّه امتدحهم عليها، فتطابق آية الحديد وآية المائدة في ذمّ التشدّد والترهّب، بعدما وُصِف في الآية الأولى بأنّه اعتداء.

وكذا ما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١)، فإنّه متطابق مع الآيتين على ما استظهر من لفظ ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي ثقلهم، شبّه ما كان على بني إسرائيل من التكليف الشديد بالثقل، وذلك أنّ الله سبحانه جعل توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً، بينما جعل توبة هذه الأمّة الندم بالقلب حرمة للنبيّ ﷺ، والأغلال التي عليهم نظير قرض ما يصيبه البول من أجسادهم، وأشبه ذلك من تحريم السبت، وتحريم العروق في اللحم والشحوم، وقطع الأعضاء الخاطئة، ووجوب القصاص دون الدية حتّى في الخطأ وغيرها.

وهذا التشديد بعد أن شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ

---

(١) الأعراف ٧: ١٥٧.

اللهِ كَثِيراً﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعامِ كَانَ حِلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢).

اعتراض وجواب: قد يقال إنّ هناك جملة من الشواهد يستفاد منها رجحان الترهّب:

الأوّل: قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا﴾ (٣) يفيد امتداح الرهبانيّة والقسّيسيّة، والتعليل بهما أنّهما السبب لمودّة النصارى للذين آمنوا، وأنّهما السبب للتواضع ولرقّة القلب لو أنّ القسّيسيّة والرهبنة ممدوحة في سياق التواضع وعدم الاستكبار ورقّة القلب.

الثاني: أنّ الرهبنة من الرهبة، وهي المخافة مع التحرّز والاضطراب، والترهّب التخلّي من أشغال الدنيا وترك ملاذّها والزهد فيها، والعزلة عن أهلها، وتعهّد مشاقّها، وترهّب الرجل: إذا صار راهباً يخشى الله، والخوف من الله أمرٌ ممدوح وكلّ عمل من خشية الله فهو فضيلة.

الثالث: دعاء أمّ داود: «**اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى الْأَبْدالِ، وَالْأَوْتادِ، وَالسُّيّاحِ، وَالْعُبّادِ، وَالْمُخْلِصِينَ، وَالزُّهّادِ، وَأَهْلِ الْجِدِّ وَالْإِجْتِهادِ**»، ويستفاد من ذلك الدعاء بالمديح

---

(١) النساء ٤: ١٦٠.

(٢) آل عمران ٣: ٩٣ و ٩٤.

(٣) المائدة ٥: ٨٢ و ٨٣.

للسيّاح والأوتاد والعبّاد والزهّاد[١].

الرابع: ما كان في سيرة النبيّ في جملة من الموارد من التشدّد في العبادة.

منها: أنّ النبيّ ﷺ قد كان يتعبّد في غار حراء كلّ عام، ويعتزل الناس إلى أن بُعث رسولاً. قد أورد المجلسي في «البحار» عن بعض الكتب أنّه قد ورد في الكتب الصحاح أنّه كان يجاور في حراء من كلّ سنة شهراً، وكان يطعم في ذلك الشهر من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من حراء كان أوّل ما يبدأ به إذا انصرف أن يأتي باب الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك، ثمّ يرجع إلى بيته حتّى جاءت السنة التي أكرمه الله تعالى فيها بالرسالة[٢].

ومنها: ما في قوله تعالى: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾[٣]، ففي موثّق أبي بصير عن أبي جعفر: «وكان رسول الله ﷺ يقوم على أطراف أصابع رجليه، فأنزل الله سبحانه ﴿طه﴾ الآية»[٤].

---

(١) في كتاب العين: والقسّ رأس من رؤوس النصارى، وكذلك القسّيس، ومصدره القسوسة والقسيسة والقَسقَس: الدليل الهادي المتفقّد الذي لا يغفل إنّما هو تلفّتاً ونظراً، والقسّ: تتبّع النمائم، وقيل: قسيس كلمة سريانيّة في الأصل معناها شيخ، وفي العرف الكنسي هو أحد أصحاب المراتب في الديانة، وهو بين الأُسقف والشماس، وفي الكتاب المقدّس في رسائل بولس (الرسالة الأُولى إلى تيموثاوس) تُرجم القسّيسين بالرعاة (ما أصدق القول إنّ من يرغب في الرعاية يتوق إلى عمل صالح، إذن يجب أن يكون الراعي بلا عيب زوجاً لامرأة واحدة نبيهاً عاقلاً مهذّباً مضيافاً قادراً على التعليم)، وفي شرح ذلك الكتاب فسّره بمعنى الشيخ أيضاً.

(٢) بحار الأنوار: ١٥: ٣٦٣.

(٣) طه ٢٠: ١ و ٢.

(٤) الكافي: ٢: ٧٧.

وفي رواية أُخرى لأبي بصير في «تفسير القمّي» عنهما عليهما السلام ، قالا : «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا صلّى قام على أصابع رجليه حتّى تورّمت ، فأنزل الله تبارك وتعالى الآية»(١) .

وروى الطبرسي في «الاحتجاج» عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال في وصف النبيّ : «إنّه كان إذا قام إلى الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل على الأثافي من شدّة البكاء ، وقد آمنه الله عزّ وجلّ من عقابه ، فأراد أن يتخشّع لربّه ببكائه ويكون إماماً لمن اقتدى به ، ولقد قام عشر سنين على أطراف أصابعه حتّى تورّمت قدماه ، واصفرّ وجهه ، يقوم الليل أجمع حتّى عوتب في ذلك ، فقال الله عزّ وجلّ : ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ بل لتسعد به ، ولقد كان يبكي حتّى يُغشى عليه ، فقيل : يا رسول الله ، أليس قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟

قال : بلى ، أفلا أكون عبداً شكوراً»(٢) .

قال في «مجمع البيان» : «أنّ النبيّ كان يرفع إحدى رجليه في الصلاة ليزيد تعبه ، فأنزل الله : ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ ، فوضعها . قال : وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام»(٣) .

وفي موثّق ابن بكير ، عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعدما عَظُم أو بعدما ثَقُل ، كان يصلّي وهو قائم ، ورفع إحدى رجليه حتّى أنزل الله تعالى : ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ ، فوضعها»(٤) .

وقد ذهب غير واحد من الأعلام إلى جواز الوقوف على الواحدة عملاً بإطلاق

(١) تفسير القمّي : ٢ : ٣٢ .

(٢) الاحتجاج : ١ : ٢١٩ .

(٣) مجمع البيان : ٧ : ٦ .

(٤) وسائل الشيعة : ٥ : ٤٩١ ، الباب ٣ من أبواب القيام ، الحديث ٤ .

الأدلّة في القيام، وأنّ الآية الكريمة غير ناسخة في المقام، كما قد جوّز جماعة الوقوف على بعض الأصابع أو الأصول، لإطلاق الأدلّة، والآية ناظرة لنفي الالزام نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [١]، فلا تدلّ على نفي المشروعيّة، والكيفيّة المزبورة باقية على ما هي عليه من الرجحان والمحبوبيّة غايته أنّها غير واجبة، وسياق الآية يشهد بورودها في مقام الامتنان، ورفع ما يوجب الشقاء والتعب والكلفة عن النبيّ الأقدس ﷺ.

نعم، ما كان يصدر منه ﷺ لم يكن على اللزوم والوجوب لترفعه الآية، بل من باب أن أفضل الأعمال أحمزها، فنزلت الآية إشفاقاً به، لكنّ الآية لا تنفي المشروعيّة، بل نفي أفضليّة هذا العرض.

هذا ما قرّره غير واحد من الأعلام، ولعلّ سائل يسأل عن سبب التأخير في نزول الآية، مع أنّه ﷺ كان يمارسه عشر سنين؟

ومن ثمّ لعلّ الوجه في مفاد الآية هو نفي الاستمرار والدوام على هذا الفرد لإيجاب الاستمرار والدوام في الوقوع في المشقّة لا نفي الأفضليّة، ولا نفي أنّ أفضل الأفراد أحمزها، أو أنّ الأحمزيّة وإن كانت أفضل، إلّا أنّها قد تزاحم بعنوان آخر أرجح منها، أو أنّ الأحمزيّة أفضل ما لم توجب المشقّة الشديدة، ومفاد هذه الآية حينئذٍ يخرّج قاعدة عامّة في باب العبادات والرياضات السلوكيّة الشرعيّة أنّه لا بدّ فيها من مراعاة عدم الوقوع في إشقاء النفس، نظير ما روي عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: إنّ هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، ولا تكرّهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبت الذي لا سفر قطع،

---

(١) الحجّ ٢٢: ٧٨.

ولا ظهراً أبقى »[١].

الخامس: ما ورد أنّ أفضل الأعمال أحمزها[٢].

السادس: ما رواه الصدوق في «الأمالي» في صحيح هشام بن سالم، عن جعفر بن محمّد عليه السلام قال: «إنّ داود عليه السلام: خرج ذات يوم يقرأ الزبور، وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر ولا سبع إلّا جاوبه، فما زال يمرّ حتّى انتهى إلى جبل، فإذا على ذلك الجبل نبيّ عابد يقال له حزقيل، فلمّا سمع دويّ الجبال وأصوات السباع والطير علم أنّه داود عليه السلام، فقال داود: يا حزقيل، أتأذن لي فأصعد إليك؟

قال: لا، فبكى داود عليه السلام، فأوحى الله جلّ جلاله إليه: يا حزقيل، لا تعيّر داود، وسلني العافية، فقام حزقيل فأخذ بيد داود فرفعه إليه، فقال داود: يا حزقيل، هل هممت بخطيئة قطّ؟ قال: لا.

قال: فهل دخلك العجب ممّا أنت فيه من عبادة الله عزّ وجلّ؟ قال: لا.

قال: فهل ركنت إلى الدنيا فأحببت أن تأخذ من شهوتها ولذّتها؟ قال: بلى، ربّما عرض بقلبي» الحديث[٣].

وهذه الرواية تتضمّن الدلالة على رجحان التعبّد فوق الجبال بنحو الانعزال في شرائع الأنبياء السابقين.

السابع: ما في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً**﴾[٤]، حيث امتدحت الصوامع

---

(١) الكافي: ٢: ٨٦، باب الاقتصاد في العبادة.

(٢) بحار الأنوار: ٧٠: ١٩١، ٢٣٧.

(٣) الأمالي ـ المجلس الحادي والعشرون: ١٥٩.

(٤) الحجّ ٢٢: ٤٠.

للرهبان في سياق المساجد، وأنّها يُذكر فيها اسم الله.

ولتنقيح الحال في الشواهد السابقة على مسألة حكم الترهّب، والأوّل وهو قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ... ﴾[1]، فهو وإن استفيد منه امتداح لين جانبهم ورقّة قلوبهم، وقلّة حرصهم على الدنيا، واهتمامهم بالعلم والعمل، حيث أنّ عنوان القساوسة إشارة إلى الموقعيّة في العلم، والرهبنة إشارة إلى قلّة حرصهم على الدنيا، وفيض أعينهم من الدمع إلى رقّة قلوبهم، وأنّهم لا يستكبرون إشارة إلى لين جانبهم، إلّا أنّه قيّد باستجابتهم للإيمان برسول الله، وما أنزل إليه، وذلك لا يستفاد منه امتداح الوسيلة التي ترهبنوا بها، فمدح الغاية لا يستلزم التقرير بالطريق إليها.

كما أنّ تخطئة الطريق لا تستلزم تخطئة الغاية، كما في قوله: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[2]، فكون بعض الجهات سلبيّة لا تنفي الجهات الإيجابيّة ولا العكس كذلك، وهذا ممّا يصعب تفكيكه على الكثير، والشنآن في اللغة البغض والعداوة، فمجرّد كون الطرف الآخر عدوّ لا يستلزم التفريط بالموازين معه في الجوانب الأخرى، وهذا نمط من التفكيك من الجهات والحيثيّات.

ونظير قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾[3]، فمجرّد بدو الخيانة منهم لا يستلزم المبادرة بنكث العهد معهم قبلهم، بل لا بدّ من اعتماد طريق منصف بين الطرفين.

---

(١) المائدة ٥: ٨٢ و ٨٣.

(٢) المائدة ٥: ٨.

(٣) الأنفال ٨: ٥٨.

ونظير قوله ﷺ: «لا تقتلوا الخوارج بعدي، فليس مَن طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه (يعني معاوية وأصحابه)»، فالخوارج رغم أنّهم من أصحاب النار، بل وصفوا في الحديث النبويّ بأنّهم كلاب النار، إلّا أنّه ﷺ ميّز بين ما رفعوه من شعار وبين ما اعتقدوه من منهج خاطئ ومنحرف، بخلاف معاوية وأصحابه، وهذا التمييز بين الفرقتين رغم أنّ كلتيهما من فِرق الباطل، يندرج في التفكيك بين الحيثيّات.

فكون الخوارج قد حبط عملهم وآلوا إلى الردى والهلاك، لا ينافي تمييز ما فيهم من بعض جهات الصواب، والموازنة بهذا المقدار من أصعب الصعاب التي تحتاج إلى علم وافر وصدر منشرح للإحاطة بجميع الحيثيّات، ومراعاة الموازين المتعدّدة، فلاجهة الصواب في الخوارج توجب انخداع الباحث عن تردّي محصّلة أعمالهم وسوء العاقبة، ولا سوء عاقبتهم تحجب الباحث عن جهة الصواب في بعض الحيثيّات التي لديهم.

وروي: «أنّ إبليس مرّ بيحيى ومعه رغيف شعير، فقال: أنت تزعم أنّك زاهد وقد ادّخرت رغيف شعير.

فقال يحيى: يا ملعون، هو القوت.

فقال إبليس: إنّ أقلّ من القوت يكفي لمن يموت.

فأوحى الله إليه: اعقل ما يقول لك»[1].

فمع كون إبليس عدوّ مبين ولعين رجيم، إلّا أنّ ذلك لا يمنع أخذ الحكمة ولو من الكافر، فإنّ الحكمة ضالّة المؤمن بعد أن يعلم وجهها.

---

(١) بحار الأنوار: ١٤: ١٨٩.

فتحصّل: أنّه لا تدافع بين آية المائدة المادحة لجملة من النصارى، وهم الذين يؤمنون بخاتم الأنبياء بمقتضى وصيّة الدين الذي بُعث به عيسى ﷺ لا مطلق النصارى، كما هو مقتضى التقييد الموجود في الآية الكريمة، ونبّه عليه أبو جعفر ﷺ، كما روي عنه في ذيل الآية، وتعليل مدحهم لوجود العلم والرهبنة فيهم (أي الزهد في الدنيا) هو بلحاظ تأدية العلم والزهد إلى الغاية الحميدة، وهي الإيمان بخاتم الأنبياء.

وبذلك يظهر تطابق مفاد هذه الآية مع مفاد آية الحديد، حيث أنّ في آية الحديد امتداح الغاية في قوله تعالى: ﴿ **إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ** ﴾، ففي آية الحديد أيضاً تفكيك بين إيجابيّة الغاية وإيجابيّة الزهد عن الدنيا في نفسه مع ذمّ حيثيّة أُخرى، وهو ابتداع طريقة الرهبنة، فيتطابق مع مفاد الآيتين.

وسيتحصّل من مفادهما أنّ مدح الغاية لا يستلزم مدح الوسيلة، كما أنّ الوسيلة قد تكون في نفسها مشروعة، إلّا أنّ الغاية مذمومة، وهذا من المداقّة في الميزان والموازنة والتمييز بين الصواب والخطأ من دون الاجحاف لجهة من الجهات.

ومن ذلك يظهر الجواب عن الثاني، فإنّ التخلّي عن التشبّث والاشتغال بالدنيا وملاذّها والخوف والخشية من الله، وإن كانت في نفسها ممدوحة وراجحة عظيمة، إلّا أنّ ذلك لا يلازم رجحان أي وسيلة تُتّخذ طريقاً لتلك الغاية، ومنه يُفهم مغزى النهي النبويّ الوارد عن الرهبانيّة وعن السياحة أنّ النفي لهذه الرهبانيّة والسياحة بلحاظ ما ابتدعه النصارى من طريقة أو ما كانت عليه الشرائع السابقة من السياحة في الأرض، وأمّا بيان متحصّل الجمع بين مدح الزهد في الدنيا كغاية والإيمان بسيّد الأنبياء، وبين النهي عن طريقة الرهبنة بقول مطلق والسياحة،

فقد مرّت الإشارة إلى جملة من الروايات المستفيضة عند الفريقين الناهية عن الرهبانيّة والسياحة في الإسلام.

وقد روي في «الدعائم» أيضاً عن رسول الله ﷺ: أنّه نهى عن الترهّب، قال: «لا رهبانيّة في الإسلام، تزوّجوا فإنّي مكاثر بكم الأمم»، ونهى عن التبتّل، ونهى النساء أن يتبتّلن ويقطعن أنفسهنّ عن الأزواج»[١].

روى في «الكافي»: عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إنّ الله تبارك وتعالى أعطى محمّداً ﷺ شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام: التوحيد والإخلاص وخلع الأنداد والفطرة الحنيفيّة السمحة، ولا رهبانيّة ولا سياحة، أحلّ فيها الطيّبات، وحرّم فيها الخبائث، ووضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ثمّ افترض عليه فيها الصلاة والزكاة...»[٢].

وهناك لسان آخر يحصر طريقة الرهبانيّة والسياحة في الجهاد أو حجّ بيت الله الحرام أو الذهاب إلى المساجد أو الجلوس في المساجد وانتظار الصلاة والصومعة بالجلوس والاختصاء أو الحصوريّة في الصوم.

روى الصدوق في «الخصال»: عن زيد بن عليّ، عن آبائه، عن عليّ عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: ليس في أمّتي رهبانيّة ولا سياحة ولا زمّ»[٣].

وروى الصدوق حصر الرهبانيّة بالجهاد في سبيل الله[٤].

وقد تقدّم بعض الروايات النبويّة في ذلك.

---

(١) الدعائم: ٢: ١٩٣.

(٢) الكافي: ٢: ١٧، الحديث ١.

(٣) الخصال: ١٣٨، الحديث ١٥٤. معاني الأخبار: ١٧٤، الحديث ١.

(٤) أمالي الصدوق: ١٢٣، الحديث ١١٣.

وفي «الكافي» معتبرة السكوني عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الاتكاء في المسجد رهبانيّة العرب. إنّ المؤمن مجلسه مسجده، وصومعته بيته»[(١)].

وقد مرّ في جملة من الروايات أنّ تفسير الرهبانيّة المبتدعة بصلاة الليل، ولعلّ الظاهر تفسير رضوان الله لا تفسير الرهبانيّة، فقد روى الكليني عن أبي الحسن عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ** ﴾، قال: صلاة الليل»[(٢)].

وفسّر المجلسي في «مرآة العقول» الجواب بأنّه راجع إلى رضوان الله[(٣)].

فهو أنّ الغاية وإن كانت ممدوحة للرهبانيّة والاختصاء والسياحة والزمّ - وهو الصوم من الكلام -، إلّا أنّ الشارع رغم امتداحه لهذه الغايات، قد ردع عن الوسائل والطرق السابقة في تلك الشرائع، أو التي لدى أتباعها من أنفسهم، واستبدلها بوسائل وطرق أُخرى، وهذا ممّا يعطي قاعدة عامّة في باب الرياضات والسلوكيّات الروحيّة العباديّة من الوصول للغايات النهائيّة في العبادات لا يكون ولا يسوغ بأي وسيلة، بل لا بدّ من الاعتماد على الوسائل المشروعة.

وبعبارة أُخرى: أنّ في العبادات والسلوكيّات الروحيّة والرياضات النفسيّة مدارج من الغايات كطبقات تتلو بعضها البعض، نظير ترتّب الصفات على الأفعال، وترتّب الملكات على الصفات، ولكلّ من الملكات طبقات، كما أنّ للصفات طبقات، وكذلك للأفعال طبقات، والوصول من طبقة إلى طبقة أُخرى هو بتوسّط جوادّ الشريعة والطريقة القويمة.

---

(١) الكافي: ٢: ٦٦٣.

(٢) الكافي: ٣: ٤٨٨، الحديث ١٢.

(٣) مرآة العقول: ١٥: ٤٨٣.

ومن الواضح خطورة وحسّاسيّة سبل الوصول إلى الغايات، فإنّ بينها تفاوت بالغ التأثير في الوصول إلى المقاصد، ومن ثمّ اختلفت الشرائع كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾(١)، مع أنّ الدين الذي هو غاية للشرائع واحد عند جميع الأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلَامُ﴾(٢)، والمناهج كما يستفاد من رواياتهم عليهم السلام من مثيل السبل في الشريعة الواحدة، فالشريعة يسنّها الأنبياء، والمناهج يسنّها الأوصياء والأئمّة، وكذلك الشأن في الطريقة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً﴾(٣).

وبالشريعة والمنهاج والطريقة يصاب الدين، وقد ورد عنهم عليهم السلام: «أنّ الدين لا يصاب بالعقول»، فقد روى الصدوق بسنده: عن أبي حمزة الثمالي، قال: «قال عليّ بن الحسين عليه السلام: **إِنَّ دِينَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُصابُ بِالْعُقولِ النَّاقِصَةِ، وَالآراءِ الْباطِلَةِ، وَالْمَقاييسِ الْفاسِدَةِ، وَلَا يُصابُ إِلَّا بِالتَّسْليمِ، فَمَنْ سَلَّمَ لَنا سَلِمَ، وَمَنِ اقْتَدى بِنا هُدِيَ، وَمَنْ كانَ يَعْمَلُ بِالْقِياسِ وَالرَّأْيِ هَلَكَ، وَمَنْ وَجَدَ في نَفْسِهِ شَيْئاً مِمّا نَقولُهُ أَوْ نَقْضي بِهِ حَرَجاً كَفَرَ بِالَّذي أَنْزَلَ السَّبْعَ الْمَثانِيَ وَالْقُرْآنَ الْعَظيمِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ**»(٤).

وبعبارة ثالثة اصطلاحيّة أنّ هناك عمومات وقواعد فوقيّة تتنزّل منها عمومات وقواعد أُخرى، ويكون هذا التنزّل ذو مراتب، فالعمومات والقواعد المتنزّلة لا يصحّ التمسّك بالفوقيّ منها مع وجود العموم الذي هو نازل في المرتبة الثانية،

---

(١) المائدة ٥: ٤٨.

(٢) آل عمران ٣: ١٩.

(٣) الجنّ ٧٢: ١٦.

(٤) كمال الدين: ٣٢٤، الحديث ٩.

فلا يصحّ التمسّك بالعمومات الفوقيّة مع وجود العمومات التنزّليّة، لأنّها بمثابة المخصّصات والمقيّدات والمفسّرات للعمومات الفوقيّة، فلا تبقى العمومات الفوقيّة على إطلاقها، فإنّ دور العموم النازل هو تحديد مسار التطبيقيّ للعموم الفوقيّ، فيحدّد إطار نزوله وتنزّله في القالب الذي اشتمل عليه العموم النازل، ومن ثمّ سمّي العموم النازل مخصّصاً ومبيّناً ومقيّداً.

وبهذا البيان يظهر تطابق الآيتين الواردة في الرهبانيّة مع قوله تعالى: ﴿ **لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾، وكم هو بيّن مفاد آية المائدة في النهي عن اتّخاذ وابتداع طرق وسبل لم ترشد إليها الشريعة ولا مناهج الأوصياء فيتطابق مفاد الآيات بعضها مع بعض.

الابتداع والسنن الحسنة

ثمّ لا بدّ للالفات إلى الضابطة المائزة بين الابتداع المذموم وبين القاعدة النبويّة الواردة: «مَن سنّ سنّة حسنة كان له أجرها وأجر مَن عمل بها إلى يوم القيامة»، فإنّ الفارق بين الموردين هو أنّ في البدعة اتّخاذ طريقة ومنهاج لا يندرج في العمومات النازلة، وإن اندرج في العمومات الفوقيّة، أي أنّ البدعة تتخطّى فيها القواعد المبيّنة في الأدلّة المفسّرة للوسائل والطرق الموصلة للأهداف الشرعيّة فيتّخذ وسيلة في عرض الوسائل والسنن المحدّدة في الشرع، فلا يكفي في تثبيت المشروعيّة والشرعيّة اندراج الفعل في العمومات الشرعيّة فحسب، بل لا بدّ من اندراجه في الأدلّة المفسّرة للعمومات، أو فقل: لا بدّ أن لا يتنافى الفعل مع المخصّصات الواردة، أي لا بدّ أن يندرج تحت آخر عموم نازل مفسّر ومطبق للعمومات الفوقيّة.

ولذلك سمّى القرآن ما صنعه الرهبان ابتداع ما كُتب عليهم، مع أنّه يندرج

في عموم الزهد والخشية وعدم الإخلاد إلى الدنيا، والمرابطة والمحافظة على بقاء الدين، وهذه العمومات المندرج فيها فعلهم، هي بمثابة غاية امتدحتها الآية، إلّا أنّها ذمّت الوسيلة، وذلك بتحديد الشرائع السابقة وسائل خاصّة للوصول للغاية المنشودة، حيث قام الرهبان بنبذ تلك الوسائل واستبدالها بوسائل من عندهم، أو من عند أنفسهم، ومن ذلك يتبيّن أنّه لا يكفي في المشروعيّة للفعل مجرّد الاندراج في عموم من العمومات الواردة والمتضمّنة للحكم الشرعي ولا مجرّد الاندراج في الأحكام العقليّة العامّة، بل لا بدّ من الاندراج في العمومات التحتانيّة غير المخصّصة ولا المقيّدة، وأمّا السنّة الحسنة فتتبيّن ضابطتها ممّا مرّ من أنّها كلّ عادة أو عرف اجتماعيّ يؤسّس في الظاهرة الاجتماعيّة، ويكون مندرجاً في العموم التحتانيّ، ولا يكون بذلك بدعة أو ابتداعاً، وذلك لأنّ إرسال الشارع لذلك العموم من دون تقييد أو تخصيص بآليّة خاصّة، يفيد الترخيص والإذن منه في تطبيق العنوان والطبيعة المأخوذة في العموم على أيّ مصداقٍ يستحدث ويوجد لتلك الطبيعة.

أمّا **الشاهد الثالث** وهو المديح الوارد في جملة من الأدعية للسيّاح والعبّاد والزهّاد وأهل الجدّ والاجتهاد، وكذا **الشاهد الرابع** وهو ما كان من سيرة النبيّ ﷺ من التعبّد في غار حراء كلّ عام شهراً أو قيامه ﷺ على أطراف أصابعه، أو الوقوف على رجل واحدة في الصلاة، ونحوها...

فأمّا السياحة، فما ورد من نصوص مستفيضة في تفسيرها بالجهاد أو الجلوس في المساجد ونحوه، أو بالصوم بضميمة النهي والنفي لما في الشرائع السابقة من سياحة، فلايتوهّم من المديح لهذا العنوان إرادة ما في الشرائع السابقة، هذا مضافاً إلى اختلاف عنوان السياحة والحصوريّة التي كانت لدى النبيّ عيسى

ويحيى عليه السلام هي من تشريعات الأنبياء السابقين وليس من ابتداع البشر، وهي وإن كانت منسوخة في شريعتنا، إلّا أنّه كما بيّنا في حلقة النسخ أنّه وإن كان عزيمة في نفي المشروعيّة، إلّا أنّه لا ينافي الرجحان الذاتيّ في نفسه، وإن لم يستلزم ذلك بقاء المشروعيّة.

فكم فرق وبون كبير بين ما شُرّع على أيدي الأنبياء ونُسخ في شريعة خاتم الأنبياء، وبين ما ابتدع من قِبل سائر البشر وأتباع الأنبياء، وأمّا الموارد التي كانت في سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله فقد تقدّم نقل الأقوال في بقاء مشروعيّة تلك الأفعال، وأنّها لم تنسخ، وأنّ المحصّل من الآيات الواردة في شأنه صلى الله عليه وآله هو نفي الاستمرار والدوام على أحمز الأعمال وأشقّها، وأنّه سيحصل من تلك الآيات قاعدة في باب العبادات والرياضات الشرعيّة، وهي مراعاة عدم الوقوع في إشقاء النفس، وتوخّي الرفق والتدرّج فيها، فما في آية سورة طه يتطابق مع ما في آيتي الرهبانيّة وآية المائدة، من نفي الشدّة والشقاء في العبادات والرياضات الشرعيّة، ولزوم توخّي ما سُنّ في شريعة خاتم الأنبياء من الوسائل الموصوفة بكونها الشريعة السمحة السهلة، إذ قال جملة من المحقّقين: «أنّ ما في سنن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله هو أشدّ امتحاناً للنفس ممّا في سنن الأنبياء السابقين، وذلك لسهولة الانقطاع بنحو البتر والبتل عن غرائز النفس بنحو دفعي أو ببناء عادة دائمة، وهذا بخلاف إذاقة النفس جملة من اللذائذ، الفينة بعد الأخرى، مع ترويض إمساكها، فإنّ ذلك أصعب وأشدّ في الاستقامة».

فتبيّن أنّ ما في سيرته صلى الله عليه وآله لا ينطبق مع ما عليه الترهّب عند النصارى حتّى اعتكافه صلى الله عليه وآله في غار حراء، فإنّه لم يكن انقطاعاً دائماً عن الناس وإرشاد العباد، بل هو نظير ما روي من مماثلة أمير المؤمنين لما قام به صلى الله عليه وآله من عبادته وتهجّده ليلاً

في بساتين المدينة منقطعاً عن الناس في تلك الساعات، أو خروجه عليه السلام إلى ظهر الكوفة ممّا يلي البريّة، وكذا خروج زين العابدين عليه السلام إلى بعض أطراف البريّة للتعبّد والانقطاع بعض الأوقات، ونظير ما روي عن موسى بن جعفر عليه السلام من شكره لله تعالى أن فرّغه لعبادته في السجن، وهو نحو انقطاع غيرهم من أئمّة أهل البيت عليهم السلام في حالاتهم وسيرتهم، بل وروى ذلك أيضاً في بعض سيرته صلى الله عليه وآله لمّا هاجر إلى المدينة، حيث اتّخذ مشربة أمّ إبراهيم مكاناً ينقطع إليه في بعض الأوقات.

أمّا **الشاهد الخامس**، وهو ما روي: «أنّ أفضل الأعمال أحمزها»، وقد تبيّن أنّ جملة من الآيات، نظير ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾.

وقوله تعالى أيضاً: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1]، وغيرها من الآيات والروايات أنّ قاعدة (أفضل الأعمال أحمزها) مقيّدة بعدم التأبيد والدوام، فإنّ الله كما يحبّ أن يؤخذ بعزامه أن يؤخذ برخصه، وأنّ الشريعة سهلة سمحاء، ومقيّدة بعدم إشقاء النفس لنفس تلك الآيات والروايات بعد التأكيد على الرفق واللين في الأمور كلّها، فلابدّ أن تقيّد القاعدة بهذين القيدين.

ثمّ إنّه لا بدّ من الخوض في معنى تحريم الطيّبات، هل هو المشارطة بترك الطيّبات والمباحات بتوسّط اليمين والحلف بأسماء الله أو العهد أو النذر،

---

(١) الأعراف ٧: ١٥٧.

أو المشارطة ضمن العقد أو الالتزام بمحظوريّة المباحة، فعلاً أو تركاً، وإن لم ينسب الحظر والمنع إلى الشارع؟ أي يكون متعلّق الالتزام نفس الحذر والمنع لا الفعل والترك؟ أو التزام الفعل المباح أو الترك المباح بنحو التأبيد؟ أو التزام الفعل أو الترك ولو لمدّة محدودة؟

قد يقال: إنّ التحريم إنّما يصدق فيما لو بني على الحرمة مع نسبتها إلى الشرع دون ما التزم بالحرمة والمنع والحظر، مع الالتفات إلى عدم نسبتها إلى الشرع، وإنّما يتبنّاها الشخص فيما بينه وبين نفسه، أو يتبنّاها عرف خاصّ مع الالتفات إلى قطع نسبتها إلى الشارع، فإنّ ذلك لا يكون تحريماً.

فضلاً عمّا لو التزم بالفعل المباح أو الترك المباح بنحو التأبيد من دون تعلّق الالتزام بالحظر أو المنع كصفة للعمل، فضلاً عن الصورة للشقّ الأخير، وهو ما لو التزم الفعل أو الترك مدّة.

ولكن الصحيح أنّ التحريم المنهيّ عنه لا يختصّ بما لو التزم بالحظر مع نسبته للشرع، أي لا يخصّ النهي عن تحريم الطيّبات بالحرمة التشريعيّة، بل يعمّ الحرمة والحظر والمنع المقطوع والمنفيّ نسبتها إلى الشارع.

كما لا يختصّ بما لو كان هذا التبنّي للحرمة والمنع والحظر بما لو كان بتوسّط القسم أو العهد أو النذر ونحوها، بل يشمل ما لو كان ذلك بتبنّي الشخص فيما بينه وبين نفسه بأن يجعل الحرمة من نفسه لنفسه من دون أن ينسبها إلى الشارع، أو يجعل أصحاب عرف خاصّ أو مجتمع، ذلك لأنفسهم من أنفسهم من دون أن ينسبه إلى الباري تعالى، فإنّ الالتزام والتعهّد بالحظر والمنع أيضاً ينطبق عليه أنّه تحريم للطيّبات كما هو الحال في التقنينات وقوانين الأنظمة والدول الوضعيّة.

ومنه يظهر أنّ التحريم ليس محصوراً في الإنشاء النظري للحرمة، أو نسبتها

إلى الشارع ، بل يشمل التبنّي العمليّ التطبيقيّ لمفاد المنع والحذر ، وإن لم ينسب إلى الشارع.

والظاهر أنّ الابتداع الذي مرّ في آية الحديد (الرهبانيّة) هو الآخر لا يختصّ بما ينشئ بزعم نسبته إلى الشارع ممّا ليس في الشريعة ، بل يشمل كلّ تشريع يتناول العلاقة فيما بين الإنسان والباري تعالى ، وهذا تعريف أعمّ للبدعة والابتداع ، وبالتالي فإنّ في المقام ظاهرة مشتركة تشير إليها جملة من الآيات بعنوان التعدّي عن حدود ما قرّره الشارع من باب الإفراط أو نشوء السلوك الاجتماعيّ الفاسد الذي يوصف في الآيات بالأغلال والإصر وبالجاهليّة.

وكذلك في الجانب العباديّ بعنوان الابتداع ، فهذه موارد وبيئات متعدّدة يردع فيها القرآن عن السلوكيّات المنحرفة الفرديّة أو الروحيّة أو الاجتماعيّة أو العباديّة أو على صعيد التعامل والمواثيق.

أمّا الشاهد السادس والسابع ، فيظهر الحال فيهما بما تقدّم من الشواهد السابقة من أنّ أصل التعبّد بالانقطاع في الجملة لا ضير فيه ، وأنّ الممنوع هو التأبيد ، وأنّ الصوامع والبيع من حيث ذكر الله فيها ، هي جانب إيجابيّ وإن كانت الجوانب السلبيّة من جهة تحريف اتّباع الأنبياء السابقين هي سلبيّة لا يغفل عنها.

الإنفاق
بين العدل والإحسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ⑦ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ
حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ⑧ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا
شُكُوراً ⑨ إِنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ⑩ فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ
الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ⑪ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ⑫
مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً ⑬ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ
ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ⑭ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ
كَانَتْ قَوَارِيرَا ⑮ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ⑯ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً
كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ⑰ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ⑱ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنثُوراً ⑲ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً
وَمُلْكاً كَبِيراً ⑳ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن
فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ㉑ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم
مَشْكُوراً ㉒ ﴾[1]

وفي السورة أبحاث:

---

(١) الإنسان ٧٦: ٧ ـ ٢٢.

الأوّل: أسباب النزول

ذكر السيوطي في «الدرّ المنثور»، قال: أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ الآية، قال: نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب وفاطمة عليهما السلام[١].

وذكر الواحدي في «أسباب النزول»: عن عطاء، عن ابن عبّاس، أنّها نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام[٢].

وعن الثعلبي: أنّه أخرج ذلك في تفسيره من رواية القاسم بن بهرام ورواية الكلبي كذلك[٣].

ورواه ابن الجوزي أيضاً في «الموضوعات» بطريق آخر[٤].

وأخرجه الحسكاني في «شواهد التنزيل»[٥].

وقد أجاب سبط ابن الجوزي عن تمجمج جدّه في قبول الحديث[٦].

وعن ابن عساكر في تاريخ دمشق.

وعن الحمويني في «فرائد السمطين»[٧].

وعن أبي جعفر الكوفي الزيدي القاضي المعاصر لفرات الكوفي[٨].

---

(١) الدرّ المنثور: ٦: ٢٩٩.

(٢) أسباب نزول الآيات: ٢٩٦.

(٣) تفسير الثعلبي: ١٠: ٩٩.

(٤) الموضوعات: ١: ٣٩٠.

(٥) شواهد التنزيل: ٢: ٣٩٤، الحديث ١٠٤٢.

(٦) تذكرة الخواص: ٢٨٤.

(٧) فرائد السمطين: ٢: ٥٤، الحديث ٣٨٣.

(٨) عنه في تفسير فرات: ٥١٩، الحديث ٦٧٦.

وعن الحكيم الترمذي في الرابع والأربعين، وإن تمجمج وتلجلج شدقاه في قبول الحديث.

ورواه الزمخشري في كشّافه[(١)].

وعن الواحدي في كتاب البسيط.

وأمّا روايات أهل البيت عليهم السلام فهي مستفيضة، بل متواترة في نزولها في أصحاب الكساء، فقد روى الصدوق بإسناده: عن الصادق جعفر بن محمّد، عن أبيه عليهما السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، قال: «مرض الحسن والحسين وهما صبيّان صغيران، فعادهما رسول الله ومعه رجلان، فقال أحدهما: يا أبا الحسن، لو نذرت لابنيك نذراً لله إن عافاهما.

فقال: أصوم ثلاثة أيّام شكراً لله عزّ وجلّ، فكذلك قالت فاطمة، وقال الصبيّان: ونحن أيضاً نصوم ثلاثة أيّام، وكذلك قالت جاريتهم فضّة، فألبسهما الله العافية، فأصبحوا صائمين وليس عندهم طعام، فانطلق عليّ عليه السلام إلى جارٍ يقال له (شمعون) يعالج الصوف، فقال: هل لك أن تعطيني جزّة تغزلها [لك] ابنة محمّد بثلاثة أصوعٍ من شعير.

قال: نعم، فأعطاه، فجاء بالصوف والشعير فأخبر فاطمة عليها السلام فقبلت وأطاعت، ثمّ عمدت فغزلت ثلث الصوف فأخذت صاعاً من الشعير فطحنته وعجنته وخبزت خمسة أقراص، لكلّ منهم قرص، وصلّى عليّ عليه السلام مع النبيّ صلى الله عليه وآله ثمّ أتى منزله، فوضع الخوان وجلسوا خمستهم، فأوّل لقمة كسرها عليّ عليه السلام إذا مسكين واقف بالباب، فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمّد، أنا مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني ممّا تأكلون أطعمكم الله على موائد الجنّة، فوضع اللقمة من يده،

(١) تفسير الكشّاف: ٤: ١٩٧.

ثمّ قال: . . . » الحديث[١].

ثمّ ذكر عليه السلام أشعاراً لعليّ عليه السلام يستحثّ فاطمة عليها السلام بالصدقة، وفيها مجاوبتها عليها السلام على التصدّق، وأنّه تكرّر هذا المشهد مرّة ثانية في اليوم الثاني مع يتيم من يتامى المسلمين، وتكرّر هذا المشهد أيضاً في اليوم الثالث مع أسير من أسرى المشركين، فأعطوه أيضاً وباتوا جياعاً وأصبحوا مفطرين وليس عندهم شيء، وأقبل عليّ عليه السلام بالحسنين نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وهما يرتعشان كالفراخ من شدّة الجوع، فلمّا بصر بهما رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا أبا الحسن، شدّما يسوؤني ما أرى بكم، انطلق إلى ابنتي فاطمة، فانطلقوا إليها وهي في محرابها قد لصق بطنها بظهرها من شدّة الجوع، وغارت عيناها، فلمّا رآها رسول الله صلى الله عليه وآله ضمّها إليه، فقال: وا غوثاه، أنتم منذ ثلاث فيما أرى، فهبط جبرئيل عليه السلام فقال: يا محمّد، خذها هيّأ الله لك في أهل بيتك، قال: وما آخذ يا جبرئيل ؟

قال: ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ** ﴾ حتّى إذا بلغ ﴿ **إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا** ﴾.

ورويت هذه الرواية بصيغ أخرى.

الثاني: مقام عباد الله فوق الأبرار

ومن غفلات مفسّري العامّة أنّهم ظنّوا اندراج أصحاب الكساء في الأبرار في آيات هذه السورة، وهم منهم لعدم التفاتهم إلى ما ترشده روايات أهل البيت عليهم السلام من بيان في ظهور الآية، حيث أنّ سياق السورة يبيّن أنّ هناك أربعة أقسامٍ من البشر، الكافرين ومقامهم، والأبرار ومقامهم، وعباد الله ومقامهم،

---

(١) أمالي الصدوق: المجلس ٤٤، الحديث ١٣.

ورسول الله ومقامه.

والذين وصفوا بـ ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ هم عباد الله الذين في مقامهم يُشرفون على مقام الأبرار، ويُفجّرون لهم عين الكافور، فمقام الأبرار دونهم، وشراب الأبرار من كأس ممتزج بشيء من الكافور وليس بخالص من الكافور، فأهل البيت عليهم السلام بحسب الآيات يندرجون في عباد الله الذين يشرفون على الأبرار، وهذا ما يتطابق مع ما في سورة المطفّفين من أنّ مقام الأبرار يُشرف عليه المقرّبون، وأنّ المقرّبون يشهدون كتاب أعمال الأبرار الذي هو في علّيّين، فمقام المقرّبين وهو مقام عباد الله فوق العلّيّين، كما أنّ الأبرار يشربون من الرحيق المختوم ممتزجاً بشيء من عين التسنيم، وعين التسنيم عين يشرب منها المقرّبون، فذكر في سورة المطفّفين جملة من مقامات عباد الله، منها: أنّهم شهداء أعمال العباد فضلاً عمّن دونهم.

ومنها: أنّ عين التسنيم لهم.

ومنها: أنّهم المقرّبون، كما أنّ سورة الواقعة قد أفصحت عن أنّ المقرّبين هم السابقون، وسورة الواقعة أيضاً تبيّن إشراف السابقين والمقرّبين وعباد الله على مقام الأبرار، وهذا ما يتطابق مع ما في سور أخرى مع آية الكساء، وهم أهل آية التطهير، يشهدون أعمال العباد، وهم الشهداء على الناس والرسول صلى الله عليه وآله عليهم شهيد، وهذا تطابق متّسق متّحد في السور القرآنيّة العديدة عن مقام أصحاب الكساء عليهم السلام.

كما أنّ في السورة دلالة أيضاً على أنّ الفيض الإلهي يصل إلى الأبرار عبر وبواسطة عباد الله حيث بيّنت أنّ الكأس الذي يشرب منه الأبرار يمزج بشيء من الكافور، والمازج لهم بذلك هم عباد الله حيث أنّهم يقومون ويتولّون بتفجير

عين الكافور وسقي الأبرار بمزاج منها.

فقد روى الصدوق في «الأمالي»: بسنده عن سلمة بن خالد، عن الصادق عليه السلام، عن أبيه عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فهبط جبرئيل عليه السلام بهذه الآيات ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾[1]، قال: هي عين في دار النبيّ صلى الله عليه وآله تفجّر إلى دور الأنبياء والمؤمنين»[2].

ورواه بطريق آخر: عن ابن عبّاس[3]، ورواه الثعلبي في تفسيره، كما حكاه عنه ابن بطريق في «العمدة»[4].

ولا يخفى أنّ التفجير وإن كان في دار الدنيا هو تشقيق الأرض ليجري الماء وتنبع العين، إلّا أنّ الشأن في الدار الآخرة ليس كذلك، حيث أنّ الأمور هي بمشيئة أهل الجنان توجد، فتفجير عباد الله المقرّبين هذه العين للأبرار يفيد أنّهم الموجدون لتلك العين، لأنّ أحكام دار الآخرة أنّ الأشياء تحصل بالمشيئة، فهم يوجدون هذه العين ويسقون الأبرار منها ممزوجاً، ولا يخفى أنّ الشراب هو رمز لماء البقاء والحياة.

وقد أُشير إلى نظير هذا المعنى في سورة المطفّفين، وقد مرّت الإشارة إلى التطابق في مفاد السورتين، حيث بُيّن في سورة المطفّفين إشراف وعلوّ مقام المقرّبين على مقام الأبرار، وأنّ الأبرار يشربون ويسقون من رحيق مختوم يمزج لهم فيه من تسنيم، وأنّ التسنيم عين يشرب بها المقرّبون، فشرابها لهم خالصة

---

(١) الإنسان ٧٦: ٥ و ٦.

(٢) أمالي الصدوق: ٣٣٣، المجلس ٤٤.

(٣) المصدر المتقدّم.

(٤) العمدة: ٣٤٦، الحديث ٦٦٨. تفسير الثعلبي: ١٠: ٩٩.

صافية، فهم الذين يزوّدون الأبرار بذلك المزاج، وقد ورد في رواياتهم عليهم السلام إلى تضمّن سورة المطفّفين في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[1] الإشارة إلى مسألة الطينة من أنّ نفوس وأرواح الأبرار مخلوقة من فاضل طينة أبدان المقرّبين.

ووجه الإشارة في الآيات أنّ كتاب الأبرار هو عبارة عن نفوسهم وأرواحهم، كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[2]، وغيره من الآيات، وهو الطائر الذي في عنق الإنسان، أي في أعالي وجوده الذي يلقاه يوم القيامة منشوراً، فإذا كان كتاب الأبرار الذي هو في علّيّين، ومرقوم فيه كلّ أعمالهم، يشهده المقرّبون بحواسّهم، فيكون رتبة أرواح الأبرار وأنفسهم، يُشرف عليها، لأنّ الشاهد محيط بالمشهود، وقد جعل الشاهد هنا ذات المقرّب بمراتبها لا مجرّد مرتبة كتابه فقط، بينما الذين في علّيّين من الأبرار، كتابهم لا ذواتهم بتمام مراتبها، بل ذواتهم البدنية في النعيم، وأبهم في السورة مرتبة كتاب المقرّبين، لكن قد تضمّنت الإشارة إلى أنّ كتابهم فوق علّيّين.

وهذا ما أُشير إليه فيما رواه الكليني بسنده إلى أبي حمزة الثمالي، قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ الله عزّ وجلّ خلقنا من أعلى علّيّين وخلق قلوب شيعتنا منه، وخلق أبدانهم من دون ذلك، وقلوبهم تهوي إلينا لأنّها خُلقت ممّا خُلقنا منه، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾[3].

---

(١) المطفّفين ٨٣: ١٨ - ٢١.

(٢) الإسراء ١٧: ١٤.

(٣) المطفّفين ٨٣: ١٨ - ٢٠.

وخلق عدوّنا من سجّين ، وخلق قلوب شيعتهم ممّا خلقهم منه وأبدانهم من دون ذلك ، فقلوبهم تهوي إليهم لأنّها خلقت ممّا خلقوا منه ، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[(١)]»[(٢)].

وهذه الرواية تبيّن تسانخ أرواح المؤمنين مع أبدان المعصومين ، وتسانخ أرواح الفجّار مع أبدان أئمّة النار ، ومن ثمّ تعكس المحبّة القلبيّة نمط تسانخ في الطينة والماديّة الروحيّة مع المحبوب ، ونحو ارتباط وثيق ، ومن ثمّ ورد: «من أحبّ عمل قوم أُشرك في عملهم»[(٣)].

وعلى أيّ تقدير ، ليس الحديث هاهنا عن بحث الطينة وأصل الخلقة ، وإنّما لبيان وساطة المقرّبين في الفيض الإلهيّ ، ولا يتوهّم بيان الطينة ونشأة الخلقة والروحيّة أنّ مقتضاها الجبر ، بل أنّها من باب بيان المقتضيات ، إذ معنى الاختيار ليس التفويض وإنّما أمرٌ بين أمرين.

وفي رواية أبي الجارود ، عن أبي جعفر عليه السلام ، قال: «السجّين الأرض السابعة ، وعلّيون السماء السابعة»[(٤)].

ومفادها أنّ البدن الأخرويّ للمؤمنين من السماء السابعة وهي علّيون ، والبدن الأُخرويّ للفجّار هي الأرض السابعة ، وهي سجّين ، وإطلاق القلب أو الروح على البدن الأُخرويّ باعتبار أنّ تشفّف الجسد وتلطّفه تروّح ، والجسم اللطيف

---

(١) المطفّفين ٨٣: ٧ ـ ١٠.

(٢) الكافي: ٢: ٣، الحديث ٤.

(٣) بشارة المصطفى: ١٢٦، الحديث ٧٢. مستدرك الوسائل: ١٢: ١٠٨، الحديث ١٣٦٤٨.

(٤) تفسير القمّي: ٢: ٤٠٤.

باطن للجسم الغليظ والكثيف، فيكون بمثابة الروح له، فكلّ تلطّف تروّح، كما أنّ كلّ تكثّف وتغلّظ هو تجسّد.

وأمّا اشتمال البدن الأُخروي على آثار جميع أعمال الإنسان، فلأجل قابليّة ذلك الجسد على اختزان جميع الآثار، فيكون بمثابة الصفحة التي ينتقش ويرقم فيها جميع الأعمال.

الثالث: الميزان في الإنفاق

قد يتساءل عن وجه الحكمة في نزول سورة بأكملها في أصحاب الكساء عليهم السلام مع أنّه إيثار في واقعة ما، وربّما اعترض بعض مفسّري العامّة على الآيات أو على مفاد الروايات الواردة في أسباب النزول كالذي قاله القرطبي:

«قال الترمذي في «نوادر الأُصول»: فهذا حديث مزوغ مزيّف قد تطرّف فيه صاحبه حتّى تشبهه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث يعضّ شفتيه تلهّفاً أن لا يكون بهذه الصفة، ولا يعلم أنّ صاحب هذا الفعل مذموم، وقد قال الله تعالى في تنزيله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[1]، وهو الفضل الذي يفضل عن نفسك وعيالك.

وجرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله متواترة: «بأنّ خير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً»، و: «ابدأ بنفسك ثمّ بمن تعول»، وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كفى بالمرء إثماً أن يُضيّع من يقوت»، فكيف أجهد صبياناً صغاراً من أبناء خمس أو ستّ على جوع ثلاثة أيّام ولياليهنّ حتّى تضوّر من الجوع وغارت العيون منهم لخلوّ أجوافهم حتّى أبكى رسول

---

(١) البقرة ٢: ٢١٩.

الله ﷺ ما بهم من الجهد»[١].

ولتنقيح الحال في موارد الإيثار المحمود عن موارد البسط المذموم لا بدّ من التعرّض لجملة الآيات الواردة في هذا المضمار.

فإنّ هناك طائفتين من الآيات:

الأُولى: تدلّ على مطلق الايثار

كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[٣].

سورة الدهر وإمامة أهل البيت عليهم السلام ووساطتهم في الفيض الإلهي

ولا يخفى أنّه من دلالة السورة على فوقيّة عباد الله على الأبرار هيمنة مقامهم على شهادة أعمال الأبرار إنّ هذا المعنى هو من شؤون معنى الإمامة، بل من مهامّها، فإنّ الشاهد على الأعمال هو الهادي الذي يوصل المشهود عليه إلى منازل الزلفى والقرب الإلهيّ ويهديه إلى لقاء الله والمعاد.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩: ١٣٤.

(٢) الحشر ٥٩: ٩.

(٣) آل عمران ٣: ٩٢.

(٤) آل عمران ٣: ١٣٤.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(٢).

الثانية: ما يدلّ على التوسّط في الإنفاق

كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾(٦).

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِن خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ

---

(١) سبأ ٣٤: ٣٩.

(٢) البقرة ٢: ٢٧٢.

(٣) الإسراء ١٧: ٢٩ و ٣٠.

(٤) البقرة ٢: ١٩٥.

(٥) الفرقان ٢٥: ٦٧.

(٦) الطلاق ٦٥: ٧.

وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢).

لسان الأوّل من الروايات كمفاد الطائفة الأولى من الروايات

فقد روي عنهم عليهم السلام ، وقد ورد في الروايات الستّة في النفقة ، ففي بعضها عنهم عليهم السلام : «استنزلوا الرزق بالصدقة ، من أيقن بالخلف جاد بالعطيّة ، إنّ الله يُنزل المعونة على قدر المؤونة»(٣).

وورد عن عليّ عليه السلام في «نهج البلاغة»: «إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة»(٤).

وورد عنهم عليهم السلام : «لا يكمل إيمان العبد حتّى يكون فيه أربع خصال: يحسن خُلقه ، وتسخو نفسه ، ويمسك الفضل من قوله ، ويُخرج الفضل من ماله»(٥).

وعنه صلى الله عليه وآله في وصيّة لأمير المؤمنين عليه السلام : «فأمّا الصدقة فجهدك جهدك حتّى تقول قد أسرفت ، ولم تسرف»(٦).

وعن أبان بن تغلب ، عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث أنّه قال له: أخبرني عن حقّ المؤمن على المؤمن ، فقال له: دعه لا تردّه.

---

(١) البقرة ٢: ٢١٥.

(٢) البقرة ٢: ٢١٩.

(٣) وسائل الشيعة: ٩: ٣٧٠ ، الباب ١ من أبواب الصدقة ، الحديث ١١.

(٤) نهج البلاغة: الحكمة ٢٥٨. وسائل الشيعة: ٩: ٣٧٢ ، الباب ١ من أبواب الصدقة ، الحديث ٢٠.

(٥) وسائل الشيعة: ٩: ٣٧٢ ، الباب ١ من أبواب الصدقة ، الحديث ٢١.

(٦) وسائل الشيعة: ٩: ٣٧٩ ، الباب ٦ من أبواب الصدقة ، الحديث ١.

قلت: بلى جعلت فداك ، فلم أزل أردّد عليه.

قال: يا أبان ، تقاسمه شطر مالك.

ثمّ نظر إليّ فرأى ما دخلني ، فقال: يا أبان ، أما تعلم أنّ الله قد ذكر المؤثرين على أنفسهم ؟

قلت: بلى جعلت فداك.

فقال: أنت إذا قاسمته فلم تؤثره بعدُ ، إنّما أنت وهو سواء ، إنّما تؤثره إذا أنت أعطيته من النصف الآخر»[١].

وفي حديث جميل أنّه قال لأبي عبدالله عليه السلام: مَنْ غُرَرُ أصحابي ؟

قال عليه السلام: «هم البارّون بالإخوان في العسر واليسر.

ثمّ قال: يا جميل ، أما إنّ صاحب الكثير يهون عليه ذلك ، وقد مدح الله في ذلك صاحب القليل ، فقال في كتابه: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[٢]»[٣].

وعنه عليه السلام ، عن آبائه عليهم السلام في وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام ، قال: «يا عليّ ، ثلاث من حقائق الإيمان: الإنفاق من الإقتار ، وإنصاف الناس من نفسك ، وبذل العلم للمتعلّم»[٤].

لسان الثاني: وهو كمفاد الطائفة الثانية:

---

(١) وسائل الشيعة: ٩: ٤٢٧ ، الباب ٢٧ من أبواب الصدقة ، الحديث ٢.

(٢) الحشر ٥٩: ٩.

(٣) وسائل الشيعة: ٩: ٤٢٩ ، الباب ٢٨ من أبواب الصدقة ، الحديث ١.

(٤) وسائل الشيعة: ٩: ٤٣٠ ، الباب ٢٨ من أبواب الصدقة ، الحديث ٣.

ما روي عنهم عليهم السلام: «لا صدقة وذو رحم محتاج»(١).

وعنهم عليهم السلام: «فأعطِ الفضل ولا تعجز نفسك»(٢).

وعن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «سئل رسول الله صلى الله عليه وآله: أيّ الصدقة أفضل؟ قال: على ذي الرحم الكاشح»(٣).

وعنهم عليهم السلام: «لا يقبل الله الصدقة وذو رحم محتاج»(٤).

الطائفة الثالثة: وهي الجامعة بين اللسانين.

كموثّق سماعة، قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الرجل ليس عنده إلّا قوت يومه أيعطف مَن عنده قوت يومه على مَن ليس عنده شيء؟ ويعطف على مَن عنده قوت شهر على مَن دونه؟ والسّنة على نحو ذلك؟ أم ذلك كلّه الكفاف الذي لا يُلام عليه.

فقال: هو أمران: أفضلكم فيه أحرصكم على الرغبة والإثرة على نفسه، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

والأمر الآخر لا يُلام على الكفاف، واليد العليا خير من اليد السفلى، وإبدأ بمن تعول»(٥).

وفي رواية عليّ بن سويد السائي، عن أبي الحسن موسى عليه السلام حيث اشتكى

---

(١) وسائل الشيعة: ٩: ٣٨٠، الباب ٧ من أبواب الصدقة، الحديث ٢ و: ٣٨٤، الباب ٨، الحديث ٤.

(٢) وسائل الشيعة: ٩: ٣٧٧، الباب ٥ من أبواب الصدقة، الحديث ٤.

(٣) وسائل الشيعة: ٩: ٣٧٧، الباب ٢٠ من أبواب الصدقة، الحديث ١.

(٤) وسائل الشيعة: ٩: ٤١٣، الباب ٢١ من أبواب الصدقة، الحديث ٧.

(٥) وسائل الشيعة: ٩: ٤٣١، الباب ٢٨ من أبواب الصدقة، الحديث ٥.

الراوي له عليه السلام قـلّة ذات يـده، فـقال عليه السلام: تـصدّق بـما رزقك الله ولو آثـرت عـلى نفسك»[١].

وفي موثّق أبي بصير، عن أحدهما عليهما السلام، قال: «قلت: أيّ الصدقة أفضل؟ قال: جُهد المُقلّ، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ترى هاهنا فضلاً»[٢].

وموثّق مسعدة بن صدقة، عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث طويل من احتجاج الصوفيّة عليه بقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

فقال عليه السلام: إخبار الله عزّ وجلّ إيّانا في كتابه عن القوم الذين أُخبر عـنهم بـحسن فعالهم، فقد كان مباحاً جائزاً ولم يكونوا نهوا عنه وثوابهم منهم على الله عزّ وجـلّ، وذلك أنّ الله جلّ وتقدّس أمر بخلاف ما عملوا به، فصار أمره ناسخاً لفعلهم، وكـان نهي الله تبارك وتعالى رحمة منه للمؤمنين ونظراً، لكي لا يضرّوا بأنفسهم وعيالاتهم، منهم الضعفة الصغار، والولدان، والشيخ الفاني، والعجوز الكبيرة، الذين لا يصبرون على الجوع...» الحديث.

ثمّ بيّن عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال مبيّناً قوله تعالى: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾، وقـوله تـعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ يـقول: «إنّ النـاس قـد يسـألونك ولا يعذرونك، فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال، كنت قد حُسرت من المال»[٣].

وقوله عليه السلام في توقيعه للحميري: أنّه كتب إليه يسأله عن الرجل ينوي إخراج شيء من ماله وأن يدفعه إلى رجل من إخوانه، ثمّ يجد في أقربائه محتاجاً أيصرف

---

(١) وسائل الشيعة: ٩: ٤٣١، الباب ٢٨ من أبواب الصدقة، الحديث ٦.

(٢) وسائل الشيعة: ٩: ٤٣٢، الباب ٢٨ من أبواب الصدقة، الحديث ٧.

(٣) الكافي: ٥: ٦٥، الحديث ١.

ذلك عمّن نواه له إلى قرابته ؟

فأجابه عليه السلام : يصرفه إلى أدناهما وأقربهما من مذهبه ، فإن ذهب إلى قول العالم عليه السلام : لا يقبل الله الصدقة وذو رحم محتاج ، فليقسم في القرابة وبين الذي نوى حتّى يكون قد أخذ بالفضل كلّه »(١).

وغيرها من الروايات الجامعة المؤلّفة بين ألسن طوائف الآيات والروايات ويتحصّل منها عدّة وجوه من الجمع :

الأوّل : إنّ الإيثار في موارد لا تسبّب تصدّع قوام المعيشة بحيث يكون سبباً لإقعاد المرء عن معيشته ، بخلاف ما إذا لم تكن كذلك ، فالوسطيّة في الإنفاق للمحافظة على قوام المعيشة.

الثاني : إنّ الإيثار في الموارد التي يصبر فيها المنفق أو يصبر ذووه مع كون مورد النفقة هو من أشدّ منه حاجة ، بخلاف التوسّط فإنّه في الموارد الأخرى.

الثالث : إنّ الإيثار خلق خاصّ رفيع شديد كمعالي الإحسان ، فهو سياسة خاصّة بينما التوسّط في الإنفاق هو سياسة عامّة.

ومن ثمّ ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام : «سئل عليه السلام أيّهما أفضل العدل أم الجود ؟

فقال عليه السلام : العدل يضع الأمور مواضعها ، والجود يُخرجها من جهتها ، والعدل سائس عامّ ، والجود عارض خاصّ ، فالعدل أشرفهما وأفضلهما »(٢).

أي أنّ العمل مقياس عامّ يحمل عليه عامّة الناس ، وأمّا الإحسان مع أنّه من المعالي لا يجعل ضابطة لعموم الناس لا يجابه حينئذٍ الاخلال بالنظم العامّ ،

---

(١) الاحتجاج : ٢ : ٣١٥.

(٢) نهج البلاغة : الكلمات القصار ٤٣٧.

وهذا ما يشير إليه الإمام الصادق عليه السلام في موثّقة مسعدة.

الرابع: إنّ الإيثار في المورد الذي لا يمنع ولا يزاحم بحقوق اُخرى كما في مورد النبيّ صلى الله عليه وآله حيث أنه وليّ عام، فاللازم في شأنه صلى الله عليه وآله أن لا يبسطها لكي يعمّ في عطائه للجميع، وكذلك لو كان له ذو قرابة ونحو ذلك، فمن ثمّ لا بدّ من ضبط الموارد والموازنة بين الفضائل فيما بينها والواجبات فيما بينها.

قاعدة: العموم والخصوص في الفضائل

وممّا تقدّم يتبيّن أنّ الفضائل والمكارم والمعالي، قسم منها خاصّ، وقسم منها عامّ، فصرف كون المكرمة مكرمة، والفضيلة فضيلة، لا يعني عموميّتها للكلّ، ومن ثمّ ورد أنّ لأهل اليقين طرائق ومناهج يختصّون بها فوق أهل التقوى، وكذلك للمتّقين فوق المؤمنين، وللمؤمنين فوق المسلمين، ومن ذلك ما نسب له صلى الله عليه وآله: «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين»[(١)].

وكذلك ماورد أنّ للإيمان عشر درجات، وأنّ صاحب الدرجة الدانية لا يتحمّل ما يتحمّله صاحب الدرجة العالية، وأنّ أبا ذرّ لو علم ما في قلب سلمان لقتله[(٢)].

ومنه قول عليّ بن الحسين عليهما السلام:

إنّي لأكتم من علمي جواهره ... كيلا يرى الحقّ ذو جهلٍ فيفتتنا

وقد تقدّم في هذا أبو حسن ... إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا

فربّ جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممّن يعبد الوثنا[(٣)]

---

(١) بحار الأنوار: ٢٥: ٢٠٤.

(٢) الكافي: ٢: ٤٥، الحديث ٢ و ٣ و: ١: ٤٠١، الحديث ٢.

(٣) ينابيع المودّة: ٣: ١٣٥.

ومن ذلك يتبيّن أنّ هذا ليس مختصّاً بالفضائل والمكارم، بل يعمّ المعارف والعقائد أيضاً، فإنّ قسماً وافراً من المعتقدات الحقّة البرهانيّة والقرآنيّة لا يتحمّل إدراكها عموم الناس، بل لا يتحمّلون سماعها، فضلاً عن الإذعان بها، وكذلك الحال في بعض مندوبات الفضائل والمكارم، فإنّ سماعها من العامّة يوجب شيوع الفساد في أعمالهم بدل الصلاح والإصلاح.

ومن ذلك يتبيّن أنّ ما أورده القرطبي خلط بين الفضيلة الخاصّة والفضيلة العامّة، والغريب منه أنّه ناقض نفسه فيما ذكره في ذيل آية في سورة الحشر حيث ذكر ما روته العامّة من رواية في إيثار عائشة وابن عمر وعمر بن الخطّاب وأبي عبيدة الجرّاح، ومعاذ بن جبل، فقال: «فإن قيل: وردت أخبار صحيحة في النهي عن التصدّق بجميع ما يملكه المرء، قيل له: إنّما كره ذلك في حقّ مَن لا يوثق منه الصبر على الفقر وخاف أن يتعرّض للمسألة إذا فقد ما ينفقه، فأمّا الأنصار الذين أثنى الله عليهم بالإيثار على أنفسهم فلم يكونوا بهذه الصفة، بل كانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾[1]، وكان الإيثار فيهم أفضل من الإمساك، والإمساك لمن لا يصبر ويتعرّض للمسألة أوْلى من الإيثار».

وقال قبل ذلك أيضاً: «الإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنياويّة ورغبة في الحظوظ الدينيّة، وذلك ينشأ من قوّة اليقين وتوكيد المحبّة والصبر على المشقّة».

وقال أيضاً: «والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال، وإن عاد إلى النفس، وفي عبارات الصوفيّة الرشيقة في حدّ المحبّة أنّها الإيثار وأفضل الجود بالنفس

---

(١) البقرة ٢: ١٧٧.

الجود على حماية رسول الله ﷺ»[١]، انتهى.

ولا عجب في أنّ تعميه العصبيّة فينكره في أهل البيت ويقبله في غيرهم امتثالاً للأمر في قوله تعالى: ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[٢]، وإلّا فمن آثر النبيّ ليلة المبيت بنفسه وفي بدر وأُحد، وكان يدور حول رسول الله ﷺ، فقال جبرئيل يوم أُحد: يا محمّد، إنّ هذه لهي المواساة من عليّ، قال: لأنّه منّي وأنا منه.

فقال جبرئيل: وأنا منكما يا رسول الله[٣].

وكذلك في حنين وخيبر والأحزاب والخندق في بروزه لعمرو بن عبد ودّ وجبن جميع الصحابة، وورد في المبرزين منهم في خيبر أنّه رجع غير واحد يجبّن أصحابه ويجبّنونه، وفرارهم في أُحد معلوم حتّى عيّرهم بها الله عزّ وجلّ في كتابه.

فيتبيّن من ذلك من هو أشدّ حبّاً لله ولرسوله من عليّ، وثمّ قال الله تعالى فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾[٤]، وقال فيه رسول الله: «لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، كرّاراً غير فرّار، لا يرجع حتّى يفتح الله على يديه»[٥].

ولا يخفى أنّ قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

---

(١) تفسير القرطبي: ١٨: ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) الشورى ٤٣: ٢٣.

(٣) الاحتجاج: ٢: ١٦٥. نظم درر السمطين: ١٢٠.

(٤) البقرة ٢: ٢٠٧.

(٥) جوامع الجامع: ٣: ٣٨٨.

هي من الآيات النازلة في عليّ عليه السلام وأصحاب الكساء عليهم السلام، وقد بسطنا القول في ذلك ثمّة.

الجهة الثانية: الإيثار وإقامة العدل

ربّما يطرح تساؤل عن أسباب نزول سورة بأكملها في أصحاب الكساء نتيجة فعل واحد في حادثة ما، وهو الإيثار في مورد معيّن، فما هو وجه التأكيد والاهتمام القرآني بذلك وتعظيمه، وهل هو من الأهمّيّة بمكان بحيث يستحقّ مثل هذا التركيز.

والإجابة على ذلك: أنّ صفة الإيثار التي اهتمّت بها السورة هي صفة ضروريّ توفّرها في الحاكم كي يتسنّى له إقامة العدل في الأرض، وبدونها يمتنع إرساء قواعد العدل، فالإيثار لا بدّ من توفّره في الحاكم على صعيد تنظيم القانون والتقنين، فضلاً عن صعيد التطبيق والتنفيذ.

كما أنّ أسباب العدوان والظلم والعداوة في الأرض هو حبّ النفس الذي هو رأس كلّ خطيئة وهو معلَم طبيعة الحياة الدنيويّة، كما قال تعالى: ﴿ **اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾(١).

ولا يظنّ ظانّ أنّ الإيثار واقعة ما في مورد، بل له مواطن ومنازل ودرجات وأنواع، وربّ مؤثر في مورد حريص طامع في آخر، أو صاحب إيثار في درجة لكنّه يتقاصر عنه في درجة أُخرى، إذ لكلّ فضيلة من الفضائل أبواب ومنازل ومقامات وعقبات وآفاق تختلف وتتنوّع وتتلوّن بحسبها، كما أنّ لها درجات تشتدّ وتضعف بحسبها.

---

(١) البقرة ٢: ٣٦.

فالسورة الشريفة تبيّن أساس الصلاح والإصلاح والعدل في الأرض يكمن في صفة للحاكم كما أنّها ترشد إلى أنّ أساس الظلم والجور يرجع إلى حبّ النفس والذات. كيف لا والإيثار خلوص وخلاص من النفس وإخلاص لله، فدرجات الإخلاص مقرونة بدرجات الإيثار، ومَوَتان، وتماوت النفس. وفي قبالها الظلم والجور يرجع إلى حبّ النفس، وإذا اشتدّ صار تكبّراً وفرعونيّة وادّعاء للربوبيّة، ولم يرشّح القرآن لقصّة مقام الإيثار من المصطفين والمنتجبين والمطهّرين من الأنبياء والمرسلين والحجج سوى أهل البيت في قوله تعالى: ﴿ **مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِن أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ** ﴾[١].

فعلّلت الآية حصر ولاية ثروات الأرض (الفيء) بالله وبرسوله وبذي القربى أنّه لأجل استتباب العدل ولئلّا تكون الأموال حكراً على الأغنياء، وفي الآية ملحمة يشير إليها القرآن، كما تقدّمت الإشارة إليها في سورة الحشر من أنّ إرساء العدل في الأرض لم ولن ولا يتم إلّا بأهل البيت عليهم السلام، وهذا ما نشهده في تاريخ البشريّة والعصر الراهن حيث لم يتمّ الوصول إلى العدل على صعيد النظريّة والتنظير، فما بالك على صعيد التنفيذ، فإنّ كلّاً من الشيوعيّة في قبال الرأسماليّة، ثمّ من بعدها الاشتراكيّة، وكذلك الليبراليّة أو نظام السوق أو التجارة الحرّة، أو غيرها من الأطروحات البشريّة لم تستطع إلى حدّ الآن أن تتوصّل إلى تنظير الاقتصاد العادل والقوانين الماليّة العادلة والسياسة النقديّة ولا النظام المصرفي ولا التجاري والصناعي ولا الزراعي ولا في بقيّة البيئات والمجالات والأصعدة بحيث تقتلع الاقطاع والاستئثار والأثرة من على وجه الأرض.

---

(١) الحشر ٥٩: ٧.

فالبشريّة عاجزة في مقام العلم والمعرفة بالقوانين المتكفّلة للعدالة فضلاً عن مقام العمل والأداء، فهو ممّا يتوقّف على إمداد لدنيّ إلـهيّ في الجانب العلميّ والجانب العمليّ.

ومن ثمّ ورد في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام في خلافته، وكذلك ستكون سيرة الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف أنّه على الجَشَب والتقشّف وخشونة العيش ولباسه الغليظ وطعامه الشعير.

مقام أصحاب الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَاوَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ * وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ وَنَادَوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيماهُم قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (١)

١ ـ مَن هم أصحاب الأعراف؟

قد احتدم البحث بين المفسّرين في معرفة الرجال الذين هم على الأعراف، وما المقصود بالأعراف؟

---

(١) الأعراف ٧: ٤٤ ـ ٥٠.

ولطائف دلائل الآيات كما تنبّه عليه روايات أهل البيت عليهم السلام تشير بشكل متّسق على أنّهم أرفع مقاماً من أصحاب الجنّة ، وأنّهم مشرفون مهيمنون على كلّ من الفريقين (أي على أصحاب الجنّة وأصحاب النار) ، وأنّهم يداينون كلاً من الفريقين بالحساب ، وأنّ أصحاب الأعراف ولاة الحساب وديّانون يوم الدين ، وبهم يقام الجزاء لكلّ فريق يوم الجزاء.

وبيان ذلك: أنّ الآيات الشريفة المتقدّمة بمناداة أصحاب الجنّة لأصحاب النار ، ثمّ تبيّن الآيات أنّ هناك حجاب بين الفريقين بقرينة:

أوّلاً: وصف الرجال الذين هم على الأعراف أنّهم يعرفون كلاً من الفريقين بسيماهم ، وهذا مقام رفيع ، وهو علم التّوسّم ، وأصحاب الأعراف هم المتوسّمون الذين أشير إليهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1] ، ومعرفة كلاً من الفريقين بسيمائهم يدلّ على أنّ الرجال الذين هم أصحاب الأعراف هم الشهداء على أعمال الناس ، أي أنّ لهم مقام الشهادة الذي أشير إليه في الآيات العديدة المتعرّضة للشهادة على الأعمال ، وسيأتي بيان هويّتهم بحسب الآيات الأخرى المشيرة إلى أنّهم أهل البيت عليهم السلام.

وثانياً: إنّ في بيان أنّ المعرفة للفريقين بسيمائهم دلالة على أنّ الفريقين لمّا يدخلوا الجنّة والنار ، وإلّا لكانت المعرفة بمثواهم لا بسيمائهم ، أي أنّ هذا المشهد التي تتعرّض له الآيات هو قبل دخول الفريقين إلى الجنّة والنار ، أي مع كونهم في عرصات المحشر ، ولا ينافي ذلك قول أصحاب الجنّة لأصحاب النار في بدايات الآيات: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ ، وذلك لأنّ وجدان الوعد الإلهي حقّاً يتمّ بقيام القيامة والحشر ومشاهدة

(١) الحجر ١٥: ٧٥.

فزع وأهوال ذلك اليوم ، كما أنّ الجنّة والنار تشاهدان قبل الدخول إليهما.

وثالثاً: تبيّن الآية (٤٦) أنّ أصحاب الأعراف ينادون أصحاب الجنّة ويسلّمون عليهم ، وهذا ممّا يدلّل على أنّ لأصحاب الأعراف مقام إشراف ، لأنّهم يبشّرون أصحاب الجنّة بدار السلام ، وهي الجنّة.

ورابعاً: قوله تعالى: ﴿ **لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ** ﴾ قد وقع أكثر المفسّرين في غفلة في إرجاع الضمير ، حيث أرجعوا الضمير إلى رجال أصحاب الأعراف ، والحال أنّ الضمير يرجع إلى الأقرب ، وهم أصحاب الجنّة ، أي أنّ أصحاب الجنّة لم يدخلوا الجنّة بعد وهم لا زالوا في أرض المحشر وهم يطمعون في دخولها.

وكذا قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾.

وربّما يُعترض بأنّ هذه الآية (٤٧) دالّة على أنّ أصحاب الجنّة عرفوا أصحاب النار بأنّهم قوم ظالمون ، وأنّهم من أصحاب النار ، بينما الآيات السابقة تبيّن ميزة وخصيصة خاصّة بأصحاب الأعراف أنّهم هم الذين يعرفون الفريقين بسيماهم.

والإجابة عن ذلك:

أنّ تخصيص أصحاب الأعراف بتحيّة أصحاب الجنّة بالسلام عليهم دون أصحاب النار ، مع كون أصحاب الأعراف على مكانة عالية في ذلك المشهد؛ بشارة وإفصاح بوصف أصحاب الجنّة ، وتمييزهم عن أصحاب النار.

خامساً: الآية (٤٨) من قوله تعالى: ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ** ﴾ تبيّن أنّ الرجال الذين هم على الأعراف قد عُبّر عنهم في هذه الآية بأصحاب الأعراف ، وأنّهم ينادون مرّة أُخرى رجالاً من أصحاب النار ، فالمناداة من أصحاب الأعراف لكلا الفريقين إشراف على كلّ أصحاب المحشر ، والمناداة لجميعهم تفيد

أنّ لأصحاب الأعراف مقام المحاسبة والمداينة لكلّ من فريق أصحاب الجنّة فيبشّروهم بدار السلام، وهو إثابتهم لأصحاب الجنّة جزاء أعمالهم، كما أنّ أصحاب الأعراف يتوعّدون روّاد أصحاب النار ويقرعون بالعتاب، وأنّ أصحاب الأعراف يعرفون أولئك الرجال بسيماهم، كما مرّ نعت أصحاب الأعراف بذلك في الآية (٤٦).

سادساً: فيقول أصحاب الأعراف لأولئك الرجال من أصحاب النار ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾، وهذه المقالة من أصحاب الأعراف لروّاد أصحاب النار هي محاسبة ومداينة منهم لأصحاب النار.

ويظهر أنّ أصحاب الأعراف يخاطبون بهذا المقال أئمّة الضلالة أو الكفر.

سابعاً: تبيّن هذه الآية أنّ أصحاب الأعراف هم الشهداء على أعمال الخلق لمعرفتهم بأعمالهم.

ثامناً: تتابع أصحاب الأعراف قولهم للرجال الذين هم أئمّة الضلال أو الكفر مخاطبين إيّاهم: ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ ﴾ والمشار إليهم في هؤلاء هم أصحاب الجنّة، والمشير هم أصحاب الأعراف، والمخاطب هم أئمّة الضلال أو الكفر، أي فيقول أصحاب الأعراف مخاطبين أصحاب النار: ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ ﴾ أي أصحاب الجنّة ﴿ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ ﴾ أنتم أئمّة الضلالة والكفر ﴿ لَا يَنَالُهُمُ ﴾ لا ينال الله أصحاب الجنّة الذين كانوا مستضعفين في الدنيا، ﴿ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾.

تاسعاً: تتابع الآية إيذان أصحاب الأعراف وإعطاءهم الإذن لأصحاب الجنّة بدخول الجنّة، قولهم لهم ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾، وهذا ممّا يبيّن أنّ أصحاب الأعراف هم ولاة إقامة الحساب الموكّلين على ذلك من قِبل الله تعالى، كما أنّهم ولاة الجنّة يأذنون لأصحاب الجنّة بدخولها، كما أنّهم

يعاتبون ويقرّعون أئمّة الضلال والكفر، وهذا يدلّل على تمكينهم مقام المحاسبة والمجازاة، ويوكل إليهم منه تعالى مقام ديّان يوم الدين بإذن منه تعالى وإقدار لهم على ذلك.

عاشراً: كما أنّ التعبير المتقدّم في الآية ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ بورود لفظ ﴿ وَعَلَى ﴾ التي هي للعلوّ والإشراف، يفيد إعطاءهم المعرفة بأعمال الخلائق ولمقام الشهادة على الخلق وعلى أعمالهم، وأنّهم المعنيّون بقوله تعالى: ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾[1]، ثمّ تتابع الآيات (٥٠) نداء أصحاب النار أصحاب الجنّة بعد دخولهم الجنّة، فيطلبون منهم أن يفيضوا عليهم من الماء وممّا رزقهم الله من النعيم في الجنّة فيجيبهم أصحاب الجنّة ﴿ إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾.

٢ ـ أصحاب الأعراف: أصحاب المعرفة، وهم أهل البيت عليهم السلام

فقد ورد في الروايات عنهم عليهم السلام كما في «تفسير القمّي» و«الكافي» و«معاني الأخبار» أنّ المؤذّن بين الفريقين هو عليّ عليه السلام، بل روي ذلك في مصادر العامّة[2]، كما ورد في مستفيض الروايات أنّهم الرجال الذين على الأعراف يعرفون كلّا بسيماهم، وأنّهم الأعراف الذين يعرفون أنصارهم بسيماهم، وأنّهم الأعراف الذين لا يُعرف الله عزّ وجلّ إلّا بسبيل معرفتهم.

فقد روي في «الكافي» عن مقرن، قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: جاء

---

(١) البقرة ٢: ١٤٣.

(٢) تفسير القمّي: ١: ٢٣١. الكافي: ١: ٤٢٦، الحديث ٧٠. معاني الأخبار: ٥٩، الحديث ٩. شواهد التنزيل: ١: ٢٦٧، الحديث ٢٦١ ـ ٢٦٣.

ابن الكوّاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾، فقال: نحن على الأعراف، ونحن نعرف أنصارنا بسيماهم، ونحن الأعراف الذين لا يُعرف الله عزّ وجلّ إلّا بسبيل معرفتنا، ونحن الأعراف يوقفنا الله عزّ وجلّ يوم القيامة يوم الصراط، فلا يدخل الجنّة إلّا من عرفنا وعرفناه، ولا يدخل النار إلّا من أنكرنا وأنكرناه.

إنّ الله تبارك وتعالى لو شاء لعرّف الناس نفسه حتّى يعرفوا حدّه، ويأتوه من بابه، ولكنّه جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله وبابه الذي يؤتى منه، فمن عدل عن ولايتنا أو فضّل علينا غيرنا، فهم على الصراط لناكبون، فلا سواء من اعتصم الناس به ولا سواء حيث ذهب الناس إلى عيون كدِرة يفرغ بعضها في بعض، وذهب من ذهب إلينا إلى عيون صافية تجري بأمر ربّها، لا نفاد لها ولا انقطاع»[(١)].

وفي هذا الحديث أشار عليه السلام إلى ثلاثة معاني للأعراف:

١ ـ ما في ظاهر الآية الكريمة من معرفتهم عليهم السلام لأنصارهم.

٢ ـ كونهم من معالم الطريق إلى معرفة الله عزّ وجلّ.

٣ ـ كونهم من معالم الطريق والصراط إلى الآخرة.

وهذا المعنى الثالث يستشفّ من آيات الأعراف، وبمضمون هذا الحديث جملة أحاديث أُخرى، ذكرها في «تفسير البرهان» في ذيل الآية، فلاحظ.

ويشير إلى المعنى الثاني ما في نفس السورة من الآية (٤٠) من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾، وقد مرّ تفصيل

---

(١) الكافي: ١: ١٤١.

مفاد الآية ، وأنّ المراد بهذه الآيات التي هي أبواب سماء الحضرة الإلٰهيّة هم حجج الله ، فهم أبواب معرفته تعالى ، وهم حجج الله على البلايا ، وهم الذين لا يدخل أحد الجنّة إلّا بتصديقهم ومعرفتهم وطاعتهم والتولّي لهم ، فتطابق الآية آيات ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلّاً بِسِيمَاهُمْ ﴾ في المعنى الثاني والثالث ، وقد روى الشيباني في تفسيره عن أبي جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام : « الرجال هاهنا الأئمّة عليهم السلام يكونون على الأعراف حول النبيّ صلى الله عليه وآله يعرفون المؤمنين بسيماهم فيدخلون الجنّة كلّ مَن عرفهم وعرفوه ، ويدخلوه النار كلّ من أنكرهم وأنكروه »[١].

وفي هذه الرواية إشارة إلى أنّ رئيس مجموعة أصحاب الأعراف ، والذي يشرف عليهم ، هو سيّد الأنبياء ، وسيأتي في آيات الشهادة على الأعمال تطابقها مع آيات أصحاب الأعراف ، وأنّ الشاهد على الشهداء على أعمال الخلائق هو رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال في « لسان العرب » : « عريف القوم : سيّدهم ، والعريف : القيّم والسيّد لمعرفته بسياسة القوم ، والعريف : النقيب ، والجمع عرفاء . وعن ابن عبّاس : أهل القرآن عرفاء أهل الجنّة »[٢].

وقال في « مفردات الراغب » : « والعريف بمن يعرف الناس ويعرّفهم ، قال الشاعر : (بعثوا إليّ عريفَهم يتوسّم) »[٣].

وفي « اللسان » أيضاً : « وعرف الرمل والجبل وكلّ عال ، ظهره وأعاليه ،

(١) عن نهج البيان للشيباني ، في غاية المرام : ٤ : ٤٦ ، الحديث ٨.

(٢) لسان العرب : ٩ : ٢٣٨.

(٣) مفردات غريب القرآن : ٣٣٢.

والجمع أعراف، وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾، الأعراف في اللغة جمع عرف، وهو كلّ عالٍ مرتفع. قال الزجّاج: الأعراف أعالي السور،... قال: ويجوز أن يكون معناه ـ والله أعلم ـ: على الأعراف على معرفة أهل الجنّة وأهل النار هؤلاء الرجال... وقيل: أصحاب الأعراف أنبياء، وقيل: ملائكة، ومعرفتهم كُلّاً بسيماهم أنّهم يعرفون أصحاب الجنّة بأنّ سيماهم إسفار الوجوه والضحك والاستبشار كما قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ ويعرفون أصحاب النار بسيماهم، وسيماهم سواد الوجوه وغبرتها... والعرف: الرمل المرتفع»[١].

فيلاحظ من كلمات اللغويّون أنّ مادّة الأعراف معنى متّصل بالمعرفة وبالمقام العالي، وهذا هو الذي ترشد إليه الآية من قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلّاً بِسِيمَاهُمْ ﴾.

وقد مرّ أنّ أصحاب الأعراف بحسب الآيات المتقدّمة يعرفون أعمال أصحاب الجنّة كما يعرفون أعمال أصحاب النار.

٣ ـ من مقوّمات الإمامة: الشهادة على الأعمال ومقام الأعراف

وقد عبّر عن مقام معرفة أعمال العباد في طوائف الآيات القرآنيّة الأُخرى بمقام الشهادة على أعمال العباد، وأفصح عنهم أنّ رئيسهم النبيّ ﷺ ومن بعده أهل بيته، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِن أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هٰؤُلَاءِ ﴾[٢].

---

(١) لسان العرب: ٩: ٢٤١ و ٢٤٢.

(٢) النحل ١٦: ٨٩.

وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾[1]، فهاتان الآيتان وغيرهما تفصح عن أنّ الشهيد والرئيس على شهداء الأعمال هو سيّد الأنبياء ﷺ، وكذا قوله تعالى: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَـٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[2].

وفي هذه الآية تصريح بأنّ الشهداء على جميع الناس هم من هذه الأمّة الإسلاميّة من نسل إبراهيم وإسماعيل، أي هم الذين أشير إليهم في سورة البقرة في قوله تعالى ـعلى لسان إبراهيم وإسماعيلـ: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[3].

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾[4].

فهذه الأمّة المسلمة التي هي بعض ذرّيّة إبراهيم وإسماعيل هي التي سمّاهم إبراهيم عليه السلام بالمسلمين، وهم مجتبون (أي مصطفون)، وهم الشهداء على الناس والرسول عليهم شهيداً (أي هم الذين دعا في شأنهم إبراهيم عندما قال له تعالى:

---

(١) النساء ٤: ٤١.

(٢) الحجّ ٢٢: ٧٨.

(٣) البقرة ٢: ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٤) البقرة ٢: ١٤٣.

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[(١)]، وهم الذين دعا في شأنهم النبيّ إبراهيم أن يبعث سيّد الأنبياء فيهم ويعلّمهم الكتاب كلّه والحكمة ويزكّيهم، **فهم** من ذرّيّة إبراهيم وإسماعيل وعلى صلة بخاتم الأنبياء، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[(٢)]، **فهم أمّة** من ذرّيّة إبراهيم وإسماعيل لا كلّ ذرّيّة إسماعيل وكلّ قريش، **فهم** المعنيّون بقوله تعالى في سياق تلك الآيات، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾، أي التي في قول إبراهيم وإسماعيل ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾.

وممّا يؤكّد أنّ المراد من (المجتبون) من ذرّيّة إسماعيل الذين دعا إبراهيم أن تكون الإمامة فيهم أيضاً، وهم من قربى سيّد الأنبياء، والذين أنذرهم بالإنذار الخاصّ دون الإنذار العامّ عامّة البشريّة.

وممّا يفصح عن كون الأمّة الوسط الذين هم الشهداء على الناس وعلى أعمالهم هم أهل البيت عليهم السلام ما تفيده آية التطهير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[(٣)]، وسورة الواقعة من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[(٤)]، حيث أنّ مسّهم واطّلاعهم على الكتاب المكنون في اللوح المحفوظ وهو الكتاب المبين الذي يستطر فيه كلّ شيء، فما من غائبة في السماء ولا أكبر ولا أصغر إلّا فيه، ومن

---

(١) البقرة ٢: ١٢٤.

(٢) الشعراء ٢٦: ٢١٤.

(٣) الأحزاب ٣٣: ٣٣.

(٤) الواقعة ٥٦: ٧٧ ـ ٧٩.

ثمّ وبتوسّط علمهم بالكتاب المبين يعلمون صحائف أعمال العباد، ويكونون هم المعنيّون في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1]، فسورة الحجّ بيّنت أنّ الشهداء على الناس هم من نسل إبراهيم وإسماعيل من ذرّيتهما وقد سمّاهم إبراهيم بالأمّة المسلمة، أي دعا لهم بذلك وهم المجتبون من قِبل الله تعالى.

وفي سورة البقرة بيّنت أنّ هذه الذرّيّة والأمّة المسلمة قد دعا النبيّ إبراهيم أن يبعث فيهم خاتم النبيّين ليعلّمهم الكتاب كلّه، وهم بعض ذرّيّة إسماعيل لا كلّهم، وأنّ هم الذين دعا النبيّ إبراهيم في حقّهم أن تكون فيهم الإمامة باقية إلى يوم القيامة.

وقد وصف الإمام في سورة ياسين: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[2]، والمهيمن عليهم هو خاتم النبيّين.

وممّا يجدر الالتفات إليه أنّ أصحاب الأعراف وهم أهل البيت وزعيمهم سيّد الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين) قد نعتتهم سورة الأعراف أنّهم يعرفون أصحاب الجنّة من الأوّلين والآخرين وأصحاب النار من الأوّلين والآخرين، بل مقتضى شهادتهم على الناس أجمعين أنّهم شاهدون وحاضرون عند أعمال الخلائق من أوّل الدنيا إلى آخرها، لا بحضور أبدانهم الشريفة المخلوقة من الولادة، بل بمراتب وجودهم العِلويّة، كما ورد عنه ﷺ: «كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين»[3].

---

(١) التوبة ٩: ١٠٥.

(٢) يس ٣٦: ١٢.

(٣) شرح الأسماء الحسنى للسبزواري: ٢٠٣. مفتاح الغيب لأبي المعالي القونوي: ١١٠.

ويشير إلى ذلك قوله تعالى في سورة النحل المتقدّمة الآية (٨٩)، حيث يكون الرسول ﷺ شاهداً على كلّ شاهد من كلّ أمّة من الأمم، أي جميع الأمم من الأوّلين والآخرين.

وكذا ما في سورة النساء (٤١)، ومقتضى كونه ﷺ شاهداً على الشهداء أنّه تحمّل تلك الشهادة في مشهد الأعمال، كما أنّ إطلاق الناس في قوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، والآية (٧٨) من سورة الحجّ ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، كما أنّ ذلك مقتضى مسّهم الكتاب كلّه الذي يستطر فيه كلّ شيء، فتحصّل من مجموع هذه الآيات أنّ الإمام هو الذي يحصي الله تعالى فيه العلم والمعرفة بأعمال جميع العباد، ومن ثمّ يكون صاحب الأعراف يعرف كلّ فريق بسيماهم وهو مقام الشهادة على أعمال العباد.

٤ ـ النبيّ ﷺ إمام الأئمّة

ويدلّ على ذلك الآيات المتقدّمة الدالّة على أنّ النبيّ ﷺ شاهد على الأشهاد وعلى جميع الشهداء على أعمال العباد، ومقام الشهادة قد مرّ أنّه مقام الإمامة.

ويظهر من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[١].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾[٢]، إنّ مقام إمامة النبيّ ﷺ مقدّم على رسالته ونبوّته، كما أنّ مقام إمامته مقدّم على مقام إمامة أهل بيته، فضلاً عن جميع الأنبياء والرسل، ومن ثمّ كان ﷺ شاهداً على أهل بيته، وأهل بيته شهداء على الناس. كما أنّه ﷺ شاهداً على جميع

---

(١) الأحزاب ٣٣: ٤٥. الفتح ٤٧: ٨.

(٢) المزمّل ٧٣: ١٥.

الشهداء على جميع الأمم.

٥ ـ أهل البيت الحكّام وولاة الحساب يوم الدين بإذن الله

أوّلاً: يدلّ على ذلك إشهادهم أعمال العباد، كما في آيات الشهادة المتقدّمة، إذ لا يفصل الحساب إلّا بإقامة الشهادة، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾(١)، فسمّي يوم الحساب يوم الأشهاد تنبيهاً على أهمّيّة إقامة الشهادة في الحساب.

وكذا قوله تعالى: ﴿**أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾(٢).

ثانياً: وكذلك ما ورد من الآيات أنّه لا تحاسب أي أمّة يوم القيامة إلّا بمجيء الحجّة التي اصطفاها الله عليهم من بينهم، إماماً كان أو رسولاً، كقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾(٣)، أي كلّ أمّة تدعى إلى حسابها بإمامها الذي جعله الله حجّة.

وقوله تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾(٤)، ولعلّ المراد بالرسول هنا ليس خصوص النبيّ والرسول، وإنّما مطلق من انتدب إلى مأموريّة إلـٰهيّة من قِبل الله تعالى.

ثالثاً: ما في آيات الأعراف من معرفة أصحاب الأعراف، وقد تقدّم في الدلالة

---

(١) غافر ٤٠: ٥١.

(٢) هود ١١: ١٨.

(٣) الإسراء ١٧: ٧١.

(٤) يونس ١٠: ٤٧.

القرآنيّة بأنّهم أهل البيت عليهم السلام لكلّ وجميع أصحاب الجنّة وأصحاب النار، ثمّ أعطائهم البشارة لأصحاب الجنّة ﴿أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

ثمّ عتابهم وتقريعهم روّاد أصحاب النار: ﴿مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، وهو نمط من الحساب والمداينة، ثمّ إذنهم لأصحاب الجنّة بدخول الجنّة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

كما أنّ نعتهم بأنّهم (على الأعراف) أي مقام هيمنة وإشراف، وأنّ نعتهم (يعرفون كلاًّ بسيماهم)، أي يعرفون صحائف أعمال البشر وما آلت إليه مصائرهم نتاجاً لأعمالهم، وقد خصّصت آيات الأعراف هذه المعرفة في ذلك بهم دون غيرهم، وقد تقدّم أنّ الأعراف بحسب اللغة هي علوّ المكان والمقام.

كما أنّ مناداة أصحاب الأعراف لكلا الفريقين إشراف على جميع أصحاب المحشر للدلالة على أنّ لهم مقام المحاسبة والمداينة لكلّ من فريق أصحاب الجنّة، فيبشّروهم، ولأصحاب النار فيقرّعوهم.

كما أنّ التعبير في قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾، أي بين الفريقين: فريق الجنّة والنار، أي ينادي هذا المنادي بين الفريقين: ﴿أَن لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾.

فحيث وصف أنّ هذا المؤذّن هو بين الفريقين، أي هو من الفريق الثالث، وهم أصحاب الأعراف، كما صرّحت الآيات اللّاحقة بعتاب أصحاب الأعراف لروّاد أصحاب النار بنفس النبرة واللحن، وكلّ هذه التصرّفات والشؤون المذكورة لأصحاب الأعراف هي من موقع المحاسب ووليّ المداينة، فهم مظهر ديّان يوم الدين، ضابطة أسماء الأفعال الإلهيّة ونعوتها إلى ولاته وأوليائه، وهذا على وتيرة نعت الله تعالى للمحيي والمميت، وأنّ ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي

لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾[١]، ومع ذلك قد أسندت الإمامة إلى ملك الموت، فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ ﴾[٢].

وكذلك أسندت الإمامة إلى الملائكة أعوان ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾[٣]، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾[٤]، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾[٥].

وغيرها من الآيات (النحل ١٦: ٢٨، ٣٢).

فأسند الموت تارة إلى الله تعالى، فهو إسناد بالذات، وأسند إلى ملك الموت، أي بإقدار من الله تعالى، وكما أسند إلى أعوان الملَك عزرائيل، أي بإقدار من الله وإشراف من ملك الموت، كذلك الحال في الإحياء، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾[٦].

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[٧].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[٨].

---

(١) الزمر ٣٩: ٤٢.

(٢) السجدة ٣٢: ١١.

(٣) محمّد ﷺ ٤٧: ٢٧.

(٤) النساء ٤: ٩٧.

(٥) الأنعام ٦: ٦١.

(٦) الحجّ ٢٢: ٦٦.

(٧) غافر ٤٠: ٦٨.

(٨) الحجر ١٥: ٢٩. ص ٣٨: ٧٢.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ﴾[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾[(٢)]، والنافخ في الصور هو إسرافيل بإذن الله وأمر منه تعالى.

وقوله تعالى في شأن عيسى: ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونَ طَيْراً بِإِذْنِي ﴾[(٣)].

ونظيرها في المفاد: ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾[(٤)].

فأُسند نفخ الروح في الموجود الحيّ تارة إليه تعالى، وأُخرى إلى إسرافيل، وتارة إلى النبيّ عيسى في بعض الموارد، والإسناد إليه تعالى بالأصالة، وأمّا الإسناد إلى إسرافيل وإلى النبيّ عيسى عليه السلام فهو بالتّبع، وإقدار وإذن من الله تعالى، وكذلك عنوان الخلق كقوله تعالى: ﴿ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾[(٥)].

---

(١) النمل ٢٧: ٨٧.

(٢) الحاقّة ٦٩: ١٣.

(٣) المائدة ٥: ١١٠.

(٤) آل عمران ٣: ٤٩.

(٥) الحشر ٥٩: ٢٤.

وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾(٢)، وفي هذه الآيات فعل الخلق إليه تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾(٣)، فأسند الخلق للأنعام في الآية إلى الأيدي الإلـٰهيّة التي هي الأعوان الموكلة بذلك.

وقوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾(٤)، وأسند الخلق في الآية إلى الاسم الإلـٰهي الذي هو مملوك للذات الإلـٰهيّة.

وكذلك فعل الوحي، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾(٦).

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾(٧).

---

(١) النور ٢٤: ٤٥.

(٢) الفرقان ٢٥: ٢.

(٣) يس ٣٦: ٧١.

(٤) الأعلى ٨٧: ١ ـ ٣.

(٥) النساء ٤: ١٦٣.

(٦) النحل ١٦: ٤٣.

(٧) الإسراء ١٧: ٣٩.

وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾[١]، فأسند تعالى الوحي إلى الضمير المفرد الغائب، العائد إلى الذات الإلٰهيّة، وأخرى إلى اسم الربّ، وثالثة إلى الضمير المتكلّم الجماعة.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢]، فأسند الوحي هنا إلى اسم الجلالة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٣]، فأسند الوحي هنا إلى الرسول الملك الذي يوحي إلى البشر من نبيّ أو صفيّ كمريم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[٤]، فأسند القرآن كلّه إلى قول جبرئيل في التنزيل الثاني النجومي للقرآن.

ففعل الوحي مع أنّه من أعاظم الأفعال الإلٰهيّة يُسند إلى الذات الإلٰهيّة بالأصالة، وإلى الوسائط الإلٰهيّة من روح القدس أو ملك بالتّبع ثانياً.

ومثله قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[٥].

وبالجملة: فأنماط وأقسام الوحي عديدة جدّاً أشارت إليها روايات أهل بيت العصمة بحسب البيانات القرآنيّة في السور المختلفة.

---

(١) النجم ٥٣: ٩ و ١٠.

(٢) الشورى ٤٢: ٣.

(٣) الشورى ٤٢: ٥١.

(٤) التكوير ٨١: ١٩ - ٢١.

(٥) الشعراء ٢٦: ١٩٣ و ١٩٤.

وكذلك في فعل العذاب الإلٰهي، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾[٢].

وقوله تعالى في شأن قوم لوط، ولقاء النبيّ إبراهيم مع جبرئيل عليه السلام وبقيّة الملائكة الذين أرسلوا إلى إنزال العذاب على قوم لوط: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾[٥]، فأسند العذاب إلى الملائكة وإلى جبرئيل بالتّبع ثانية، كما أسند إلى الله بالذات وبالأصالة.

وكذلك فعل التدبير والرزق، فقال تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[٦].

---

(١) الفجر ٨٩: ٦ ـ ١٤.

(٢) الغاشية ٨٨: ٢٣ و ٢٤.

(٣) الذاريات ٥١: ٣١ ـ ٣٣.

(٤) الدخان ٤٤: ٤٧ ـ ٤٩.

(٥) ق ٥٠: ٢٤ و ٢٥.

(٦) السجدة ٣٢: ٥.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فَالْحامِلَاتِ وِقْراً * فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً * فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً﴾(٤)، فإنّ التدبير أُسند تارة إلى الله بالذات والأصالة، وإلى الملائكة بالتّبع ثانياً.

وكذلك الرزق وأفعال الرزق من الذرو وحمل ماء المطر، وتقسيم الأمر.

وكذلك الشفاء من المرض في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(٥).

وقوله تعالى خطاباً لعيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونَ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾(٦)، فأسند تعالى الشفاء من

---

(١) يونس ١٠: ٣.

(٢) يونس ١٠: ٣١.

(٣) النازعات ٧٩: ٣ ـ ٥.

(٤) الذاريات ٥١: ١ ـ ٤.

(٥) الشعراء ٢٦: ٧٨ ـ ٨٠.

(٦) المائدة ٥: ١١٠.

المرض إليه بالذات وبالأصالة، وأسند إلى النبيّ عيسى عليه السلام بالتّبع ثانياً.

فالقاعدة في إسناد الأفعال الإلـٰهيّة إلى الذات المقدّسة أنّ ذلك الإسناد قد قرّر في القرآن الكريم على أنماط متعدّدة، أي تارة إلى الذات الإلـٰهيّة، وأُخرى إلى الوسائط من جنود الله في السماوات والأرض، والفاعل الحقيقيّ هو الله، والوسائط هي أدوات الفعل الإلـٰهي وهي التي تباشر الفعل، فإنّ نزع الروح ـ مثلاً ـ يكون هناك ارتباط بين الروح النازعة والروح المنتزعة، والباري تعالى منزّه عن الاحتياج إلى مثل هذا الارتباط، وإنّما الذي يحتاج إلى مثل هذا الارتباط هو الذي يكون بعيداً.

وفي الحقيقة أنّ هذه الوسائط التي هي أدوات ومجرى للفعل الإلـٰهي، أصل وجودها من الباري تعالى وقائم به، كما أنّ القدرة على الفعل التي تتمتّع بها تلك الوسائط هي بالإضافة منه تعالى بدءً واستمراراً، فهو أقدر منها على تلك القدرة التي أعطاها إيّاها، فمن ثمّ حقّ أن يقال: إنّ تلك الوسائط ما هي إلّا مجرى لتلك الأفعال الصادرة منه تعالى، وهومعنى أنّها تفعل أفعالها بإذن الله.

وكذلك الحال في الحساب والقضاء والحكم يوم الدين، فإنّه تعالى ليس بجسم ولا جسماني، ولا بروح ولا روحاني، ولا بنفس ولا نفساني، ولا بعقل ولا متعقّل، فلا يباشر ما تباشره الأجسام، ولا يتعلّق بما تتعلّق به النفوس، ولا يرتبط بما ترتبط به الأرواح، ولا يتقيّد بما تتقيّد به العقول، إذ أنّ هذه الموجودات تحتاج إلى هذه الملابسات واللوابس في أفعالها، وهو تعالى لا يتّصف بالنقص والحاجة، غنيّ بذاته، فلا يتوهّم واهم أنّ هناك بقعة جغرافيّة وموقع مكانيّ في ساحة الحشر يتّجه إليها أهل المحشر كي يقام عليهم الحساب بتباشر الله معهم، فإنّ الباري تعالى لا يحدّه حدّ، ولا يُحاط بمكان، جلّ عمّا

يقوله الظالمون ، فهو تعالى لا يُكتنه ولا يُجبه ولا يواجـه ولا يـحسّ ولا يـمسّ ولا يُجسّ ، فلاتصدر تلك الأفعال ولا تظهر إلّا على يد الوسائط الإلٰهيّة ، فـهم مظهر تلك الأفعال الصادرة من الساحة الإلٰهيّة ، وتـلك الوسـائط آيـات ربّـانيّة تتجلّى منها تلك الأفعال الإلٰهيّة.

ومن ثمّ كان عيسى بن مريم وأمّه آية ، فكيف بمن هو أعظم ، ويقع الوهم كثيراً حيث يقتصر في تنزيه الساحة الإلٰهيّة عن تباشر الأفعال الماديّة المرتبطة بالحسّ دون الأفعال الروحيّة أو العقليّة ذات العلائق والقيود النفسانيّة أو اللوابس العقليّة ، مع أنّ تنزيهه تعالى عن التلابس والتعلّق بها هو على حذو تنزيهه عـن التـباشر بالأفعال الماديّة ، بينما يتوهّم الكثير أنّ الأفعال العقليّة أو الروحـيّة أو النـفسانيّة لا يوجد غضاضة في نسبتها نسبة مباشريّة إليه تعالى.

بينما الباري هو أكمل ومنزّه من الاحتياج إلى التباشر في إصدار هذه الأفعال وصدورها عنه ، وإنّما يفتقر إلى التباشر تلك الوسائط التي يسند إليها الفعل بنسبة عقليّة ما أو نسبة روحيّة أو نسبة نفسانيّة حيث تفتقر إلى ذلك الإعداد في إيجاد الأفعال.

بل هناك من مراتب التنزيه في الأفعال تدقّ لطافة ، وإنّما تسند إلى الأسـماء بنسب اسمائيّة تترفع الذات الأزليّة عن التقيّد بتلك النسب وشرحها له مقام آخر.

أصحاب الأعراف أئمّة أصحاب الجنّة ، والمستكبرون في الأرض أئمّة أصحاب النار

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيَماهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ

بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾[1].

وقد تقدّم شرح للآيتين، وأنّ أصحاب الأعراف يعرفون روّاد أصحاب النار بسيماهم، ويخاطبونهم ويقرّعونهم بالعتاب بما تقدّم من أعمالهم، ويظهر من وصفهم، أنّ أصحاب الأعراف يخاطبون جماعة خاصّة من أصحاب النار لهم الريادة والقيادة لأصحاب النار، وأنّهم كانوا أصحاب جمع وجماعة، وعدد وعُدّة، وكانوا مستكبرين في الأرض (أي أصحاب سلطة وسلطان، وقدرة واقتدار) في قبال أصحاب الجنّة، بمقتضى المقابلة أنّهم كانوا مستضعفون ومضطهدون في الأرض، ومغلوبون على أمرهم، وهذا معلَمٌ مهمّ لفريق أهل النار وفريق أهل الجنّة، وأنّ أصحاب الأعراف هم أئمّة المضطهدين، وهكذا كانت سيرة أهل البيت عليهم السلام، فما منهم إلّا مقتول أو مسموم، وقد أُزعجوا عن حقّهم، ودُفعوا عن مقامهم، وشرّدوا عن أوطانهم، ولوحق أتباعهم وشيعتهم.

وقد مرّ أنّ أصحاب الأعراف المهيمنين على الحساب، يخاطبون قادة أهل النار بقولهم: ﴿ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ ﴾ (مشيرين بذلك إلى أصحاب الجنّة)، أي يخاطبون بهذا الكلام قادة أهل النار في حال الإشارة لأصحاب الجنّة وتوصيفهم بذكر ما قد قاله أهل النار عنهم بذلك في دار الدنيا.

(١) الأعراف ٧: ٤٨ و ٤٩.

إمامة الرسول الأعظم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ (١)

إمامة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله

وهذه الآية قد وردت أيضاً في سورة الفتح الآية ٨، كما ورد قريباً منها ما في سورة المزمّل الآية ١٥، وفي هذه الآيات تبيان في أنّ المقام الأوّل الذي بعث به النبيّ صلى الله عليه وآله هو مقام الإمامة، لأنّ مقام الشهادة ممّا يرتبط بشؤون الإمامة بخلاف مقام البشارة والنذارة، فإنّهما مرتبطان بمقام النبوّة، وقد أُشير إلى ذلك في آيات عديدة.

منها: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِن أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هٰؤُلَاءِ ﴾ (٢).

ومنها: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِن حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ

---

(١) الأحزاب ٣٣: ٤٥ و ٤٦.

(٢) النحل ١٦: ٨٩.

عَلَى النَّاسِ﴾[١].

وغيرها من الآيات في السور الأُخرى التي ذكرت هذا الوصف والمقام لرسول الله ﷺ، وبأنّه شاهد على جميع الشهداء، وهو نظير ما في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[٢]، فهي شهادة على الأعمال لجميع الخلق.

أمّا ارتباط مقام الشهادة على الأعمال بالإمامة لا بالنبوّة، فلأنّ تعريف النبوّة هو في الهداية الإرائيّة، أي التي تتكفّل البيان وإراءة الطريق، ومن ثمّ تسمّى بالنذارة والبشارة والإخبار عمّا سيقع.

أمّا الإمامة، فهي سلوك وحركة واتّباع من المأموم والإمام، فتكون الهداية في الإمامة إيصاليّة، أي يأخذ بيد المأموم ويوصله إلى المطلوب، فالأعمال وسيرها كسلوك قاصدٍ إلى الغاية والغايات، فهو ممّا يرتبط بالإمامة والهداية الإيصاليّة، وهو ما بيّن في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٣].

وليس المراد من هذه المقابلة نفي مطلق الهداية للنذارة والنبوّة، كيف والحال أنّ النذارة تتضمّن الإراءة للطريق المطلوب والتحذير من جهنّم والدعوة إلى النجاة والجنان، بل هذه الآية المتضمّنة للمقابلة تقتضي التقابل والتغاير بين الهداية الإرائيّة والهداية الإيصاليّة المعتضدة بقرينة السياق، حيث أنّ في صدر الآية الحديث عن تحقّق الإيمان والاستجابة العمليّة من الكفّار ممّا هو مرتبط بالسلوك والأعمال والسير نحو المطلوب الذي هو متّصل بشؤون الإمامة.

---

(١) الحجّ ٢٥: ٧٨.

(٢) التوبة ٩: ١٠٥.

(٣) الرعد ١٣: ٧.

ولا تدافع بين آية الرعد وما ذكرناه من الآيات الأُخر التي تبيّن مقام الإمامة للرسول ﷺ ، وهو من الهداية الإيصاليّة ، فقد يتوهّم أنّه كيف تنفي آية الرعد ذلك المقام عنه ﷺ .

ووجه الدفع لهذا التوهّم والتنافي أنّ آية الرعد في صدد بيان مسؤوليّة وشؤون النبوّة ، والفرق بينها وبين مسؤوليّة وشؤون الإمامة ردّاً على اقتراح الكافرين أنّ رسول الله ﷺ لو كان نبيّاً فلماذا لم يأتِ بما يحقّق وقوع الإيمان منهم والاستجابة العمليّة ، فأجابتهم الآية بأنّ المسؤوليّة والوظيفة الملقاة على الأنبياء هي البشارة والنذارة ، وهي الإبلاغ والبلاغ ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾[٣]، وغيرها من الآيات العديدة التي تبيّن أنّ وظيفة النبوّة هي الإبلاغ والبلاغ لا الإتيان بما يحقّق وقوع الهداية الموصلة إلى المطلوب.

وبعبارة أُخرى: هناك فرق بين البيان الواضح المسمّى بالبلاغ المبين ، وهو الإراءة للطريق الواضحة ، وبين المجيء والإتيان بما يجذب العبد إلى سلوك طريق الحقّ ، والثاني من وظائف الإمام ، وهذا الاعتراض على الأنبياء كثير من أقوامهم ، كما في قوم عاد وشعيب وثمود ولوط ، وكانت إجاباتهم عليهم السلام أنّ وظيفة الأنبياء هو البشارة والنذارة والبلاغ المبين ، ومن ثمّ قد تعرّف النبوّة أنّها بمثابة

---

(١) النور ٢٤: ٥٤. العنكبوت ٢٩: ١٨.

(٢) النحل ١٦: ٨٢.

(٣) النحل ١٦: ٣٥.

العقل النظري في باطن روح الإنسان ممّا يرى المطلوب بنحو تجريديّ من دون جذب نفسانيّ بخلاف الإمام، فإنّه بمثابة قوّة العقل العمليّ، حيث أنّ هذه القوّة في الإنسان تمارس التأثير والجذب على إرادة الإنسان لكن من دون جبر بل ينحفظ معها الاختيار أي تهيئة ألطاف في النفس جاذبة نحو الخير، كما ورد في رواياتهم عليهم السلام: «إنّ لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة في النار، وهم والله ينوّرون قلوب المؤمنين، ويحجب الله عزّ وجلّ نورهم عمّن يشاء فتظلم قلوبهم»[(١)].

ثمّ إنّ إسناد الإرسال إلى مقام الشهادة على الأعمال، أي أنّه أرسل صلى الله عليه وآله ليكون شاهداً على الأعمال، فإنّ هذا الإسناد يتضمّن أنّ الإمامة ممّا يتعلّق بها الإرسال، والحال أنّ المرسل هو النبيّ لا الإمام، فكيف يفسّر هذا الإسناد؟

والإجابة عن ذلك بأنّه قد تعلّق الإرسال بالإمامة أو شعبها أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾[(٢)]، فتعلّقت البعثة بالإمامة التي عبّر عنها بالملك، إذ قد اصطفاه الله وزاده بسطة في العلم، وجعل لملك تدبيره آية، وهي ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾[(٣)].

فالإرسال والبعثة تتعلّق بكلّ من النبوّة والولاية التي أحد درجاتها العليا الإمامة، والظاهر أنّ لفظ المرسَل وصف وعنوان ومقام للنبيّ بما يتمتّع من مقام وشؤون الولاية، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ

---

(١) الكافي: ١: ١٩٤، باب أنّ الأئمّة نور الله عزّ وجلّ.

(٢) البقرة ٢: ٢٤٧.

(٣) البقرة ٢: ٢٤٨.

﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[١]، ومن الواضح أنّ الطاعة ترتبط بمقام الولاية والإمامة.

واستعمل الإرسال في القرآن الكريم لمطلق المأموريّة والوظيفة والمهمّة التي يندب إليها من يصطفيه الله لتلك، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾[٢].

وكما في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[٣]، ومثلها: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[٤].

وكقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[٥]، ومثلها: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾[٦]، مع أنّ ما أمر به الملائكة كرسل في هذه الآيات ليس إبلاغ الرسالة، بل القيام بمهمّة ومأموريّة.

نعم، أحد موارد الرسالة هو إبلاغ الشريعة، فيطلق على الشريعة الرسالة، لأنّ بعض الأنبياء يُندبون لتبليغها وإن لم يكن كلّ نبيّ مرسل صاحب شريعة، ومن ذلك يتبيّن أنّ المهمّة والمأموريّة التي ينتدب إليها الأنبياء متفاوتة، كما أنّ الحال في شؤون الولاية ودرجاتها متفاوتة، ففي شأن النبيّ يونس ﷺ قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[٧]، مع أنّه لم يكن صاحب شريعة.

---

(١) النساء ٤: ٦٤.

(٢) الحجّ ٢٢: ٧٥.

(٣) الزخرف ٤٣: ٨٠.

(٤) يونس ١٠: ٢١.

(٥) الأنعام ٦: ٦١.

(٦) الأعراف ٧: ٣٧.

(٧) الصافّات ٣٧: ١٤٧.

وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾(١)، ومثلها: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾(٢)، فلا يتوهّم تدافعها مع عموم موارد الرسالة الذي مرّ في الآيات السابقة، لأنّ الحصر إضافيّ وليس مطلقاً، أي أنّ الآيتين في صدد بيان أحد غايات الرسالة، وهي إقامة الحجّة على العباد، وليس الإلجاء التكوينيّ على الهداية كما هو واضح من سياق الآيات التي وقعت فيها الآيتان في سورة الأنعام والكهف.

ومن ثمّ يدفع ما توهّمه جملة من الكُتّاب في الثقافة الإسلاميّة من توهّم حصر مقام الرسول ﷺ وصلاحيّته وشؤونه في الدعوة إلى دين الله فقط من دون صلاحيّة إقامة نظام الحكم السياسي والقضائي.

كما استدلّوا بقوله تعالى أيضاً في سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾(٣)، وإلّا فإنّ أوامر إقامة الحكم والقضاء وجهاد المعتدين والظالمين وجباية الضرائب وغيرها من أنشطة الدولة قد أُمر بإقامتها النبيّ ﷺ والتفطّن بجهة الكلام وسياقته من الضروريّات البالغة الأهمّيّة في عالم دلالة الألفاظ.

---

(١) الأنعام ٦: ٤٨.

(٢) الكهف ١٨: ٥٦.

(٣) الغاشية ٨٨: ٢١ و ٢٢.

خلود القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1]

فقد روى ابن بابويه في كتاب «الإمامة والتبصرة»: عن محمّد بن موسى، عن محمّد بن قتيبة، عن مؤدِّب كان لأبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «كان بين يديّ يوماً يقرأ اللوح إذ رمى اللوح من يده وقام فزعاً وهو يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، مضى (والله) أبي (عليه السلام).

فقلت: من أين علمت؟

فقال: دخلني من إجلال الله وعظمته شيء لم أعهده.

فقلت: وقدمضى؟

فقال: دع عنك ذا. ائذن لي أن أدخل البيت وأخرج إليك واستعرضني أي القرآن شئت، أفي لك بحفظه.

فدخل البيت فقمت ودخلت في طلبه إشفاقاً منّي عليه، فسألت عنه، فقيل: دخل هذا البيت وردّ الباب دونه، وقال: لا تؤذنوا عليّ أحداً حتّى أخرج إليكم، فخرج معبّراً وهو يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، مضى والله أبي.

---

(١) الحجر ١٥: ٩.

فقلت: جعلت فداك، وقد مضى؟

فقال: نعم، ولّيت غسله وتكفينه وما كان ذلك لِيَلي منه غيري.

ثمّ قال لي: دَعْ عنك هذا، استعرضني أي القرآن شئت، أُفِدك بحفظه.

فقلت: الأعراف، فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ثمّ قرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾[١]

فقلت: ﴿المص﴾.

فقال: هذا أوّل السورة، وهذا ناسخ وهذا منسوخ، وهذا محكم وهذا متشابه، وهذا خاصّ وهذا عامّ، وهذا ما غلط به الكُتّاب، وهذا ما اشتبه على الناس»[٢].

ورواه الصفّار في «البصائر»، إلّا أنّه لم يرو الذيل، وذكر أنّ المؤدّب كان أبا زكريّا وروى هذه القضيّة عن أبي الحسن الهادي عليه السلام، والراوي عن المؤدّب رجل كان رضيع أبي جعفر عليه السلام[٣].

وعلى أيّ تقدير، يستفاد من الرواية أنّ القاعدة في ترتيب آي القرآن الكريم، أن يتقدّم الناسخ على المنسوخ، والمحكم على المتشابه، والخاصّ على العامّ، وأنّ الترتيب الموجود في آي السور ليس كما هو المقرّر شرعاً في جمع المصحف، وأنّ ابتداء سورة الأعراف هو الآية التي قرأها الإمام عليه السلام.

---

(١) الأعراف ٧: ١٧١.

(٢) الإمامة والتبصرة: ٨٥، الحديث ٧٤.

(٣) بصائر الدرجات: ٤٨٧، الحديث ٢.

خلود القرآن الكريم

إنّ من الشُّبه المثارة، تاريخيّة القرآن الكريم، ويقصدون بذلك أنّ نور الوحي الإلٰهيّ وإن كان فوق الزمان والمكان من عالم النور المحيط بالأزمنة والأمكنة، إلّا أنّه عندما يتنزّل، يتأرّخ ببيئة النزول ويتلوّن بالموارد والحوادث التي هي محالّ انطباقه، فيأخذ أحكامها، فيتحدّد ويتضيّق ويتخصّص أحكام وعلاجات وعادات وقيم بيئة النزول زماناً ومكاناً، فلايتناسب مع بيئة الانتشار في بُعد المكاني أو في عمود الزمان.

فالقالب الوحياني ينفعل بخصوصيّة المتلقّي، ومن ثمّ عبّر بعضهم (الحداثويّين الغربيّين، والفلاسفة الألسنيّين) بأنّ النبوّة تجربة بشريّة، أو قد يصيغون الإشكال بصيغة أخرى، وهو أنّ منبع الوحي الإلٰهي لا متناهي، بينما النبيّ فرد بشريّ محدود في تلقّيه وخصائصه، كما أنّه يعيش في بيئة خاصّة متركّبة هويّته منها ذهنياً وروحياً وصفاتياً، ومن ثمّ فينطبع الوحي الذي يتلقّاه بخصائص ذلك الفرد، وأنّ التاريخانيّة من مقوّمات الفرد البشريّ.

وقد تصاغ الشبهة بصياغة أُخرى: أنّ الحوادث الواقعة في مدّة نزول القرآن مهما تعدّدت، فهي محدودة لا تغطّي ولا تعمّ كلّ البيئات البشريّة، زماناً ومكاناً، بل تظلّ بيئة محدودة، ونزول القرآن كان يتقيّد بحسب تلك الحوادث المحدودة، فكلّما استجدّت حادثة نزل منه بعض الآي والسور، ولو قدّر أنّ سيّد الأنبياء ﷺ عاش أكثر أو ضعف ما عاش، لربّما شاهدنا ضعف المصحف الشريف هذا اليوم. ومن ثمّ زُعم أنّ النبوّة تجربة، فإنّ تلك الحوادث الواقعة كموارد وأسباب للنزول هي وليدة حركة تاريخيّة لعيّنة من أفراد البشر، فلا تعمّ حركة الإنسان المتنوّعة في البقاع الأخرى والأزمنة اللّاحقة، فبيئة النزول هي مجموع عادات

وقيم محدودة. فالمعالجات القرآنيّة بلحاظها هي أيضاً كذلك، فتتغاير العادات والأعراف المنتشرة في الحضارات المستجدّة الأخرى، وفرق بين النصّ المحدود وبين النصّ المنفتح على ما لا ينحصر من الموارد.

وللإجابة على هذه الوهميّة.

عموميّة موارد أسباب النزول

الأولى: إنّ موارد نزول القرآن لم تنحصر بالوقائع الحادثة في الثلاثة والعشرين سنة من بعثة النبيّ ﷺ ولا اختصّت ببيئة العرب أو قريش في ذلك الزمان، بل موارد النزول وبيئته قد شملت كلّ الماضي من لدن آدم حتّى بعثة الرسول، كما شملت موارد وبيئات تنبئ بها من بعد وفاة الرسول ﷺ إلى انتهاء الدنيا، فتعرّض إلى أخطر المنعطفات الماضية التي مرّ وسوف يمرّ بها البشر، وعالجها بمنتهى التفصيل والحكمة، بل قد تجاوز ما مضى وما هو مستقبليّ في دار الدنيا، وتعرّض على عوالم ودور مرّ بها الإنسان أو الخلقة والمخلوقات من عوالم ونشآت سابقة، كعالم الذرّ والأرحام والأصلاب والأرواح وعالم النور، وكذلك نشآت لاحقة لدار الدنيا، كعالم البرزخ والحشر والنشر والقيامة والجنّة والنار والصراط، عوالم الملائكة والجنّ، وأخبار أهل كلّ سماء من السبع.

وبالجملة: فيه تبيان كلّ شيء، ومن الأمور المبيّنة في الكتاب مرحلة الرجعة والحقائق الكونيّة، وبالجملة ففيه تبيان كلّ شيء، إلّا أنّه سيأتي أنّ المستخرج ذلك كلّه من القرآن ليس في قدرة البشر، وإنّما هي مخصوصة بمن هم عِدل القرآن من العترة الطاهرة من أهل البيت عليهم السلام، وفي الحقيقة أنّ هذه الشبهة بمثابة البرهان على ضرورة وجودهم واضطرار البشر واحتياجهم إلى العترة.

وقد تعرّض القرآن الكريم لتصحيح جملة من المحاور العامّة في مسيرة

البشر، والتي حرّفت صورة النقل لدى الأجيال المتأخّرة عن حقائق أحداثها، فمن ثمّ اشتمل القرآن الكريم على تصحيح جملة ممّا زيّف من قصص التاريخ في التوراة والإنجيل المحرّفين، كما اشتمل على إخبارات ممّا مضى لم توجد في التاريخ، ولذلك روي عن النبيّ ﷺ من ملاحم ونبوّات مستقبليّة لتفسير إشارات قرآنيّة عن تلك الحوادث المستقبليّة، هو من الاستعراض الجم، وفيه تفاصيل عن الأحداث بالدقّة.

أُومة مرجعيّة القرآن وشموليّته

الثانية: أنّه قد تقرّر في البحث العقليّ ونظام العلوم، وجود قضايا كلّيّة محيطة بكلّ الجزئيّات والبيئات المتغيّرة، وتلك القضايا العامّة الكلّيّة هي الجانب الثابت التي تنقّب الأبحاث والمسيرة في العلوم عنها، سواء في العلوم التجريبيّة الطبيعيّة والعلوم الإنسانيّة، كعلم القانون والحقوق وعلم النفس والأخلاق والاجتماع أو غيرها، أو أنظمة العلوم الصناعيّة والمهنيّة والفنّيّة والتقنيّة وغيرها من نظامات العلوم، ويرسم لذلك برهان، وهو كالتالي:

إنّه لو افترضنا تعاقب المسيرة العلميّة وقوافل البحث العلميّ في العلوم جيلاً بعد جيل، فإنّ الجيل الأخير من هذه النشأة الدنيويّة والتي نفترض أنّه تقوم عليه القيامة، يكون قد اكتسب مخزون العلوم والمعلومات التي سبقته في الأجيال كلّها، وهذا المخزون الذي ورثه واكتسبه ينتظم ضمن مجموعة من الكلّيّات هي بمثابة القواعد الأمّ في كلّ علم، وتكون تلك القواعد شاملة للبيئات التي مرّت بها البشريّة أجمع، إذ المفروض أنّها في كلّيّاتها وعموماتها هي الجانب والعنصر المشترك المستخلص من كلّ تلك البيئات، فلا تشذّ عنها بيئة من البيئات ولا حادثة من الحوادث، ولا زمن من الأزمنة، فإذا تقرّر وجود تلك القواعد

والمعادلات والقوانين الكلّيّة ، وأنّه بإمكان أحد الأجيال البشريّة إدراكه والوصول إليه ، فكيف لا يكون ذلك في قدرة خالق البشر أن يصطفي ويختار فرد بشريّ هو سيّد الأنبياء وسيّد البشر.

وأرقى ما يمكن أن تكون عليه الطبيعة البشريّة وغير الطبيعة البشريّة أن ينتجبه ويوحي إليه بتلك العلوم والمعلومات والتي تتجاوز محدودة بيئته الزمانيّة إلى بيئات سابقة منذ صدر البشريّة وإلى بيئات لاحقة ، بل إنّ العقل يدرك أنّ هذا اللطف والعناية والرحمة ضرورة صدورها عن الباري للطفه بخلقه ، إذ أنّ البشر في منتصف الطريق لا يمكنهم أن يصلوا بأنفسهم إلى ما عليه واقع الأشياء في مختلف المجالات من حقائق ، ولذلك في أنّ في وجدان كلّ فرد بشريّ أنّ المسيرة العلميّة وقافلة التحقيق لا يمكن أن تقف في يوم ما عند حدٍّ معيّن ، وتقنع بما اكتشفته من حقائق ، بل مسيرة العلم متواصلة بحثاً وتنقيباً للوقوف على المجهول ليصبح معلوماً.

وهذا ممّا يقضي بكون الحقائق لا متناهية ، ولن يقدّر للأجيال البشريّة وحتّى الأخير منها في النشأة الدنيويّة ، ليس بمقدوره أن يحيط بكلّ حقائق الأشياء والقوانين والمعادلات التي تحكم على الواقعيّات.

فمن ثمّ هذا برهان علميّ وعقليّ على ضرورة الحاجة إلى هداية السماء ، وأنّ البشريّة ليس بإمكانها مهما تواصل البحث والتنقيب والاختبار العلميّ ، أن تصل إلى الإحاطة بالقواعد والمعادلات على حقائق الأشياء ، فمن ثمّ تضطرّ البشريّة في مسيرة التكامل والكمال أن تلتجئ إلى منبع آخر للعلم وهو الوحي الربّاني.

فهذه الشبهة هي برهان على ضرورة النبوّة ، وضرورة وجود الوصيّ من

بعد النبيّ ﷺ.

ويمكن صياغة هذا البرهان ببيان آخر ، وهو أنّ النزعة الفطريّة الموجودة لدى البشر في مواصلة البحث والتنقيب العلميّ هو لأجل الوصول إلى قواعد عامّة ثابتة شاملة للمتغيّرات وتحكم بها الجزئيّات ، فنزعة البحث العلميّ أدلّ شاهد على إيمان البشر بالبداهة على وجود تلك القواعد ، وسعيه الحثيث للوصول إليها ، كما أنّ هناك نزعة أُخرى ذاتيّة للبشر ، وهي إيمانه وقناعته باستمرار مسيرته العلميّة أبد الآبد ، وهذا يكشف عن دواء قصور القدرة البشريّة عن الإحاطة بالواقع مع أنّ هاتين النزعتين برهان لوجود الحقائق ، وأنّ صفة تلك الحقائق لا محدودة وغير منقطعة عند حدّ ، وإلّا لوقف مسير السير العلميّ في يومٍ ما.

وهذا ما يكذّبه وجدان البشر ، فمن ثمّ هناك اضطرار إلى الهداية السماويّة في اكتشاف هذه الحقيقة اللامحدودة ، وكيفيّة التعامل معها ، ومن ثمّ جاء في النصوص أنّ مبدأ كلّ علم هم الأنبياء والأوصياء ، ولك أن تتمثّل في العلوم الأُخرى ، فإنّ علم الرياضيّات ـ مثلاً ـ بما فيه من بديهيّات هي كفيلة لحلحلة كلّ مجهولات الرقميّة في مقادير أبعاد الكون وإن كان الوصول إلى تلك الحلول والنتائج ليس في قدرة البشر العادي ، مع أنّ الأجوبة مطويّة طيّاً في بديهيّات ذلك العلم بحيث لا يشذّ عنها أي متغيّر بيئيّ في الظواهر الكونيّة ، فعموميّة تلك البديهيّات الشاملة لكلّ متغيّر أمر وشأن ، والقدرة على استخراج كلّ المتغيّرات منها أمر وشأن آخر.

وعجز البشر عن استخراج تلك القواعد من البديهيّات لا يستلزم نفي وجود تلك القواعد وقابليّتها على الحلّ والإجابة على كلّ المسائل ، بل هذه الظاهرة

تدلّ على ضرورة وجود فرد بشريّ مزوّد بالعناية الإلهيّة واللطف الربّانيّ قادر على استنطاق هذه المعلومات من البديهيّات الرياضيّة، فخلق الباري لمثل هذا النظام المعادليّ الرياضيّ لا تتمّ حكمته وكماله إلّا بخلق فرد بشريّ قادر على تفعيل هذا الرأس المال المذخور، وإلّا لكان معطّلاً وهباءً منثور، ذلك الفرد البشريّ الذي يتمتّع بعلم لدنيّ منه تعالى غير مكتسب، وليس هذا شأن علم الرياضيات فحسب، بل العلوم الطبيعيّة كذلك، كعلم الفيزياء والكيمياء والأحياء وبقيّة العلوم الإنسانيّة والتقنيّة والفنّيّة والمهنيّة والعلوم النظميّة وبقيّة العلوم كلّها مستنبطة ومنطوية على قواعد كفيلة بالكمال الأرقى المنشود للبشريّة الذي لا يخترمه أيّ فساد ولا يعاوقه أيّ عقبة ممانعة، إلّا أنّ القدرة البشريّة على استخراج هذه الكنوز من تلك العلوم غير متوفّرة بنحو دفعيّ راهن إلّا عند فرد بشريّ أعدّه الله ووفّر فيه القدرة على ذلك، فرساميل بديهيّات العلوم ليس فيها إعواز كفيل بازدهار ورقيّ البشريّة، وإنّما العجز والضعف في عموم البشريّة، فلامحالة تقتضي الحكمة الباهرة المودعة في الخلقة الكونيّة وجود إنسان كامل مزوّد بعلم وعلوم إحاطيّة بذلك تفعّل وتنشط وتستثمر هذه الأنظمة من العلوم في الظواهر الكونيّة.

فيتبيّن أنّ في القرآن التنزيليّ، والقرآن الكونيّ أي الكون بما أُودع فيه من محكمات القواعد، كلّ منهمايهتف بضرورة وجود إنسان كامل قادر على استنطاق واستنباط تلك الأنظمة والقواعد من العلوم الشاملة والمؤدّية إلى سعادة البشر، فالعجز والنقص ليس في القرآن التدوينيّ ولا القرآن الكونيّ، ولا في الفرد الكامل، وإنّما في سائر البشر، وأُلصق ذلك العجز الذي من وصف البشر بالثقلين، أي أنّ العجز الذي فيهم نظروا به إلى القرآن وما يحيط بهم من نظام الكون.

ليلة القدر واستمرار نزول القرآن

ثالثاً: استمرار نزول القرآن الكريم إلى يوم القيامة في كلّ عام بلحاظ تأويله لما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[3].

وغيرها من الآيات في السور المرتبطة بليلة القدر التي هي ليلة نزول القرآن، ومن ثمّ ربط في سورة القدر سورة الدخان بين نزول القرآن وما يتنزّل في ليلة القدر من تقدير كلّ شيء.

وقد بيّن في سورة الدخان أنّ هذه التقادير والمقادير للأمور المتنزّلة هي المقرّرة ثبوتها في الكتاب المبين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي

(١) الدخان ٤٤: ١ ـ ٧.

(٢) النحل ١٦: ٢.

(٣) غافر ٤٠: ١٥.

كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[٢]، وغيرها من الآيات التي تبيّن أنّ الأمور كلّها قبل وقوعها في العين والخارج مقدّرة ومقرّرة، تقديرها في الكتاب المبين، سواء كان ذلك الأمر يقع في السماوات أو يقع في الأرض، والكتاب المبين منزلة من المنازل العلويّة الغيبيّة للقرآن الكريم.

وقد ثبت بضرورة الآيات والروايات عند الفريقين أنّ تقدير ومقادير الأمور لا زال يتنزّل في كلّ عام ليلة القدر، وهذا تنزّل من الكتاب المبين بنصّ سورة الدخان، فما يتنزّل من القرآن من تأويل ومقادير وحقائق لم ينضب قطّ، فما توهّم من ارتفاع القرآن وانقطاعه لا مجال له، بل في روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ تنزّلات القرآن في كلّ ليلة جمعة، بل في كلّ ليلة، بل في كلّ آن، وهو مطابق لما في سورة غافر وسورة النحل من إطلاق النزول والتنزيل من دون تقييده بليلة القدر.

وممّا يشير إلى استمرار تنزّل حقائق القرآن وتأويله وفيوضات علومه، ما في قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾[٣] الدالّ على أنّ المطهّرين من هذه الأمّة وهم أهل البيت عليهم السلام يمسّون المنزلة الغيبيّة في القرآن المحفوظة عن تناول الجميع في كِنٍّ مكنون، ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[٤].

---

(١) يونس ١٠: ٦١.

(٢) النمل ٢٧: ٧٥.

(٣) الواقعة ٥٦: ٧٥ ـ ٧٩.

(٤) البروج ٨٥: ٢١ و ٢٢.

وبعبارة أخرى: أنّ القرآن الكريم قد نعت نفسه بأنّ له منازل علويّة غيبيّة فيها تبيان كلّ شيء، نظير قوله تعالى: ﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾[١]، وهذه العلوم الجمّة المحيطة لا زالت تتنزّل على الذي اصطفاه الله من عباده ممّن قد ورث الكتاب من النبيّ الأعظم إذ يتنزّل عليه من فيوضات سيّد الأنبياء.

تكرار أو تكرّر السنن التاريخيّة

رابعاً: إنّ من القواعد التي باتت ثابتة في العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة تكرّر السنن والظواهر في المجتمعات البشريّة، فالبلدان والأزمنة والبيئات والقوميّات وإن اختلفت، إلّا أنّ الطبيعة البشريّة في البُعد الفرديّ والأسريّ والروحيّ والبدنيّ والاجتماعيّ تظلّ متّحدة، ومن ثمّ تكون تداعياتها ورسوم أفعالها ذات صورة متشابهة، فتشاهد أنّ النزعات والمذاهب والاتّجاهات وإن اختلفت أسماؤها، إلّا أنّها ذات مغزىً واحد كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٢].

وكقوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[٣].

فإنّ الاعتبار بالسنن التاريخيّة إنّما هو لتفادي الوقوع في الأخطاء السابقة

(١) الرعد ١٣: ٣٩.

(٢) البقرة ٢: ١١٨.

(٣) آل عمران ٣: ١٣٧.

عند تكرّر الظواهر التاريخيّة في المجتمعات البشريّة، وهذا هو مغزى علم التاريخ الذي هو من أقدم علوم البشريّة.

ومن ثمّ تكرّر توسيط القرآن بالنظر إلى ما آلت إليه الأمم السابقة وعواقب أمورهم، ومثله قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1].

ومن ثمّ لم يقتصر القرآن كما مرّ في الأجوبة السابقة على استعراض بيئة مكّة والمدينة، وإنّما توسّع لكلّ الأحداث التاريخيّة منذ نشأة البشريّة، ومن ثمّ لا زالت المدارس القانونيّة والحقوقيّة البشريّة تدرس وتتدارس القوانين الغابرة في الأمم السابقة، كمسلّة حمورابي، والقانون الرومانيّ القديم، واليوناني في عهد ما قبل الميلاد.

وكذلك شأن أصحاب العلوم الإنسانيّة طرّاً، كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم التاريخ وعلوم الأدب والثقافة، وما شابه ذلك، وليس ذلك إلّا لما تقدّمت الإشارة إليه.

فما استند إليه في الوهم من إيراد وطعن هو دعم وتشييد، بل إنّنا نشاهد تأثير التاريخ ليس على العلوم الإنسانيّة فحسب، بل على العلوم النظميّة المرتبطة بمنظومات النظم كالعلوم الإداريّة، بل وكذلك منظومة العلوم التجريبيّة، فإنّ تاريخ كلّ علم بات من القواعد الهامّة المؤثّرة على الهيكل العام له، والشبكة التنجّزيّة لذلك العلم، وكيفيّة نموّه وتطوّره وتوسعته، فما هو الحجر الأساس

(١) فاطر ٤٠: ٤٣ و ٤٤.

في مقالة الإشكال هو من عمدة حجر الأساس في دفعه، وهو ممّا ينمّ على عدم إلمام أصحاب هذه المقالة بأصول العلوم كي يتمكّنوا من مقارنتها مع الأصول العلميّة في القرآن، حيث قد قاموا بتوظيف خاطئ لبحوث الألسنيّات مع عدم مراعاة قواعد منهجيّة في علوم أخرى تكلّموا عنها بالنيابة.

البحث المنهجيّ في قراءات النصّ والنصّ القرآني

خامساً: حيث أنّ كيفيّة القراءة للنصّ هي الكفيلة باستخراج الكلّيّات من الجزئيّات، لو سُلّم أنّ قوالب الألفاظ وتركيبات المعاني الواردة في النصّ القرآني في مجال التشريع أو المجالات الأخرى جزئيّة متأرّخة متقيّدة ببيئة النزول الزمانيّة الخاصّة ذات طابع تاريخاني؛ فإنّ للقراءة والاستنباط منهجاً وقواعد وموازين وأسساً، كما أنّ هناك علماً وعلوماً باحثة عن أصول المنهجة، كعلم أصول الفقه وعلم المنطق والعلوم البلاغيّة، وبعض علوم الأدب كعلم الاشتقاق، ورغم اختلاف النظريّات والأحوال في هذه العلوم الباحثة عن قراءات النصّ، إلّا أنّها تحتكم إلى أصول مشتركة مبرهنة متّفق عليها، كما أنّها منفتحة أمام أيّ قواعد منهجيّة تكتشف لقراءة النصّ، شريطة خضوعها لأدلّة موزونة تنتهي إلى قواعد صحيحة سديدة مدلّل عليها كي تكون هناك مرجعيّة يحتكم إليها الجميع، وإلّا لدبّ المنهج السفسطيّ في المعرفة.

نظام الإعلام
سلطة و سلاح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ
لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُم مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ
عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا
هَٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ
فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ
وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللهِ
عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا
بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧)
وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ
الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ
فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم

مِن أَحَدٍ أَبَداً وَلَٰكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾[١]

الإفك

الإفك كما في «اللسان»: «الكذبة العظيمة»[٢]، وهو قلب الحقيقة، كما في ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾[٣]، ائتفكت: انقلبت، كما في «مجمع البحرين»[٤]، أفّاك: انتحل صفة الغير لأغراض النصب والخداع.

والإفك هو الكذب الذي قُلب فيه الأمر عن وجهه كما في «التبيان»[٥].

ويتحصّل من هذه التعاريف: أنّ الإفك كذب من نمط ونوع خاصّ يتضمّن التزوير لأباطيل يتمّ بها قلب الواقع عن وجهه وخلق وجهٍ جديد وتدشين صورة اُخرى، فليس يطمس الحقائق فحسب، بل يخلق بيئة تخيّليّة اُخرى تعيش الوسط العامّ في ضمن مسار آخر، ومن ثمّ فإنّ مادّة الإفك مرتبطة بالإعلام العامّ، وأنّ الإعلام من شأنه خلق بيئات وهميّة وأجواء تخيّليّة بعيدة عن الواقع.

ومورد نزول هذه الآيات هو الطعن والبهتان الذي اُلصق بمارية القبطيّة حيث أنجبت إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وبالتالي فالأمر يرتبط بقطب رحى الدين ومركز الحاكميّة والسلطة، فالتزوير استخدم ومورس بتوسّط الإعلام العامّ، وهو نوع من الحرب المستهدفة للهدف بآليات تصنع الرأي العامّ وتصوغه لإبادة شخصيّات محوريّة في أنظمة معيّنة وفي أبنية اجتماعيّة، فمن ثمّ البحث في

---

(١) النور ٢٤: ١١ ـ ٢١.

(٢) لسان العرب: ١٠: ٢٩١.

(٣) النجم ٥٣: ٥٣.

(٤) مجمع البحرين: ١: ٨١.

(٥) تفسير التبيان: ٧: ٤١٤.

هذه الآية مرتبط بالإعلام الذي يصوغ الإعلام العامّ على خلاف الحقائق.

ومن ثمّ يرتبط بهذا البحث في هذه الآيات جملة من الآيات في سور أُخرى، المتعرّضة لنفس البحث، والمبيّنة لخطورته، كقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً﴾ (١).

وكذا قوله تعالى في هذه الآيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (٢).

وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ

---

(١) الأحزاب ٣٣: ٦٠.

(٢) النور ٢٤: ١٩.

(٣) النساء ٤: ٨٣.

(٤) آل عمران ٣: ١٧٣ ـ ١٧٥.

لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾[٢].

قال في «التبيان»: «والإرجاف: إشاعة الباطل للاغتمام به، والمرجفون هم الذين كانوا يطرحون الأخبار الكاذبة، ويشغلون به قلوب المؤمنين»[٣]، وهو ما يعرف حاليّاً بالحرب النفسيّة.

وفي «اللسان»: «الرجفان: الاضطراب الشديد»[٤]، وهذا وصف لإشاعة الأخبار والإذاعة وخطورة تأثيرها بأنّها توجب الاضطراب في المجتمع، ومن ثمّ تهدّد الله عزّ وجلّ المرجفين وتوعّدهم، وذكر أنّ حكمهم، النفي عن مجاورة النبيّ، ممّا يعني انقطاع التعايش معهم مدنيّاً. والإرجاف وصف ثانٍ في القرآن لإشاعة الأخبار والإعلام.

والوصف الثالث إشاعة الفاحشة، فإنّ هذا تأثير ثالث لإذاعة الأخبار السامّة، وهو أثر تربويّ على سلوك المجتمع ويوجب بزوغ وتولّد ظواهر سلوكيّة في المجتمع، وأنّه له بالغ التأثير في ذلك، ومن ثمّ توعّد الله تعالى على ذلك بالعذاب

---

(١) المائدة ٥: ٤١ و ٤٢.

(٢) التوبة ٩: ٤٧.

(٣) تفسير التبيان: ٨: ٣٥٩.

(٤) لسان العرب: ٩: ١١٢.

الأليم العاجل في الدنيا فضلاً عن الآخرة.

والوصف الرابع: تأثيره على الأمن الاجتماعي في كافّة مجالاته، ومن المجّرب في تاريخ شعوب البشر أنّ الأمم والشعوب ربّما تصاب بهزائم ونكسات من جرّاء إشاعة الأخبار السلبيّة وإن كانت صادقة، فضلاً عن أن تكون مزوّرة، ومن ذلك يعلم مدى المسؤوليّة الكبيرة في نشر الخبر وإفشائه، وأنّ عمليّة الإذاعة والنشر فعل بالغ التأثير في أوضاع المجتمع البشريّ، وأنّ الإقدام عليه يتضمّن مسؤوليّة وآثاراً كبيرة جدّاً.

وممّا يتّصل بهذا الوصف ويقاربه أو بالذي قبله، الإرعاب والإخافة، وقوله تعالى: ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾(١).

والوصف الخامس: كون الإعلام يوجب الفتنة وهي الاضطراب والإرباك، وتدخل فيها معاني عديدة في مجالات عديدة يجمعها موارد الفتنة.

ثمّ إنّ ما في سورة المائدة والتوبة بيان للمسؤوليّة والوظيفة بعد وقوع الإشاعة، كما في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾(٢).

المسؤوليّة تجاه الإشاعة وإعلام السوء

ومفاد السور الثلاث (المائدة والبراءة والحجرات) لزوم التثبّت أمام الإشاعات

---

(١) آل عمران ٣: ١٨٦.

(٢) الحجرات ٤٩: ٧.

والأخبار، وعدم المسارعة إلى تصديقها، وعدم الاسترسال لمتابعتها، بل التبيّن والتثبّت والتحرّي عن صدقها، وهذا ما تفيده آيات النور أيضاً، حيث تتعرّض الآيات فيها إلى المصدر الذي تولّد منه الخبر الكاذب بحياكة قالبه عمّا هو عليه من الواقع، كما تبيّن أنّ مقدار إسهام عصابة الإفك والزور في ذلك قد يختلف، كما أنّ الآيات تبيّن مدى خطورة تأثيرها على المجتمع نفسه، وأنّه شرّ يحيق به.

ومن ثمّ تبيّن أنّ الظنّ (بخلاف ما عليه الإشاعة السيّئة)، هو ظنّ من المؤمنين بأنفسهم خيراً، أي أنّه يعود عليهم بالخير، بخلاف تصديق الإشاعة، فإنّه عامل سوء وشرّ للمجتمع نفسه، مع أنّ أفراد المجتمع عندما يتلقّون الإشاعة لا يتنبهون إلى ارتباطها بهم، بل يقفون أمامها وقوف المتفرّج، بل يسعون في توسّعها وانتشارها وحدّتها بخوضهم فيها.

ومن ثمّ تؤكّد الآيات على خطورة الإسهام في الإشاعات ودعمها عبر تلقّيها وإثارتها بالألسن والأفواه، وأنّ هذا الخوض اللساني هو تضامن داعم للإشاعة ومشاركة وإسهام فيها، ومن ثمّ يعبّر عن ذلك بأنّه تلقّي للإفك باللسان وهو نمط من الترحاب والاحتضان، وهو قبول له ومشايعة، مع أنّ أفراد المجتمع يحسبون أنّ ذلك حياد ومجرّد استطلاع، ومن ثمّ عبّرت الآية بالقول: ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً ﴾[1]، مع أنّه إسهام عظيم في دعم الإشاعة وإيصال تأثيرها، ومن ثمّ عبّرت ﴿ وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ ﴾.

وبيّنت الآية أنّ موقف الحياد هو بعدم التكلّم والتنزّه عن الخوض لساناً فيه لأنّ مجرّد فسح المجال له بالتناقل لساناً هو تبنّي له، ومن ثمّ ورد في الروايات الآتية أنّ الفرد قد يُسهم في قتل الإنسان بما ينقله من أخبار عن ذلك الفرد فتصل

(١) النور ٢٤: ١٥.

إلى السلطان الغاشم فيبادر إلى قتله فيكون للناقل بلسانه ذلك الخبر نصيب في قتل الإنسان.

ومن ذلك يعرف أنّ المشاركة في تناقل الأخبار هي مشاركة في بناء تلك التهم وإلصاقها بالأبرياء، ثمّ لا تكتفي الآيات بذلك وتبيّن أنّ مجرّد هذا الخوض (الذي يحسبه أفراد المجتمع موقف بريء) جزاؤه عذابٌ عظيم عاجل في الدنيا قبل الآخرة، وكلّ ذلك للتشدّد في النهي عن ذلك.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[١].

وكذلك توعّد الذين يحبّون إشاعة الفاحشة بأنّ لهم عذاب عظيم في الدنيا قبل الآخرة، وجعل الانخراط في الإشاعة بتناقلها ثمّ بثّها ممّا يترتّب عليه الإفشاء، هو من اتّباع خطوات الشيطان، وأنّه بالتالي ترويج للفحشاء والمنكر، وأنّه لولا فضل الله لشاعت الفاحشة والمنكر في بيئة المؤمنين، فما يزكو منهم أحدٌ أبداً، وهذا ممّا يبيّن صعوبة أو امتناع ضبط الإشاعات السيّئة، وأنّ منافذ انتشارها وجريان انتشار أمواجها في المجتمع كثيرة جدّاً، وهذا ممّا يبيّن خطورة الإعلام وشدّة تأثّر البيئة الاجتماعيّة به، وأنّه من العوامل الكبرى المؤثّرة في تربية المجتمع، وأنّه إمّا إلى الحضيض، وإمّا إلى التعالي، وأنّ الدين الحنيف يولي أهمّيّة فائقة للسطح الظاهر من البيئة الاجتماعيّة، ومن ثمّ وضع الحدود والتعزيرات بما يطفح من الفحشاء في السطح الظاهر بتوسّط الشهادات الأربع، لأنّ ظهورها وبروزها إلى ذلك السطح ممّا يوجب شيوعها، وأنّ السطح الظاهر من البيئة الاجتماعيّة بالغة التأثير في أفراد المجتمع، وهي تعرف في علم الاجتماع بالسلوك الجمعي والأخلاق الاجتماعيّة التي يتحرّك الأفراد فيها

---

(١) النور ٢٤: ١٧.

ويسبحون في وسطها تلقائيّاً.

فمع أهمّيّة هذا الوسط، ومع أنّ الشريعة قد حصّنته بإقرار عقوبات الحدود والتعزيرات وقاية له، إلّا أنّ إشاعة الأخبار السيّئة التي سمّاها القرآن تارة بالإفك وأُخرى بالإرجاف وثالثة أنّه أمرٌ من الأمن الاجتماعي إلى غيرها من الأوصاف الأُخرى، هي من العوامل النافذة التأثير في هذا الوسط البيئيّ الاجتماعيّ، ويستقرب وقوعه بسهولة وعفويّة.

وفي الأحاديث تأكيد حثيث على أهمّيّة وخطورة الإعلام والإذاعة -إذاعة الأخبار- والإشاعة وتأثيراتها.

فقد روى حذيفة بن منصور، قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: شيء يقوله الناس: عورة المؤمن على المؤمن حرام.

فقال: ليس حيث يذهبون، إنّما عنى عورة المؤمن أن يزلّ زلّة أو يتكلّم بشيء يعاب عليه فيحفظ عليه ليعيّره به يوماً ما»[1].

وفي حديث آخر: «إنّما هو إذاعة سرّه»[2].

وروى البرقي عن أبي برزة، قال: «صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ انصرف مسرعاً حتّى وضع يده على باب المسجد، ثمّ نادى بأعلى صوته: يا معشر مَن آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتّبعوا عورات المؤمنين، فإنّه من تتبّع عورات المؤمنين تتبّع الله عورته، ومن تتبّع الله عورته فضحه، ولو في جوف بيته»[3].

وعنه: بسنده عن محمّد بن مسلم، قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ العبد

---

(١) وسائل الشيعة: ٢: ٣٧، الباب ٨ من أبواب آداب الحمّام، الحديث ١.

(٢) المصدر المتقدّم: الحديث ٢.

(٣) المحاسن: ١: ١٠٤.

يحشر يوم القيامة وما يدمي دماً ، فيدفع إليه شبه المحجمة أو فوق ذلك ، فيقال له : هذا سهمك من دم فلان ، فيقول : يا ربّ ، إنّك لتعلم أنّك قبضتني وما سفكت دماً ؟

قال : بلى ، سمعت من فلان ابن فلان كذا وكذا فرويتها عنه ، فنقلت عنه حتّى صار إلى فلان الجبّار ، فقتله عليها ، فهذا سهمك من دمه »[1].

روى الصدوق في «الفقيه» عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لابنه محمّد بن الحنفيّة رضي الله عنه : يا بنيّ ، لا تقل ما لا تعلم ، بل لا تقل كلّ ما تعلم ، فإنّ الله تبارك وتعالى قد فرض على جوارحك كلّها فرائض يحتجّ بها عليك يوم القيامة ، ويسألك عنها ، وذكرها ووعظها وحذرها وأدبها ولم يتركها سدىً ، فقال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[2] ، وقال عزّ وجلّ : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ ﴾ »[3].

وفي رواية إسحاق بن عمّار ، عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من أذاع فاحشة كان كمبتدئها »[4].

عن محمّد بن عجلان ، قال : «سمعته يقول : إنّ الله عيّر قوماً بالإذاعة فقال : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾[5] ، فإيّاكم والإذاعة »[6].

---

(١) المحاسن : ١ : ١٠٥.

(٢) الإسراء ١٧ : ٣٦.

(٣) من لا يحضره الفقيه : ٢ : ٦٢٦ ، باب الفروض على الجوارح ، الحديث ٣٢١٥.

(٤) المحاسن : ١ : ١٠٤.

(٥) النساء ٤ : ٨٣.

(٦) الكافي : ٢ : ٢٧٤.

روى الصدوق عن محمّد بن فضيل، عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، قال: «قلت: جعلت فداك، عن الرجل من إخواني بلغني عنه الشيء الذي أكرهه، فأسأله عنه فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قوم ثقات.

فقال لي: يا محمّد، كذِّب سمعك وبصرك عن أخيك، وإن شهد عندك خمسون قُسامة وقال لك قولاً فصدّقه وكذّبهم، ولا تذيعنّ عليه شيئاً تشينه به وتهدم به مروّته، فتكون من الذين قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾(١)»(٢).

وروى القمّي في الموثّق عن زرارة، قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لمّا مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله حزن عليه حزناً شديداً، فقالت عائشة: ما الذي يحزنك عليه، فما هو إلّا ابن جريح، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام وأمره بقتله، فذهب عليّ عليه السلام إليه ومعه السيف، وكان جريح القبطي في حائط، فضرب عليّ عليه السلام باب البستان فأخبر جريح ليفتح له الباب، فلمّا رأى عليّاً عليه السلام عرف في وجهه الغضب، فأدبر راجعاً ولم يفتح الباب، فوثب عليّ عليه السلام على الحائط، ونزل إلى البستان واتّبعه وولّى جريح مدبراً، فلمّا خشي أن يرهقه صعد في نخلة وصعد عليّ عليه السلام في أثره، فلمّا دنا منه رمى جريح بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال، ولا ما للنساء، فانصرف عليّ عليه السلام إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال له: يا رسول الله، إذا بعثتني في الأمر أكون له كالمسمار المحمي في الوبر أم أتثبّت؟

قال: بل تثبّت.

فقال: والذي بعثك بالحقّ ما له ما للرجال ولا ما للنساء.

---

(١) النور ٢٤: ١٩.

(٢) ثواب الأعمال: ٢٤٧.

فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله الذي يصرف عنّا السوء أهل البيت»[١].

روى بسنده عن عبدالله بن بكير، قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك، كان رسول الله ﷺ أمر بقتل القبطيّ وقد علم أنّها قد كذبت عليه أو لم يعلم، وإنما دفع الله عن القبطيّ القتل بتثبّت عليّ عليه السلام.

فقال: بل كان والله عَلِم، ولو كانت عزيمة من رسول الله ﷺ ما انصرف عليّ عليه السلام حتّى يقتله، ولكن إنّما فعل رسول الله ﷺ لترجع عن ذنبها، فما رجعت ولا اشتدّ عليها قتل رجل مسلم بكذبها»[٢].

وقريب منه رواه الصدوق بسنده عن عامر بن واثلة عن أمير المؤمنين[٣].

---

(١) تفسير القمّي: ٢: ٧٥.

(٢) تفسير القمّي: ٢: ٢٩٤.

(٣) الخصال: ٥٦٣، الحديث ٣١.

مُحتويَاتُ الكِتابِ
تفسير سورة الحمد

٩ ـ ١٢٠

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾

المقام الأوّل: أدلّة الجزئيّة ١٣

الدليل الأوّل ١٣

الدليل الثاني ١٤

الدليل الثالث ١٥

الدليل الرابع ١٥

الدليل الخامس ١٩

تذييل ٢٠

المقام الثاني: أسباب نزول الفاتحة ٢٢

نتف معاني سورة الحمد ٢٣

القراءة في روايات أهل البيت عليهم السلام ٢٤

المقام الثالث: فضل سورة الفاتحة وأسمائها (موقعيّتها) ٢٤

اعتراض وجواب ٢٦

مفاد البسملة اللغوي والأدبي ٣٠

﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ ٣٤

لطيفة بديعة ٣٦

بحوث معرفيّة في معاني البسملة ٣٦

قاعدة: تغاير الأسماء مع الذات	٣٧
قاعدة أنّ كلّ اسم في الأصل اشتقاق وصفيّ	٤٤
قاعدة في مراتب التوحيد، ومراتب الصفات والأسماء	٤٥
قاعدة في كون الأسماء توقيفيّة أو توقيفيّة المعارف	٤٦
النقطة الأولى: توقيفيّة الأسماء	٤٦
النقطة الثانية: الاعتبار في المعارف	٤٧
النقطة الثالثة: عموم المولويّة في المعارف	٤٧
النقطة الرابعة	٤٨
النقطة الخامسة	٤٩
قاعدة ضابطة المثل والتمثيل	٥٢
الأسماء والتوسّل	٥٥
نظام الأسماء الإلهيّة في عالم الخلقة	٥٩
إشارات أخرى في البسملة	٦٠
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	٦٣
معاني الحمد	٦٣
جامعيّة الحمد	٦٦
المقارنة بين البسملة والحمد	٦٧
حقيقة الحمد والحسن والقبح العقليّين	٦٨
﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	٦٩
سرّ الخلقة	٧١
﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾	٧١
﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾	٧٥
﴿الدِّينِ﴾	٧٩

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ٨٢
التوحيد في العبادة والاستعانة ٨٣
﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ٩٣
الهداية عنوان للإمامة ٩٧
﴿ الصِّرَاطَ ﴾ ٩٨
الهداية والضلال، والإيمان وظاهر الإسلام ١١٤
المغضوب عليهم والمرضيّ عنهم ١١٥
ظاهرة التمذهب في عصر الرسالة ١١٧
الولاء والبراءة ١١٨

المنهج المعرفي و المنهج الجاهلي

١٢١ ـ ١٥٨

الحروف المقطّعة ١٢٣
﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾ ١٢٧
معاني الكتاب ١٢٩
﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ١٣١
المعلّم الأوّل: تجنّب الريب ١٣٢
﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ١٣٥
المعلَم الثاني ١٣٥
﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ١٤٠
المعلَم الثالث: الإيمان بالغيب ١٤٠

المعلَم الرابع: الهداية وافتراقها عن عموم العلم ١٤٦
الغيب والانتظار ١٤٩
﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ١٥١
المعلَم الخامس: في نهج المعرفة القرآنيّ شرطيّة العبادة في قوّة الإدراك والبصيرة ١٥٢

تكامل المعرفة الدينيّة بين النقد التاريخي وتقليد السلف

١٥٩ ـ ٢٠١

تفسير أوّل للآية: التحريف الأموي لمعنى الآية ١٦١
قواعد مسؤوليّة الموقف تجاه أعمال الأمم ١٦٢
القاعدة الأُولى ١٦٢
القاعدة الثانية ١٦٣
القاعدة الثالثة ١٦٤
القاعدة الرابعة ١٧٨
القاعدة الخامسة ١٧٩
القاعدة السادسة ١٧٩
القاعدة السابعة ١٨٢
حثّ القرآن على تقصّي حقائق التاريخ ١٦٩
التاريخ هويّة الأمم ١٧١
مسؤوليّة الموقف تجاه أحداث التاريخ ١٧١
تفسير ثانٍ للآية: بطلان التقليد وضرورة الفحص والتحقيق ١٨٦
عدم حجّيّة النهج السلفي ١٨٩

توسعة معنى التقليد في القرآن ١٩٠
التدافع بين تفسيري الآية ١٩١
وجوب التمحيص في سيرة الأنبياء فضلاً عن غيرهم ١٩١
عدم حجّيّة سيرة الأنبياء إلّا بالتمحيص ١٩٢
بطلان التقليد للتفكيك في حساب الأعمال ١٩٣
والتفكيك في الوظائف والمسؤوليّات ١٩٣
جدليّة تكامل المعرفة الدينيّة وبطلان التقليد للسلف ١٩٤
بلوغ بعض أصحابهم عليهم السلام ذورة المعرفة ١٩٤
المنهج التجريدي عن التقليدي ١٩٦
المعرفة الدينيّة لا تقف عند حدّ ١٩٧
تفسير ثالث للآية: الفخر المذموم والممدوح ١٩٨
تقييم هذا المعنى ١٩٩
إبادة حقائق القرآن بتحريف معانيه ٢٠٠

التشدّد والترهّب والرياضات غير المأثورة

٢٠٣ ـ ٢٣٠

التشدّد والترهّب والرياضات غير المأثورة ٢٠٥
الابتداع والسنن الحسنة ٢٢٥

الإنفاق بين العدل والإحسان

٢٣١ ـ ٢٥٤

الأوّل: أسباب النزول ٢٣٤

الثاني : مقام عباد الله فوق الأبرار ٢٣٦
الثالث : الميزان في الإنفاق ٢٤١
الطائفة الأُولى من الآيات : تدلّ على مطلق الايثار ٢٤٢
الثانية : ما يدلّ على التوسّط في الإنفاق ٢٤٣
قاعدة : العموم والخصوص في الفضائل ٢٤٩
الجهة الثانية : الإيثار وإقامة العدل ٢٥٢

مقام أصحاب الأعراف

٢٥٥ ـ ٢٧٩

١ ـ مَن هم أصحاب الأعراف ؟ ٢٥٧
٢ ـ أصحاب الأعراف : أصحاب المعرفة ، وهم أهل البيت عليهم السلام .. ٢٦١
٣ ـ من مقوّمات الإمامة : الشهادة على الأعمال ومقام الأعراف . ٢٦٤
٤ ـ النبيّ صلى الله عليه وآله إمام الأئمّة ٢٦٨
٥ ـ أهل البيت الحكّام وولاة الحساب يوم الدين بإذن الله ٢٦٩
أصحاب الأعراف أئمّة أصحاب الجنّة ، والمستكبرون في الأرض
أئمّة أصحاب النار ٢٧٨

إمامة الرسول الأعظم

٢٨١ ـ ٢٨٨

إمامة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ٢٨٣

خلود القرآن الكريم

٢٨٩ ـ ٣٠٣

خلود القرآن الكريم ٢٩٣
عموميّة موارد أسباب النزول ٢٩٤
أُمومة مرجعيّة القرآن وشموليّته ٢٩٥
ليلة القدر واستمرار نزول القرآن ٢٩٩
تكرار أو تكرّر السنن التاريخيّة ٣٠١
البحث المنهجيّ في قراءات النصّ والنصّ القرآني ٣٠٣

نظام الإعلام سلطة و سلاح

٣٠٥ ـ ٣١٧

الإفك ٣٠٨
المسؤوليّة تجاه الإشاعة وإعلام السوء ٣١١

محتويات الكتاب

٣١٩ ـ ٣٢٥